المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم التاريخ

جامعة القصيم
Qassim University

جهود الحكام الأمويين في وحدة الأندلس الفكرية

١٣٨هـ - ٤٢٢هـ / ٧٥٦ - ١٠٣٠م

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب

عبد العزيز بن محمد بن عبد الله اليحيى

٢٩٢٩٠١٣٥٦

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد بن إبراهيم أبا الخيل

الأستاذ بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية قسم التاريخ

العام الجامعي

١٤٣٦- ١٤٣٧هـ

٢٠١٥- ٢٠١٦م


بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم التاريخ

Qassim University جامعة القصيم

جهود الحكام الأمويين في وحدة الأندلس الفكرية
(١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٦-١٠٣٠م)

إعداد الطالب

عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله اليحيى

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

لجنة المناقشة والحكم على الرسالة

أعضاء اللجنة	الاسم	المرتبة العلمية	التخصص	التوقيع
المشرف والمقرر	محمد بن إبراهيم أبا الخيل	أستاذ	تاريخ إسلامي	
المناقش الداخلي	عبدالله بن إبراهيم العمير	أستاذ	تاريخ إسلامي	
المناقش الخارجي	حمد بن صالح السحيباني	أستاذ	تاريخ إسلامي	

نوقشت وأجيزت في١٥/٦/١٤٣٧هـ ٢٤/٤/٢٠١٦م

الإهـداء

إلى والدتي العزيزة حفظها الله عرفاناً ووفاء
إلى روح والدي الطاهرة غفر الله له وأسكنه فسيح جنته
إلى زوجتي الكريمة وأبنائي وبناتي الشباب والأشبال
إلى إخواني الكرام وأخواتي الكريمات
إلى أصدقائي الأعزاء
إلى كل من شجعني ودعمني بكلماته وجهوده
أهدي هذا العمل المتواضع

ملخص الرسالة

نجح الحكام الأمويون في الأندلس في تكوين وحدة فكرية خلال حكمهم لهذه البلاد الذي امتد لأكثر من قرنين ونصف من الزمان(١٣٨هـ - ٤٢٢هـ/٧٥٦م -١٠٣١م)، وكان لهم دورٌ بارزٌ في تحقيق الوحدة الفكرية في هذا القطر البعيد عن مهد الإسلام، مع الأخذ بالاعتبار واقع الأندلس من حيث امتزاجه بثقافات وديانات وأجناس وعصبيات مختلفة، ومدى قدرة الحكام الأمويين على احتواء ذلك كله من خلال التمسك بالدين الإسلامي والمذهب الواحد، ودعم التوجهات التي تحقق الاستقرار الفكري من خلال العديد من الجهود المقروءة والمكتوبة، كما تجلت قدرة حكام بني أمية في حماية الأندلس من جميع الأفكار الوافدة التي تحاول بعثرة النسيج الفكري الواحد للأندلس، ودعم كل ما من شأنه المساعدة في ذلك، يضاف إلى ذلك التطبيقات الخاصة التي قام بها الحكام الأمويون في مناطق متعددة من داخل الأندلس في مواجهة بعض الثورات الداخلية التي تعتنق بعض الأفكار الهدامة والتي تهدد النسيج الفكري للأندلس، أو في أطراف الدولة كالثغور لمواجهة الفكر بالفكر أو الفكر بالسياسة، كما برزت جهود حكام بني أمية في دعم وحدة الفكر الإسلامي من خلال اعتماد اللغة العربية لغةً رسمية في جميع إدارات الدولة ومدارسها، بالإضافة إلى المساجد ودُور العبادة النصرانية، واستحداث مناصب جديدة في الدولة لدعم الوحدة الفكرية.

لقد كان لدخول المذهب المالكي إلى الأندلس في السنوات الأولى من حكم بني أمية ودور حكامها في تثبيته والالتزام به ودعمه، ثم رحلة العديد من العلماء الأندلسيين إلى المشرق وتلقيهم العلم هناك، واستعانة بني أمية بهم بعد رجوعهم إلى الأندلس سواء من كان منهم يعتنق المذهب المالكي أو غيره من المذاهب السنية، وتقريبهم ورفعهم لأعلى المناصب في الدولة، واستخدامهم في التقريب بينهم وبين عامة الناس، والاستفادة منهم في محاربة الأفكار الدخيلة، كان لذلك كله أبلغ الأثر في رسم الوحدة الفكرية للأندلس ونجاحها بشكل منقطع النظير.

ونتيجة لظهور الأفكار الفلسفية والاعتزالية والخارجية والإلحادية (الزندقة)، كان لحكام بني أمية بمساعدة فقهاء المالكية والمذاهب السنية الأخرى دور كبير في التصدي لها،

ومحاربتها ومعاقبة معتنقيها، وضمان عدم وصولها لعامة الناس لتحقيق الوحدة الفكرية.

ولمواجهة النصارى تمكنت الدولة الأموية من القضاء على حركة ابن حفصون، ومواجهة ما يسمى بحركة الاستشهاد النصرانية ومحاصرتها وتطبيق الأحكام بشدة ضد من يحاول المساس بالمعتقدات الإسلامية، مما أدى إلى وأد هذه الحركة واختفائها، ثم رسم سياسة خاصة لأمراء الثغر الأعلى في سبيل مواجهة المد النصراني الشمالي، فكان لذلك أبلغ الأثر في المحافظة على وحدة الأندلس الفكرية.

وقد تم تقسيم البحث إلى تمهيد وستة فصول، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة وعدد من الملاحق.

ويتناول التمهيد: لمحة موجزة عن الحالة الفكرية في الأندلس قبل قيام الدولة الأموية في الأندلس.

ويتناول الفصل الأول: تمكين حكام بني أمية للمذهب المالكي، ويضم ثلاثة مباحث هي: الالتزام بمذهب الإمام مالك ودعمه، وتقريب علماء المالكية واستشارتهم، وتعيين علماء المالكية في المناصب الرسمية ومشاركتهم في وضع أنظمة الدولة.

ويتناول الفصل الثاني: دعم حكام بني أمية للمذهب السني، ويضم ثلاثة مباحث هي: توجيه الرأي العام عن طريق الفقهاء والعلماء، الانفتاح على المذاهب الأخرى غير المالكية، والحفاظ على الهوية الإسلامية.

ويتناول الفصل الثالث: مواجهة حكام بني أمية للفكر الشيعي، ويضم أربعة مباحث هي: مواجهة حركات التشيع داخل الأندلس، وإعلان الخلافة السنية في الأندلس وإجبار العلويين في المغرب على الطاعة، ودعم العلماء والقادة المناهضين للدولة العبيدية في أنحاء العالم الإسلامي، والتحالف مع الدول والقبائل المجاورة ضد الدولة العبيدية.

ويتناول الفصل الرابع: مواجهة حكام بني أمية للأفكار والحركات المنحرفة الأخرى، ويضم أربعة مباحث هي: مواجهة حركات الاعتزال، ومواجهة أهل البدع والفلسفة، ومواجهة أفكار الخوارج، ومواجهة حركات الإلحاد والزندقة .

ويتناول الفصل الخامس: جهود حكام بني أمية في مواجهة النصارى، ويضم ثلاثة

مباحث هي: مواجهة حركة ابن حفصون (٢٦٧هـ - ٣١٦هـ)، ومواجهة الحركات النصرانية داخل الأندلس (ما يسمى بحركة الاستشهاد " الانتحار ")، وتطبيق سياسة خاصة تجاه أمراء الثغر الأعلى.

ويتناول الفصل السادس: الوسائل المساعدة لدعم وحدة الفكر في الأندلس، ويضم ثلاثة مباحث هي: اللغة العربية، والمدارس والكتاتيب والعناية بها، واستحداث مناصب جديدة .

وتضم الخاتمة ملخصاً للنتائج التي تم استخلاصها من هذا البحث، بالإضافة إلى عدة ملاحق.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين... وبعد:

تعرضت الأندلس بعد مدة وجيزة من الفتح الإسلامي لموجة واسعة من الفتن والحروب الأهلية، فجرت خلافات وحروب بين العرب والبربر أولاً، ثم بين العرب اليمنية والعرب المضرية ثانياً، و لم تهدأ هذه الفتن والحروب إلا بدخول عبدالرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) الأندلس، وانتصاره على والي الأندلس يوسف الفهري وصاحبه الصميل بن حاتم في معركة المصارة، في ذي الحجة من عام (١٣٨هـ/٧٥٦م)، ومن ثم تأسيسه الدولة الأموية فيها.

ولقد حرص عبدالرحمن الداخل منذ وصوله إلى الحكم على توحيد أجزاء البلاد تحت رايته، فمنذ أيامه الأولى رفض أن ينتقم أتباعه اليمنية المنتصرون من المضرية أتباع يوسف الفهري المنهزمين، فرسم بذلك منهجاً لدولته سار عليها أبناؤه من بعده، وهي إحلال سلطة الدولة محل سلطة القبيلة، فجعل سلطة الدولة فوق كل العصبيات القبلية، ولتنفيذ هذا المنهج استخدم هو وخلفاؤه أساليب متعددة، منها السياسية والعسكرية والفكرية.

فعلى المستوى الفكري نجح الحكام الأمويون في الأندلس في تكوين وحدة فكرية خلال حكمهم لهذه البلاد الذي امتد لأكثر من قرنين ونصف من الزمان(١٣٨هـ - ٤٢٢هـ/٧٥٦م -١٠٣١م)، وكان لهم دورٌ بارزٌ في تحقيق الوحدة الفكرية في هذا القطر البعيد عن مهد الإسلام، مع الأخذ بالاعتبار واقع الأندلس من حيث امتزاجه بثقافات وديانات وأجناس وعصبيات مختلفة، ومدى قدرة الحكام الأمويين على احتواء ذلك كله من خلال التمسك بالدين الإسلامي والمذهب الواحد، ودعم التوجهات التي تحقق الاستقرار الفكري من خلال العديد من الجهود المقروءة والمكتوبة، كما تجلت قدرة حكام بني أمية في حماية الأندلس من جميع الأفكار الوافدة التي تحاول بعثرة النسيج الفكري الواحد للأندلس، ودعم كل ما من شأنه المساعدة في ذلك، يضاف إلى ذلك التطبيقات

الخاصة التي قام بها الحكام الأمويون في مناطق متعددة من داخل الأندلس في مواجهة بعض الثورات الداخلية التي تعتنق بعض الأفكار الهدامة والتي تهدد النسيج الفكري للأندلس، أو في أطراف الدولة كالثغور لمواجهة الفكر بالفكر أو الفكر بالسياسة، كما برزت جهود حكام بني أمية في دعم وحدة الفكر الإسلامي من خلال اعتماد اللغة العربية لغةً رسمية في جميع إدارات الدولة ومدارسها، بالإضافة إلى المساجد ودُور العبادة النصرانية، واستحداث مناصب جديدة في الدولة لدعم الوحدة الفكرية.

لقد كان لدخول المذهب المالكي إلى الأندلس في السنوات الأولى من حكم بني أمية ودور حكامها في تثبيته والالتزام به ودعمه، ثم رحلة العديد من العلماء الأندلسيين إلى المشرق وتلقيهم العلم هناك، واستعانة بني أمية بهم بعد رجوعهم إلى الأندلس سواء من كان منهم يعتنق المذهب المالكي أو غيره من المذاهب السنية، وتقريبهم ورفعهم لأعلى المناصب في الدولة، واستخدامهم في التقريب بينهم وبين عامة الناس، والاستفادة منهم في محاربة الأفكار الدخيلة، كان لذلك كله أبلغ الأثر في رسم الوحدة الفكرية للأندلس ونجاحها بشكل منقطع النظير.

وخلال القرن الثالث والرابع الهجريين تأثرت الأندلس مثل غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى بظهور عدد من الأفكار الدخيلة على المجتمع الإسلامي والعقيدة الإسلامية، كالأفكار الفلسفية والاعتزاليةوأفكار الخوارج والإلحاد (الزندقة)، فكان لحكام بني أمية بمساعدة فقهاء المالكية والمذاهب السنية الأخرى دور كبير في التصدي لها، ومحاربتها ومعاقبة معتنقيها، وضمان عدم وصولها لعامة الناس لتحقيق الوحدة الفكرية.

ونظرا لأن الجزيرةَ الأندلسيةَ التي حكمها بنو أمية هي في الأصل أرض نصرانية الديانة، فقد عانت الدولة الأموية من بعض الحركات النصرانية التي تهدف لبعثرة التوجه الديني لبني أمية ومحاولة تفتيت وحدة الأندلس السياسية والفكرية، رغم التسامح الكبير الذي أبداه حكام بني أمية مع شعبهم الذي لا يزال بعضه يعتنق الدين النصراني، ومع تمكن الدولة الأموية من القضاء على حركة ابن حفصون، ومواجهة ما يسمى بحركة الاستشهاد ومحاصرتها وتطبيق الأحكام بشدة ضد من يحاول المساس بالمعتقدات الإسلامية، أدى لوأد هذه الحركة واختفائها، ثم رسم سياسة خاصة لأمراء الثغر الأعلى

في سبيل مواجهة المد النصراني الشمالي، أبلغ الأثر في المحافظة على وحدة الأندلس الفكرية.

وتهدف الدراسة إلى إبراز دور الحكام الأمويين في تحقيق الوحدة الفكرية في هذا القطر البعيد عن مهد الإسلام،من خلال التمكين للمذاهب السنية وفي مقدمتها المذهب المالكي، والالتزام به ودعمه مع غيره من بعض المذاهب السنية، ومجالسة العلماء وتعيينهم في المناصب الرسمية للدولة، ومشاركتهم في تطبيق بعض الأنظمة.

كما تهدف الدراسة إلى بيان واقع الأندلس، من حيث امتزاجه بثقافات وديانات وأجناس وعصبيات مختلفة، وقدرة الحكام الأمويين على احتواء ذلك كله من خلال الدين الإسلامي، ودعم التوجه السني للبلد عن طريق توجيه الرأي العام عن طريق الفقهاء والعلماء، وعدم التضييق على المذاهب الأخرى والاستفادة من المذاهب الفقهية في محاربة الأفكار الدخيلة.

كما توضح الدراسة جهود حكام بني أمية في حماية الأندلس من جميع الأفكار الوافدة التي تحاول بعثرة النسيج الفكري الواحد للأندلس، كحركات التشيع التي بدأت تتحرك داخل الأندلس، وموقف الأمير عبدالرحمن بن محمد من خلال إعلان نفسه خليفة للمسلمين لمواجهة الخلافة العبيدية الشيعية، ودعم العلماء المناهضين لها في أنحاء العالم الإسلامي، والتحالف مع الدول والقبائل المجاورة ضد الدولة العبيدية، بالإضافة إلى عدم إغفال الحركات والأفكار الأخرى، كالحركات الاعتزالية وحركات الفلسفة والمنطق وأفكار الخوارج والإلحاد، ودعم كل ما من شأنه المساعدة في ذلك.

كما تهدف الدراسة إلى التعرف على بعض الجهود الخاصة التي قام بها الحكام الأمويون في مناطق متعددة من داخل الأندلس كمواجهة حركة ابن حفصون، وتدارك خطر حركة الانتحار (ما يسمى في المصادر النصرانية بحركة الاستشهاد) أو في أطراف الأندلس كحماية الثغور ، ودراسة جهود حكام بني أمية في دعم وحدة الفكر الإسلامي من خلال اعتماد اللغة العربية لغةً رسمية في عموم الأندلس، واستحداث منصب الفقهاء المشاورين كمنصب جديدة في الدولة سعياً لدعم الوحدة الفكرية.

ولتحقيق أهداف الدراسة قسمت البحث إلى تمهيد وستة فصول، بالإضافة إلى المقدمة

والخاتمة.

ويتناول التمهيد: لمحة موجزة عن الحالة الفكرية في الأندلس قبل قيام الدولة الأموية في الأندلس.

ويتناول الفصل الأول: تمكين حكام بني أمية للمذهب المالكي، ويضم ثلاثة مباحث هي: الالتزام بمذهب الإمام مالك ودعمه، وتقريب علماء المالكية واستشارتهم، وتعيين علماء المالكية في المناصب الرسمية ومشاركتهم في وضع أنظمة الدولة.

ويتناول الفصل الثاني: دعم حكام بني أمية للمذهب السني، ويضم ثلاثة مباحث هي: توجيه الرأي العام عن طريق الفقهاء والعلماء، الانفتاح على المذاهب الأخرى غير المالكية، والحفاظ على الهوية الإسلامية.

ويتناول الفصل الثالث: مواجهة حكام بني أمية للفكر الشيعي، ويضم أربعة مباحث هي: مواجهة حركات التشيع داخل الأندلس، وإعلان الخلافة السنية في الأندلس وإجبار العلويين في المغرب على الطاعة، ودعم العلماء والقادة المناهضين للدولة العبيدية في أنحاء العالم الإسلامي، والتحالف مع الدول والقبائل المجاورة ضد الدولة العبيدية.

ويتناول الفصل الرابع: مواجهة حكام بني أمية للأفكار والحركات المنحرفة الأخرى، ويضم أربعة مباحث هي: مواجهة حركات الاعتزال، ومواجهة أهل البدع والفلسفة، ومواجهة أفكار الخوارج، ومواجهة حركات الإلحاد والزندقة .

ويتناول الفصل الخامس: جهود حكام بني أمية في مواجهة النصارى، ويضم ثلاثة مباحث هي: مواجهة حركة ابن حفصون (٢٦٧هـ - ٣١٦هـ)، ومواجهة الحركات النصرانية داخل الأندلس (ما يسمى بحركة الاستشهاد " الانتحار ")، وتطبيق سياسة خاصة تجاه أمراء الثغر الأعلى.

ويتناول الفصل السادس: الوسائل المساعدة لدعم وحدة الفكر في الأندلس، ويضم ثلاثة مباحث هي: اللغة العربية، والمدارس والكتاتيب والعناية بها، واستحداث مناصب جديدة .

ونظراً لأن هذه الدراسة تعتمد بشكل أساسي على استخراج معلوماتها على

الاستقراء والتحقيق،فقد واجهت صعوبات كثيرة في التنقل بين المصادر والمراجع، والقراءة أكثر من مرة، محاولاً جمع المعلومات ثم فرزها وتبويبها، وقد استغرق مني هذا وقتاً وجهداً كبيرين، أثمر في إخراج هذه الدراسة التي أرجو بإذن الله أن يحصل قارؤها على مبتغاه في ما يتعلق بدور حكام بني أمية بدعم الوحدة الفكرية للأندلس .

وبعد تتبع الدراسات التي تناولت جهود الحكام الأمويين في وحدة الأندلس الفكرية، لم نعثر منها – حسب علمنا – دراسة شاملة غطت الموضوع، ولكن هناك بعض الدراسات التي مسته في بعض جوانبه منها :الأثر السياسي والحضاري للحياة الفكرية في الأندلس خلال العصر الأموي وهي رسالة ماجستير — لم تنشر بعد – أعدها أحمد بن عبدالرحمن الوزان، وقد تناولت هذه الدارسة الاتجاهات الفكرية في الأندلس وأثرها في حياة الشعب الأندلسي من خلال الظروف الاجتماعية التي عاشوها، كما تناولت نوع العلاقات التي ربطتهم بغيرهم من أصحاب الاتجاهات والمذاهب الأخرى، مما يسهم في توضيح الجوانب السياسية لبحثه، كما أن هذه الدراسة التي قام بها الوزان ترصد نشأة كثير من الاتجاهات التي زخر بها الأندلس إبان حكم الأمويين لها، وأثر كل ذلك في دعم الصلة التي تربط الأندلس بالمغرب الأقصى وبقية أجزاء العالم الإسلامي في المجال السياسي والحضاري.

وكتاب : دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة وهو عبارة عن رسالة علمية في الأصل طبع على هيئة كتاب منشور، للمؤلف خليل ابراهيم الكبيسي، ويدرس هذا الكتاب دخول المذاهب الفقهية إلى الأندلس، ودور الفقهاء في الحياة السياسية من خلال علاقتهم بالسلطة ومساندتهم لها، ومعارضتهم لها وانتقادها ورفض أوامرها، كما يتناول هذا الكتاب دور الفقهاء في الحياة الإدارية الدينية والعامة ومدى إسهامهم فيها، بالإضافة إلى دور الفقهاء في الحياة الاجتماعية من خلال توجيه المجتمع وموقفهم من أهل الذمة، ومساهمتهم في الأعمال الخيرية وتخفيف الأزمات المختلفة.

وقد رجعت في هذا البحث إلى حشدٍكبيرمن المصادر والمراجع، ولكن ثمة مصادر استفدت منها أكثر من غيرها، واعتمدت عليها بشكل أساسي في بحثي هذا لعل من

أهمها :

١- المقتبس لابن حيان القرطبي (٣٧٧هـ - ٤٦٩هـ/٩٨٧م - ١٠٧٦م) ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التاريخية التي عاصرت تلك الفترة، بالإضافة إلى استفادة كاتبه من مؤلفات المؤرخين الذين سبقوه كأحمد الرازي، وابنه عيسى، ومحمد الورَّاق، ومن ثم فإن ما كتبه ابن حيان يكتسب أهمية خاصة لكونه حفظ لنا مادة تاريخية هامة لمؤلفين عاصروا الأحداث في الأندلس، بالإضافة إلى كونه شاهداً عاصر بعض الأحداث واستقى بعض معلوماته ممن عاصرها، فهو يتناول في كتابه تاريخ الأندلس منذ افتتاحها حتى أواخر القرن الرابع الهجري، إذ قسم كتابه"المقتبس" إلى عشرة أجزاء، وصل إلينا منها خمس قطع منفصلة، تم تحقيقها، وقد اعتمدت عليها في هذا البحث وهي:

أ- القطعة الأولى من كتاب المقتبس تتناول جميع أيام الأمير الحكم بن هشام وجزءاً كبيراً من أيام ابنه الأمير عبدالرحمن بن الحكم حتى عام ٢٣٢هـ، وقد حققها الدكتور محمود علي مكي، وخرجت تحت عنوان السفر الثاني من كتاب المقتبس، ط١،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،٢٠٠٣ م.

ب- القطعة الثانية من كتاب المقتبس تتناول أيام الأمير عبدالله بن محمد في الفترة ما بين (٢٧٥هـ - ٢٩٩هـ) وقد حققها الدكتور محمود علي مكي، وخرجت تحت عنوان السفر الثالث من كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٩م.

جـ- القطعة الثالثة من كتاب المقتبس تتناول السنوات الأخيرة من حكم الأمير عبدالرحمن بن الحكم وحتى وفاته ومناقبه ما بين سنتي (٢٣٢هـ - ٢٣٨هـ) بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، من مطبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

د- القطعة الثالثة وهي تتمة للقطعة السابقة تتناول أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن ما بين سنتي (٢٣٨هـ - ٢٦٧هـ) بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، من مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

هـ - القطعة الرابعة من كتاب المقتبس تتناول أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله من بدايته وحتى سنة ٣٣٠ هـ، نشره ب . شالميتا بالتعاون مع ف. كورينطي وم. صبح

وغيرهما، طبعة المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، ١٩٧٩م.

و- القطعة الخامسة من كتاب المقتبس تتناول خمس سنوات من أيام الخليفة الحكم المستنصر ما بين سنتي (٣٦٠هـ - ٣٦٤هـ) بتحقيق عبدالرحمن علي الحجي، نشر دار الثقافة، بيروت. وقد استفدت من ها الكتاب في بحثي هذا فائدة كبيرة، وقد يكون اكثر مصدر استقيت منه معلومات هذه الدراسة لما يحويه من مادة غزيرة في أيام أشهر أمراء وخلفاء بني أمية، فهو يقدم سرداً شاملاً للأحداث السياسية والعسكرية والفتن والثورات التي حدثت في الأندلس إبان حكم بني أمية لها، وقد حفل بكثير من الوثائق الرسمية الهامة التي استفدت منها في معرفة نوع العلاقة التي دارت بين أمراء بني أمية وموظفيهم وعلماءهم وقادتهم، بالإضافة إلى جميع حلفائهم دولاً وأفراداً، كما يقدم معلومات قيمة عن فتنة محمد بن مسرة وملاحقة أتباعه والتنكيل بهم، وسرد شامل لثورة ابن حفصون من بدايتها وحتى نهايتها بفتح ببشتر وهدمها.

٢- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) وهو كتاب تراجم ترجم فيه مؤلفه لفقهاء وعلماء ورواة الأندلس وأهل العناية منهم، ورغم أن التراجم مختصرة بهذا الكتاب إلا أنه ذو قيمة عالية إذ إنه يركز على الولادة والوفاة والشيوخ والرواة وبعض التفاصيل المختصرة والمعلومات القيمة عن نشاط الفقهاء السياسي والاجتماعي، كما أنه يعتبر من معاجم التراجم المعاصرة للفترة موضوع بحثنا، وهو من أقدم كتب التراجم، وقد استفدت منه في الترجمة للعديد من فقهاء وعلماء الأندلس الذين ورد ذكرهم في هذا البحث، وتوجهاتهم المذهبية وميلوهم الفكرية ومن يشاور منهم ومن يستفتى، ومن يلي مناصب الدولة الدينية، كما يقدم معلومات مهمة عن نوع العلاقة التي دارت بين حكام بني أمية وفقهاء عصرهم، ودورهم في مواجهة الأفكار المنحرفة.

٣- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي أبي الفضل عياض (ت ٥٤٤هـ)، ويُعد كتابة من أشهر الكتب في الطبقات المذهبية، وقد اشتمل على أعيان فقهاء المالكية في جميع الأقطار مرتبين على الطبقات بدءاً بأصحاب مالك وانتهاءً بشيوخ المؤلف وطبقتهم، وقد وزع أهل كل طبقة حسب بلدانهم، مبتدءاً بالمدينة المنورة وما والاها من الجزيرة العربية كمكة واليمن، ثم المشرق على اختلاف أقطاره

ولاسيما العراق والشام ثم مصر فإفريقية فالمغرب الأقصى، ويختم البلدان بالأندلس، ونظم ترتيب تلك الطبقات بإحدى عشر طبقة، سوى أصحاب مالك الذين استهل بهم وجعلهم في ثلاث طبقات، وقد بلغ عدد رجال تلك الطبقات الذين تُرجم لهم، أكثر من ألف وخمسمائة ترجمة، وتكمن أهمية الكتاب في أنه لا يكتفي بالترجمة بما اعتاد عليه أصحاب التراجم، بل إنه يذكر كل ماله علاقة بصاحب الترجمة، ويتحدث خاصة عن نشاطه السياسي والاجتماعي والعلمي وحتى الأمور الخاصة والمواقف وغيرها، وقد استفدت من هذا الكتاب في كل ما يتعلق بالمذهب المالكي من فقهاء وعلماء فقد خص الأندلس بنصيب وافر من تراجمهم، ودورهم السياسي والفكري، وإسهاماتهم العلمية، والعلاقة التي ربطتهم بأمراء وخلفاء بني أمية من خلال المناصب التي شغلوها الدينية منها والإدارية.

٤- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري (ت ٧١٢هـ) وهو عبارة عن تاريخ عام للأندلس والمغرب من الفتح إلى عصر المؤلف، ورغم تأخره النسبي بالنسبة لتاريخ البحث، إلا أنه قدم معلومات جيدة في العلاقة السياسية التي دارت بين حكام بني أمية وحكام المغرب، وكذلك حكام الدولة العبيدية الشيعية، كما قدم معلومات مفيدة عن العلاقة بين الفقهاء وحكام بني أمية، ودور الحكم المستنصر في إنشاء المكتبات ودور العلم.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي للمعلومات التاريخية المستخدمة، وذلك بجمع المادة من مصادرها المختلفة، التاريخية والفقهية وتراجم الأعلام إضافة إلى المصادر الجغرافية، ثم تحليلها ومقارنتها ببعضها واستخراج النتائج منها.

ختاماً لا يسعني إلا التوجه بالشكر الجزيل والعرفان التام لكل من ساعدني في هذا البحث، ابتداءً من جامعتي جامعة القصيم وقسم التاريخ بها وأعضاء هيئة التدريس بالقسم على ما قدموه لي من رعاية وتوجيه، وأخص بالشكر المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور العزيز محمد بن إبراهيم أبا الخيل الذي له الأثر الكبير بإخراج هذا البحث بهذه الصورة، فلم يبخل بتوجيهه وإرشاده ونصحه طوال مدة إخراج هذه الرسالة، وتزويدي بالعديد من الكتب المهمة من مكتبته الخاصة.

والشكر موصول لأساتذتي الكرام خلال الفترة المنهجية سعادة الأستاذ الدكتور سليمان بن حمد العودة وسعادة الأستاذ الدكتور علي المحيميد، كما لا يفوتني إسداء جزيل الشكر لسعادة الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن راشد السنيدي لتوجيهه وسؤاله الدائم عن مستجدات البحث والدراسة ودوره الكريم في تسهيل إجراءات القبول والدراسة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التمهـــيد

الحالة الفكرية بالأندلس قبل قيام الدولة الأموية

الحالة الفكرية بالأندلس قبل قيام الدولة الأموية

بدأ فتح المسلمون الأندلس(١) عام ٩٢هـ، وبالتالي أصبحت الأندلس منذ ذلك التاريخ جزءاً من العالم الإسلامي، وتدفق إليها المسلمون عرباً وبربراً(٢) من إفريقية وغيرها من الولايات الإسلامية، حيث قاموا جميعاً بنشر الإسلام(٣).

وقد أثر الإسلام والمسلمون على أهل الأندلس تأثيراً عظيماً، فقد دخل كثير منهم الإسلام، وتحولت الأندلس من بلد نصراني يتحدث أهله اللغة اللاتينية(٤)، إلى بلد مسلم عربي اللغة(٥).

وكان فتح المسلمين للأندلس فاتحة عصر جديد، فقد انتشر الدين الإسلامي، وحدث تطور عظيم في الحياة العامة والنظم الاجتماعية، وقد استطاع العرب في أعوام قلائل أن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة، وبالتالي نشطت التجارة والزراعة والصناعة(٦)، وازدهرت

---

(١) الأندلس: جزيرة في آخر المعمورة في المغرب متصلة ببحر أقيانس، وسميت جزيرة لأنها مثلثة الشكل وتضيق من ناحية شرق الأندلس، ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث، وطول الأندلس من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى هيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل وعرضها ستمائة ميل (الحميري : محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، ط١، ص ٣٢، ٣٣، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م).

(٢) البربر: قبائل كبيرة وكثيرة في المغرب لاتحصى، وكلهم أهل بادية وأهل عصائب وعشائر(عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبدالسلام الشدادي، ط١، ٢٧٨/١، خزانة بن خلدون، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م).

(٣) الحميدي : محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية السويفي، ط١، ص١٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م. الحميري، الروض المعطار، ص ٣٥.

(٤) اللاتينية: هي اللغة التي يتكلمها سكان لاتيمlatium وهو إقليم يقع وسط غرب إيطاليا، وتنسب هذه اللغة إلى هذا الإقليم، وهذه اللغة فرع من فروع أسرة كبيرة تسمى الهندية الأوربية حيث تنتمي إليها لغات أوربية كثيرة، وقد انتشرت اللغة اللاتينية من روما إلى بقاع كثيرة في أوربا وبالأخص جنوب غرب أوربا (محمد محمود السلاموني، اللغة اللاتينية، ط٢، ص١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م).

(٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٢- ٣٣، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ط٢، ص ٤١٦، ٤١٧، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٩٨٥م.

(٦) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط٤، ٦٢/١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٧م.

الحياة العلمية وأصبحت الأندلس تزخر بالعلماء وطلاب العلم في مختلف الفنون[1].

وفي الحقيقة أن المسلمين لما دخلوا هذه البلاد لم يدخلوها كما دخلها القوط[2] قبلهم حكاماً يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس[3]، وإنما جاء الإسلام ليقضي على الطبقية الظالمة، ويساوي في الحقوق، ويحمل الحرية والعدل والمساواة، ويعطي كل ذي حق حقه، ورغم حركة الفتح الكبيرة التي شملت أغلب بلاد الأندلس، لم يحمل هذا الوافد الجديد لهذه البلاد عنصر التخريب والتدمير، فعلى الرغم من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض وإسرافهم في الخصومة[4]، ظلت المدن الأندلسية قائمة عامرة تدور الحروب في ظواهرها أو بعيداً عنها وهي آمنة؛ بل اعتبروا هذا الصراع أمراً خاصاً بهم لا شأن لأهل البلاد به.

وقد ارتبط كثير من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد[5]، وعاشوا معهم متجاورين متساوين، وعن طريق التجاور والمصاهرة انتشر الإسلام بين أهل الأندلس، ولم يحاول المسلمون إرغام الناس على الدخول في الإسلام، بل كان أهل

---

(١) للاستزادة راجع كتاب: ابن الفرضي : عبدالله بن محمد الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية السويفي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م.

(٢) القوط: قبائل جرمانية سكنت شبه جزيرة إيبيريا منذ القرن الخامس وحتى القرن الثامن الميلادي، وهي إحدى الدول الجرمانية التي خلفت الإمبراطورية الرومانية الغربية واتخذت من مدينة طليطلة عاصمة لها في الأندلس، وكان آخر حكامها لذريق الذي قتل أثناء الفتح الإسلامي للأندلس عام ٩٢هـ (عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ص ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٤، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣م، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ١ - ٢٠).

(٣) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س.كولان و إ. ليفي بروفنسال، ط١، ٩/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩ م ، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢١.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣/٢- ٣٨.

(٥) ابن القوطية : محمد الأشبيلي المعروف بابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢،ص٣٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص١٨٢، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م، المقري : أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٢٨١/١، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

الأندلس لا يدخلون الدين إلا بعد أن يتبينوا فضائله[١]. وكان الإسلام منذ بداياته الأولى في الأندلس قوياً ويشهد على ذلك جواب السمح بن مالك الذي بعثه للخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز، فقد أبلغ الخليفة بقوة الإسلام وكثرة مدن المسلمين في الأندلس[٢].

هذا وقد ضمن المسلمون الفاتحون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم، وأدخلوهم في ذمتهم مقابل الجزية والخراج على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية[٣]. وبهذا أمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم، وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم والخضوع لقضائهم وقضاتهم، وقد كانت السياسة الإسلامية في كل هذا مثالاً أعلى للتسامح، فلم يظلم أحداً أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد، فقد استمرت علاقة النصارى بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح[٤]، وقد ترك العرب للجماعات النصرانية نظامها المدني والإداري الذي كانت جارية عليه أيام القوط، وكان القائمون عليه مسؤولين عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم، وكانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها إلى بيت المال نيابة عنهم، كما أنهم يعينون لهم القضاة الذين يفصلون في منازعاتهم بحسب القانون القوطي، وكانوا يشرفون على كنائسهم، بمعنى أنه وجد منذ ذلك الحين نظامان إداريان: واحد للمسلمين والآخر للنصارى[٥]؛ أما القضايا التي تقع بين

---

(١) رينهارت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة حسين حبشي، ٤٨/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٢٣، ٤٨٣.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٨. ابن عذاري، البيان المغرب، ص ٢٦، محمد عبدالحميد عيسى، الحضارة الأندلسية مرحلة التكوين، نشر في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير قاسم عبده و رأفت عبدالحميد، المجلد الثاني، ص٢٧٤، ٢٧٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

(٣) الماوردي : علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق خالد العليمي، ط١، ص ٢٥٨ – ٢٦١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠م. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٤٦.

(٤) مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، ط٢، ص ٣٤، ٣٥، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٨م. دوزي، المسلمون في الأندلس، ٤٦/١، ٤٧، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٢/١، ٦٣، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٥) دوزي، المسلمون في الأندلس، ٤٧/١ – ٥٠، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٤٧.

المسلمين وغير المسلمين فإن المخول الوحيد في نظرها هم قضاة المسلمين، ويحكمون فيها بالشريعة الإسلامية، فقد جاء في أحد كتب الفقه المالكي ما نصه"أدركت من القضاة لا يجلسون إلا في الرحبات خارجاً عند موضع الجنائز... ويستحب ذلك ليصل إليه اليهودي"(١). وقد وضع الإسلام حداً لاضطهاد الكنيسة النصرانية لرعاياها النصارى الإسبان بسبب مواقفهم الدينية، فقد دخل كثير من هؤلاء الإسبان في دين الإسلام حيث وجدوا فيه حلاً للكثير من المشاكل العقدية التي انتشرت عند النصارى في هذا الوقت(٢)، أما الذين أرادوا البقاء على ديانتهم النصرانية فقد ترك المسلمين لهم حرية ما يفعلون تجاه الدين النصراني ورجاله، ولم يجد رجال الدين النصراني وسيلة لأذاهم، فقد أصبحت الخلافات الدينية النصرانية حرة لا أحد يستطيع أن يفرض رأياً بالقوة في ظل الحكم الإسلامي، خصوصاً أنه كان قبل دخول الإسلام إلى الأندلس من يقول رأياً يخالف الكنيسة يعرض نفسه للقتل والتنكيل والتشريد(٣).

أما العناصر اليهودية الموجودة بالأندلس قبل الفتح الإسلامي فقد اشتد عليها التعسف والظلم خلال السنوات الأخيرة من حكم القوط، وعانى اليهود أشد المعاناة من اضطهاد القوط لهم، حيث مارسوا في حقهم ألوان الظلم والجور وقد باركت الكنيسة النصرانية ذلك التوجه، وكانت تهدف في بعض الأحيان إلى تنصيرهم ومنعهم من إقامة شعائرهم الدينية(٤)؛ ونتيجة لهذا الظلم والاضطهاد الذي ظل يعانيه اليهود من القوط، لم يتردد هؤلاء لحظة واحدة في مساعدة المسلمين الفاتحين الجدد للأندلس، بل إنهم لم يساومونهم على أي عمل يقومون به لمساعدتهم في الفتح، ورغم أن دور اليهود في الفتح اقتصر على حماية المدن المفتوحة، وحراسة الحاميات التي تركها قادة الفتح خلفهم، إلا أن بعض المؤرخين

---

(١) أحمد بن إدريس القرافي، الذخيرة، تحقيق محمد بوخبزة، ط١، ١٠/٦٠، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٤٧.

(٢) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/٤٨ – ٥٠.

(٣) محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٦٥، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٨٤.

(٤) دوزي، المسلمون في الأندلس ١/٣٨، ٣٩، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٣١، ٣٢، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٢٠ – ٥٢٢.

يذكر أن من العوامل التي ساعدت المسلمين في فتح الأندلس وجود أقلية من اليهود رحبوا بالفاتحين العرب[١]. ولقد أحسن المسلمون في الأندلس معاملة اليهود وتسامحوا معهم، وتركوا لهم بيعهم ورجال دينهم، يمارسون شعائرهم بحرية تامة، ولم ينل أي يهودي أذى خلال فترة الحكم الإسلامي للأندلس، أو على الأقل خلال عصري الولاة والدولة الأموية فيها[٢].

ونظراً لارتباط الأندلس بالشام ارتباطاً وثيقاً منذ بداية فتحها على يد خلفاء بني أمية في الشام[٣]؛ أصبحت الأندلس تابعة رسمياً للشام خلال عصر الولاة، ولذا رحل كثير من الشاميين إلى الأندلس، إما ضمن العسكر الفاتحين، أو من التحق بهم بعد الفتح، أو من العلماء الدعاة الراغبين في نشر الإسلام، أو هرباً من ملاحقة بني العباس بعد سقوط الشام في أيديهم[٤].

ولقد كان من نتيجة هذا الارتباط الوثيق بين الشام والأندلس في الحياة السياسة والإدارية والاجتماعية والدينية أيضاً، أن غلب على الأندلس وأهلها مذهب الإمام الأوزاعي[٥]، وكان ظهور هذا المذهب أولاً في بلاد الشام[٦]، فكان انتشاره في

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٢/٢، لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، ط٢، ١٠١/١، مكتبة الخانقي، القاهرة، ١٩٧٣م، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٢٣.

(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٢٣.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢٩.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٠، ٤١، ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٠/٢، ٣١، أحمد الوزان، الأثر السياسي والحضاري للحياة الفكرية في الأندلس خلال العصر الأموي، ص ٣٩، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ.

(٥) هو أبو عمرو الأوزاعي، واسمه عبدالرحمن بن عمرو والأوزاع بطن من بطون همدان، ولد سنة ثمان وثمانين للهجرة وكان ثقة مأموناً كثير الحديث والفقه والعلم، سمع من مشايخ اليمامة، وسكن بيروت وبها توفي سنة سبع وخمسين ومئة في خلافة أبي جعفر المنصور، وهو ابن سبعين سنة (ابن سعد : محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، ٤٨٨/٧، دار صادر، بيروت، ب. ت).

(٦) محيي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ٢٩٨/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت، أبو الفداء بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، ط١، ١٢٤/١٠، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م.

الأندلس هو استجابة طبيعية لهذا الارتباط[(١)].

ويؤرخ القاضي عياض ظهور المذهب الأوزاعي بالأندلس أن ذلك حدث منذ الفتح الإسلامي للأندلس[(٢)]، ومع يقيننا أن هذا الرأي تعزوه الدقة باعتبار أن الأوزاعي ولد سنة ثمان وثمانين للهجرة[(٣)]، وفتح الأندلس حدث في سنة اثنين وتسعين للهجرة[(٤)]، إلا أننا نستفيد من هذا الرأي أن مذهب الإمام الأوزاعي قد دخل الأندلس خلال فترة مبكرة من ظهوره بالشام، وفي ترجمة يوردها ابن الفرضي[(٥)] يقول فيها:"وكان فقيهاً على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية رحمهم الله"، ومن هذه الترجمة نستشف أن المذهب الأوزاعي أصبح خلال عهد الولاة هو المذهب السائد في الأندلس، وتقوم عليه المعاملات والتشريعات والأحكام القضائية.

ومع انتشار مذهب الإمام الأوزاعي بالأندلس خلال عصر الولاة وبداية عهد الدولة الأموية، إلا أننا لا نملك معلومات عن طريقة انتشاره، ولا عن أعلامه ونشاط فقهائه ومؤلفاتهم، ودورهم السياسي والاجتماعي والفكري، ويعود هذا بدرجة كبيرة إلى عدم الاهتمام برجال المذهب الأوزاعي في أغلب المصادر الأندلسية، نظراً لسيطرة المذهب المالكي ورجاله على الحياه الفكرية والثقافية في الأندلس بعد ذلك لمدة طويلة.

ويعزو بعض المؤرخين أسباب انتشار المذهب الأوزاعي في الأندلس خلال عصر الولاة وبداية عهد الدولة الأموية، إلى أن المذهب الأوزاعي يهتم بدرجة كبيرة بالتشريعات الحربية وأحكام الجهاد، وهذا ما كانت تتطلبه تلك المرحلة القائمة على الفتح والتوسع والجهاد في أرض الأندلس[(٦)].

---

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ٢٩٨/١، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٤/١٠.

(٢) القاضي عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، ط١، ١٥/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٨٨/٧.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٣.

(٥) تاريخ علماء الأندلس، ص ١٣١.

(٦) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٩، دار النهضة العربية، بيروت، ب.ت ،خليل إبراهيم

ومما يدلل على اهتمام الإمام الأوزاعي بالحرب والجهاد، ما دار بينه وبين مالك بن أنس إمام المدينة حيث تذاكرا مرة بالمدينة من الظهر حتى المغرب فغمر الأوزاعي مالكاً بالمغازي، وغمره مالك بالفقه(١). ومهما يكن من أمر فإن تلك الفترة ساد فيها مذهب الإمام الأوزاعي في الأندلس نظراً لأنها تتطلب ذلك.

ولما تمكن الأمير عبدالرحمن الداخل من تأسيس الدولة الأموية في الأندلس، كان اهتمامه بالمذهب الأوزاعي تمسكاً منه بالإرث الشامي الذي لازال يحمله، وتعميقاً منه للصلة السياسية بينه وبين أمراء الشام من بني أمية ضد الحكام الجدد للعالم الإسلامي من بني العباس، فقد استمر العمل بالمذهب الأوزاعي في الأندلس حتى دخول مذهب الإمام مالك(٢)؛ ولم يكن دخول مذهب الإمام مالك للأندلس في البداية ليقطع الناس كلياً عن العمل بالمذهب الأوزاعي. ويذكر الإمام الذهبي(٣) أن العمل بالمذهب الأوزاعي استمر حتى حدود العشرين ومئتين، ثم تناقص.

ومن أشهر العلماء الذين برزوا في تلك الفترة القاضي مهدي بن مسلم، وهو من أهل الدين والعلم والورع، قضى للأمراء قبل دخول عبدالرحمن الداخل الأندلس، واستقضاه عقبة بن الحجاج السلولي(٤)، وقد أمر عقبة قاضيه مهدي بن مسلم أن يكتب عهداً لنفسه

= الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، ط١، ص ٣٠، ٣١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٤م، عبير زكريا بيومي، دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص٢٦، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة طنطا، طنطا، ١٩٩٦م.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٤/١٠.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٢٠٠/١، ٢٠١، المقري، نفح الطيب، ٢٣٠/٣.

(٣) الذهبي : شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر تدمري، ط١، ٤٩٨/٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

(٤) هو عقبة بن الحجاج السلولي ولي الأندلس في أيام هشام بن عبد الملك من قبل عبيد الله بن الحبحاب أمير مصر وإفريقية وما والاها، وهلك عقبة بالأندلس (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٨٧).

عنه، فكتب مهدي على نفسه عهداً باسم عقبة بن الحجاج أورده الخشني[١] مطولاً، قال ابن الحارث: "وإنه اليوم لأصل من الأصول للعهد في القضاء"[٢]. وما يلفت الانتباه في نسب هذا القاضي ما أورده الخشني[٣] أنه كان "من أبناء المسالمة"[٤]، ويعلق حسين مؤنس[٥] على ذلك بقوله: "ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله "المسالمة"، لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتي ١١٦هـ-١٢٣هـ، أي أن مهدي بن مسلم كان رجلاً ناضجاً ممن يعهد إليهم في القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين عاماً، ولا يعقل أن أباه قد أسلم وأمه أنجبته وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء في هذه الفترة المبكرة، فلا بد أن يكون مهدي من أبناء مسالمة إفريقية"، وأياً كان من مسالمة إفريقية أو الأندلس، فإن تعيين مثل هذا القاضي يدل على ماوصل إليه الفاتحين الأوائل من تسامح وتسامي مع أهالي تلك البلاد المفتوحة، ومشاركة الجميع في تمثيل الدولة الإسلامية.

ولما دخل الأمير عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس كان قاضيها يحيى بن يزيد التجيبي، فأثبته على القضاء ولم يعزله، وكان يلقب قبل ذلك بقاضي الجند، فسمي بعد ذلك بقاضي الجماعة[٦]، وكان يحيى بن يزيد قد استقضي على الأندلس وهو بالمشرق، فقدمها وهو قاضٍ، واختلفت الروايات فيمن ولاه القضاء، فمنهم من قال إن الذي ولاه عليها هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، ومنهم من قال إن الذي ولاه هو صاحب إفريقية حنظلة بن صفوان[٧]. والمتتبع لتاريخ ولاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية فيها يتبين أن

---

(١) الخشني : محمد بن الحارث، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق السيد عزت الحسيني، ط١، ص ٢١- ٢٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٢١، النباهي : أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد، تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق مريم قاسم طويل، ط١، ص ٦٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

(٣) قضاة قرطبة، ص٢١.

(٤) أي الذين أسلموا بعد الفتح الإسلامي.

(٥) فجر الأندلس، ص٦٤٩.

(٦) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٢٨.

(٧) هو أبو حفص حنظلة بن صفوان الكلبي من أهل دمشق، ولي مصر مرتين والمغرب ليزيد وهشام أبناء الخليفة =

الذي عينه هو صاحب إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي، وليس الخليفة عمر بن عبدالعزيز، باعتبار أن حنظلة بن صفوان أرسل أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي(١) عاملاً على الأندلس، ووجه معه يحيى بن يزيد قاضياً، وقد دخل الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الملك بن قطن(٢) سنة ١٢٥هـ، أضف إلى ذلك أن عبدالرحمن الداخل لما دخل الأندلس كان يحيى بن يزيد لا يزال قاضياً عليها، وغير وارد أن يستمر يحيى قاضياً منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وحتى دخول عبدالرحمن الداخل إليها، خصوصاً مع كثرة الخلفاء الذين تعاقبوا على الدولة الأموية بالمشرق والأمراء والولاة الذين تعاقبوا على الأندلس طوال تلك الفترة(٣).

وممن دخل الأندلس أيضاً قبل الأمير عبدالرحمن الداخل من العلماء، أبو عمرو معاوية بن أبي أحمد صالح بن عثمان المعروف بحدير الحضرمي، من أهل الشام وبالتحديد من حمص وصل إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ فاستوطن مدينة مالقة(٤)، ثم انتقل إلى إشبيلية(٥)، وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث، شارك الإمام مالك بن أنس في بعض رجاله،

عبدالملك بن مروان وولي إفريقية ليزيد بن الوليد، وتولى ولاية إفريقية لهشام سنة ١٢٤ هـ، ومات بالقيروان وهو والٍ عليها (ابن عساكر : علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر العمروي، ٣٣٠/١٥ – ٣٣٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م).

(١) هو حسام بن ضرار الكلبي بن ربيعة ويكنى حسام أبا الخطار ، كان أميراً على الأندلس، وليها بعد مقتل أميرها عبد الملك بن قطن (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٧٧).

(٢) هو عبدالملك بن قطن بن عصمة الفهري، أمير الأندلس وليها سنة ١١٥هـ بعد عبدالرحمن العكي، وقتل فيها سنة ١٢٥هـ (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٥٤).

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٢٨ – ٢٩، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٧٧، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٣.

(٤) مالقة: مدينة على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية على ساحل بحر المجاز، وكانت تسمى سابقاً مدينة مالق، وفيها شجر التين المنسوب إليها كان يحمل لها من مصر والشام والعراق، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم(ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٣/٥، دار الفكر، بيروت. الحميري، الروض المعطار، ص٥١٧، ٥١٨).

(٥) إشبيلية: مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس، وبها كان بنو عباد، ويطل عليها جبل الشرف، وفاقت غيرها من نواحي الأندلس بزراعة القطن، ويقال أن الذي بناها يوليش القيصر، وهي مدينة موفية على النهر (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٩٥/١. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٨، ٥٩).

وروى عنه جملة من أهل العلم، وذكر أن مالكاً روى عنه حديثاً واحداً، وأرسله الأمير عبدالرحمن الداخل إلى الشام، ولما رجع ولاه القضاء والصلاة وشارك مع الأمير في بعض غزواته(١).

ويبرز اسم القاضي المصعب بن عمران الهمداني الذي عرض عليه القضاء أيام الأمير عبدالرحمن الداخل فرفض، ثم قبله أيام ابنه هشام بن عبدالرحمن، كأبرز علماء تلك الفترة فقد ذكر الخشني(٢): أن هذا العالم دخل الأندلس قبل الأمير عبدالرحمن الداخل، وكان من العرب الشاميين ومكتبه في جند حمص، واستمر المصعب بن عمران قاضياً لهشام بن عبدالرحمن ثم لابنه الحكم بن هشام، وتوفي خلال فترة حكم هذا الأخير، وكان المصعب بن عمران يروي عن الأوزاعي وغيره من الشاميين، وروى أيضاً عن المدنيين، وكان لا يقلد مذهباً ويقضي ما يراه صواباً (٣). ومع ذكرنالبعضأسماء القضاة في فترة الولاة، إلا أننا لا نذكرهم بصفتهم القضائية فقط، إنما بصفتهم من أهل العلم، فهم يمثلون العلم والحياة الفكرية للأندلس في تلك الفترة المبكرة من عمر الدولة الإسلامية فيها.

وكان أول من أدخل المذهب الأوزاعي إلى الأندلس حسب ما يراه الحميدي(٤): صعصعة بن سلام الشامي المكنى بأبي عبدالله، وقد حدَّث هذا العالم بمصر قبل قدومه إلى الأندلس، ولما تولى الأمير عبدالرحمن الداخل الإمارة ولاه الصلاة والفتيا، فكانت الفتيا دائرة عليه بالأندلس أيام الأمير عبدالرحمن الداخل وصدراً من أيام ابنه هشام(٥).

وممن يروي عن الأوزاعي العالم أسد بن عبدالرحمن السبئي الذي يبدو أنه كان موجوداً بالأندلس قبل وصول الأمير عبدالرحمن الداخل إليها؛ نسبة إلى اهتمامه بهذا

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٣٠ – ٣٢. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٠٠ – ٤٠٢. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ٦٣، ٦٤.

(٢)الخشني، قضاة قرطبة، ص ٤٢.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٤٢، ٤٣. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٩٧. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٦ – ٦٨.

(٤) جذوة المقتبس، ص ٢١٤.

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٦٨.

المذهب، كان من أهل إلبيرة وتولى قضائها وكان حياً بعد سنة خمسين ومئة[١].

وفي مجال التعليم فلا يخفى أن الأندلس شهدت خلال الفترة الأولى للفتح الإسلامي لها دخول مجموعة كبيرة من العرب، سواءً من قدم مع جيش الفتح الذي قاده طارق بن زياد[٢]، ومن انضم إلى موسى بن نصير[٣] بعد عبوره إلى الأندلس لإكمال الفتح، أو من لحق بهم بعد الفتح خلال حكم الولاة للأندلس قبل دخول الأمير عبدالرحمن الداخل وتأسيس الدولة الأموية فيها[٤]. وكان من ضمن من دخل الأندلس في تلك الفترة مجموعة من التابعين[٥]، وبطبيعة الحال ستكون المهمة الأولى لهؤلاء التابعين ومن معهم من العرب تعليم الناس الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن هنا نقول إن التعليم في الأندلس بدأ مع الفتح مباشرة، وإن اتسم بطابع القلة والسذاجة، كما إنه تركز في تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم والدين الإسلامي للسكان الأصليين، الذين دخلوا في الإسلام أو من يرغب منهم بدخوله[٦].

ولابد أن هذه الفترة المبكرة من عمر التعليم في هذه الجزيرة الأندلسية كانت متواضعة، وحلقات التعليم فيها لم تتجاوز حلقات بعض المساجد التي هي بدورها كانت

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٧١. الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٥٢.

(٢) هو طارق بن زياد، ويقال أبوعمرو الصدفي، كان مولى للقائد موسى بن نصير ووالياً له على مدينة طنجة المغربية، عهد إليه موسى بن نصير بفتح الأندلس، فسار إليها سنة ٩٢هـ وفتحها، ثم لحق به موسى بن نصير وأكملا الفتح (ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤١٨/٢٤-٤٢٠).

(٣) هو أبو عبدالرحمن موسى بن نصير، يقال أنه مولى لخم، من التابعين، روى عن تميم الداري، عيّنه عبدالملك بن مروان على ولاية إفريقية والمغرب سنة تسع وسبعين، وإليه ينسب فتح الأندلس، مع مولاه طارق بن زياد، مات بمر الظهران، أو وادي القرى سنة سبع أو تسع وتسعين من الهجرة النبوية (الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٠٤).

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٠، ٤١ ، ابن عذاري، البيان المغرب، ٣١/٢، ٣٠، ٣١ ، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٢٧، ١٢٦.

(٥) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٤ ، المقري، نفح الطيب، ٢٧٩/١، ٢٧٧.

(٦) محمد عبدالحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط١، ص٧٢، ٧٣ ، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٢م.

قليلة أيضاً حينذاك، كما أن الأساتذة قليلين بطبيعة الحال[١]، باعتبار انشغالهم بحركة الفتح وما حدث بعدها من صراعات.

و لم تقتصر علاقة الولاة بالتعليم في تلك الفترة على قيام مجموعة من القادة الدينيين بالتعليم في المساجد، إذ أننا نجد بداية لاهتمامهم بالتعليم، فقد انتشرت في تلك الفترة مهنة تأديب الأطفال الصغار، والتي كان يقوم بها مجموعة من المؤدبين، وكان لولاة الأندلس دور كبير بمتابعتها والإشراف عليها[٢]، كما أن وجود المؤدبين وبأعداد لا بأس بها أيام حكم الأمير عبدالرحمن الداخل، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن مجموعة منهم كانوا امتداداً للتعليم والتأديب في عصر الولاة[٣].

وفي نهاية هذا التمهيد لابد أن نذكر أن الأندلس عند دخول الأمير عبدالرحمن الداخل إليها كانت بلداً إسلامياً استبحر فيها الدين الإسلامي، واستقرت قواعده، ويعلق على هذا حسين مؤنس[٤]بقوله:"إن ذلك يعد ظاهرة فريدة في بابها، فإن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن، وهي حقيقة لابد من قبولها وتصديقها".

---

(١) أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط٧، ص٦٠، ٦١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٠.

(٣) انظر هنا، ص ٢٣٠، ٢٣١

(٤) فجر الأندلس، ص٤٢٤.

الفصـــل الأول

تمكين حكام بني أمية للمذهب المالكي

المبحث الأول : الالتزام بمذهب الإمام مالك ودعمه .

المبحث الثاني : تقريب علماء المالكية واستشارتهم.

المبحث الثالث : تعيين علماء المالكية في المناصب الرسمية ومشاركتهم في وضع أنظمة الدولة.

لم يكد المذهب المالكي يضع أقدامه في الأندلس ابتداءً من عهد الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل، حتى رحب به أمراء بني أميه، وبذلوا جهوداً كبيرة في المساعدة على انتشاره والالتزام به ودعمه، والدعوة إلى التمذهب به وترك ما سواه من المذاهب الأخرى، وفي محاولة منهم لتثبيته وحمل الناس عليه أجبروا كثيراً من فقهاء وعلماء المذهب المالكي على تولي المناصب الدينية بداية ثم الإدارية، كما أكثر أمراء بني أمية من مجالستهم والترحيب بكل وافد منهم للأندلس على اختلاف بلدانهم، كما ألزم أمراء بني أمية أنفسهم باستشارة فقهاء المالكية في كثير من أمور دولتهم، ووصل الأمر إلى إسناد جميع الصلاحيات الدينية إلى فقهاء ذلك المذهب فشاركوا الأمير في العزل والولاية، وفي ضوء هذا الدعم الكبير للمذهب المالكي أسند أمراء بني أمية إلى هؤلاء المالكية كثيراً من المناصب الدينية، ووصل الأمر إلى مشاركة بعضهم في وضع أنظمة الدولة، وسنستعرض ذلك عن طريق المباحث التالية :

المبحث الأول

الالتزام بمذهب الإمام مالك ودعمه

لم يستطع المذهب الأوزاعي أن يستمر طويلاً في الأندلس، حيث حل المذهب المالكي بديلاً عنه. ومن المتعارف عليه أن الأمير عبدالرحمن الداخل لما نجح في إقامة الدولة الأموية في الأندلس أقر المذهب الأوزاعي فيها، بدلالة تعيينه الفقيه الأوزاعي صعصعة بن سلام على الصلاة والفتيا، وظل هذا الفقيه يدير هذين المنصبين طوال فترة إمارة الأمير عبدالرحمن الداخل وصدراً من ولاية ابنه هشام، فقد كانت الصلاة والفتيا دائرة عليه طوال تلك الفترة [١].

وخلال إمارة الأمير عبدالرحمن الداخل بدأ المذهب المالكي بالدخول إلى الأندلس عن طريق مجموعة من الفقهاء الذين رحلوا إلى الحجاز إما للحج أو لطلب العلم، ثم رجعوا وهم يحملون بذرة هذا المذهب، ثم بدأ بعدها المذهب المالكي ينتشر بشكل هادئ خلال تلك الفترة. ومن أشهر هؤلاء: الغازي بن قيس[٢]، الذي رحل في صدر أيام الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل إلى المشرق وسمع من مالك بن أنس الموطأ، وانصرف إلى الأندلس، فكان يقرأ عليه، وقيل: إنه كان يحفظ الموطأ ظاهراً [٣]، ويقال: إنه هو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس حيث قدم إليها بعلم كثير [٤].

أما القاضي معاوية بن صالح الذي تولى قضاء قرطبة للأمير عبدالرحمن الداخل، فقد

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٦٨.

(٢) هو أبو محمد الغازي بن قيس سمع من مالك والأوزاعي وغيرهم، وقرأ على نافع قارئ أهل المدينة، وروى عنه مجموعة من علماء الأندلس، وعرض عليه القضاء فرفض، توفي في أيام الأمير الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل سنة ١٩٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٧٢).

(٣)ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٧٢.

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ١/١٩٩، محمد الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ص ٢٥٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

رحل إلى الحج وشارك مالك في بعض رحاله، وروى عنه جلة من أهل العلم منهم مالك بن أنس، وكان الأمير عبدالرحمن الداخل قد وجهه إلى الشام في رحلته تلك(١).

وممن رحل إلى مالك في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل ورجع بعلمه الفقيه أبو موسى عبدالرحمن بن موسى الهواري(٢)،من أهل إستَجة(٣)، لقي مالك بن أنس وغيره، ثم رجع إلى الأندلس فذهبت كتبه بالبحر، فلما قدم إلى بلده إستجة أتاه أهلها يهنئونه بقدومه ويعزونه بذهاب كتبه، فقال لهم: ذهب الخُرج وبقي الدرج، يعني ما في صـــــدره(٤).

وكان لرحلة هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء الأندلس إلى المشرق ولقائهم بالإمام مالك بن أنس، ثم رجوعهم إلى الأندلس، أثر كبير وواضح في نشر مذهب الإمام مالك بالأندلس، وإليهم يرجع الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في معرفة الناس بالمذهب المالكي ومن ثمَّ انتشاره بالأندلس.

ولذا نقول إن هؤلاء وأمثالهم ممن سمع من مالك بن أنس أو نقلوا عنه هم الذين وضعوا أُسس الدراسات الفقهية في الأندلس، وهم المؤسسون الحقيقيون لمذهب مالك فيها(٥).

بدأ مذهب الإمام مالك بالظهور في الأندلس بشكل رسمي وبدعم من السلطة العليا"الدولة الأموية في الأندلس"منذ أيام الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل، حيث رحل

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٣٠.

(٢) هو أبو موسى عبدالرحمن بن موسى الهواري من أهل إستجة تولى قضاء بلده في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل، ثم تولى القضاء بعد وفاة صعصعة بن سلام في أيام الأمير الحكم بن هشام (عياض، ترتيب المدارك، ١/٢٩٤).

(٣) إستجة: مدينة بين القبلة والمغرب من قرطبة، بينهما مرحلة كاملة، وهي مدينة قديمة واسعة الأرباض ذات أسواق عامرة وفنادق جمة، وجامعها في ربضها مبني من الصخر، وهي مدينة كثيرة الثمار والبساتين، وهي الآن مركز تابع لمقاطعة إشبيلية (الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣، محمد إبراهيم أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ٢٧٥هـ – ٣٠٠هـ، ط١، ص ١١٦، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤١٦هـ).

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ١/٢٩٤.

(٥) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٦٥٤.

بعد سنة من ولايته إلى الحجاز الفقيه زياد بن عبدالرحمن المعروف بشطبون[١]، ولقي مالك بن أنس، ثم عاد إلى الأندلس ومعه الموطأ الذي ألفه الإمام مالك، ولذا يعتبر زياد بن عبدالرحمن"أول من أدخل الأندلس موطأ مالك متفقاً بالسماع منه"[٢]، وبالمقارنة بين إدخال الغازي بن قيس للموطأ وبين دخوله على يد الفقيه زياد بن عبدالرحمن، يتبين أن الغازي بن قيس لم يتمكن من إدخال الموطأ كاملاً لأنه شاهد مالك وهو يؤلف الموطأ، ولهذا كان الغازي بن قيس يقدم أو يؤخر في دروسه فيُردُ عليه[٣].

وكان لثناء مالك بن أنس على الأمير هشام بن عبدالرحمن دور كبير في إجلال الأمير لمذهب مالك ودعمه، فلقد سأل الإمام مالك بن أنس الفقيه زياد بن عبدالرحمن عن الأمير هشام، فأخبره بمذاهبه وحسن سيرته فقال مالك: "ليت الله زين سمتنا بمثل هذا"[٤]، وبالتأكيد فقد وصل هذا الكلام لمسمع الأمير هشام، وزاد ذلك من إجلال الأمير هشام لمالك ومذهبه، حيث أخذ الناس جميعاً بالتزام مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه [٥].

إضافة إلى ذلك فقد كثر في أيام الأمير هشام العائدون من المشرق بفقه الإمام مالك، ومن أشهرهم: يحيى بن يحيى الليثي[٦]، الذي قرأ على الفقيه زياد بن عبدالرحمن موطأ الإمام مالك في الأندلس، ثم نصحه زياد أن يرحل إلى مالك فرحل وأدرك مالكاً في آخر

---

(١) هو زياد بن عبدالرحمن بن زهير اللخمي جد بني زياد في الأندلس، قيل أنه من ولد حاطب بن أبي بلتعة، من أهل قرطبة، عرض عليه القضاء في عهد الحكم بن هشام فرفض، توفي سنة ٢٠٤هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٣١، ١٣٢).

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٢٠٠/١.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ١٩٩/١.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٢.

(٥) ابن حيان القرطبي، المقتبس، السفر الثاني، تحقيق محمود علي مكي، ط١، ص ٢٢٦، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٣م.

(٦) هو يحيى بن يحيى بن بكير يكنى بأبي محمد، وهو من مصمودة طنجة، ينتمي إلى بني ليث، كان ممن اتهم في هيج الربض في عهد الحكم بن هشام فهرب إلى طليطلة، ثم استأمن فأمنه الحكم، ثم برزت شهرته في عهد عبدالرحمن بن الحكم، وأصبح المشاور الوحيد في قضاة الأندلس (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٣٢، عياض، ترتيب المدارك، ٣١٠/١- ٣١٧).

عمره وسمع منه، وكان آخر الأعلام الأندلسيين الذين سمعوا من مالك وأخذوا عنه مباشرة، ثم عاد إلى الأندلس بعلم وفير، وأخذ عنه الرواة موطأ مالك[1].

ونتيجة لذلك انتشر مذهب مالك بشكل واسع، و لم يمض وقت حتى أصبح مذهب الإمام مالك بن أنس هو السائد في الأندلس لا ينازعه في ذلك منازع.

ويكاد يتفق الباحثون على أن مؤسسي المذهب المالكي والذين قاموا بإدخال موطأ الإمام مالك إلى الأندلس، وأسهموا في نشره بين الناس، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب في الأندلس، والمذهب الرسمي للدولة الأموية، ثلاثة هم: الغازي بن قيس، وزياد بن عبدالرحمن، و يحيى بن يحيى الليثي[2].

لقد كانت الدوافع السياسية من أهم الأسباب الفاعلة لانتشار المذهب المالكي في الأندلس، فقد كانت الخصومة بين العباسيين في المشرق والأمويين في المغرب على أشدها، ومع أن الأمير عبدالرحمن الداخل خطب للخليفة العباسي عدة أشهر منذ دخوله إلى الأندلس، إلا أننا نراه يقطع الخطبة باسم العباسيين بعد تمكنه وإحكام سيطرته على الأندلس[3]. وقد قام العباسيون بمحاولتين لاسترداد الأندلس في أول عهد الأمير عبدالرحمن الداخل، إلا أنهم أخفقوا في ذلك[4].

ومع أن العباسيين لم يقوموا بأي عمل عسكري ضد الدولة الأموية بالأندلس بعد هاتين المحاولتين، و لم تقم الدولة الأموية بالرد عليها أيضاً، إلا أن العلاقة السلبية استمرت

---

(١) عياض، ترتيب المدارك، ٣١٠/١، ٣١١.

(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٦٥٤. خليل الكبيسي، دور الفقهاء، ص ٣٨ – ٤٠، عبير بيومي، دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس، ص٣٢.

(٣) ابن الأبار : محمد بن عبدالله القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط٢، ٣٥/١، ٣٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م. المقري، نفح الطيب، ٣٢٩/١.

(٤) كانت المحاولة الأولى عن طريق العلاء بن مغيث اليحصبي عام ١٤٦هـ، حيث دعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور لكن هذه المحاولة انتهت بمقتل العلاء بن مغيث وتدمير جيشه، والمحاولة الثانية كانت بقيادة عبدالرحمن بن حبيب الفهري عام ١٦١هـ، حيث دعا إلى طاعة الخليفة العباسي المهدي وانتهى أمره كسابقه إلى القتل (ابن عذاري، البيان المغرب، ٥١/٢، ٥٥، ٥٦، ابن الأثير : الحسن بن علي بن الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، ٢٣٩/٥، ٢٤٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م).

بين الطرفين نتيجة للخلافات القديمة بين الطرفين منذ وجود الأمويين بالشام، وسقوطهم على يد العباسيين في المشرق.

هذه الخلافات القديمة والعلاقات المتوترة بين الأمويين والعباسيين؛ انتقلت بدورها للانتماء الديني، فبينما نرى العباسيين يدعمون المذهب الحنفي ممثلاً بأبي حنيفة[١] ويلتزمون به، نجد الأمويين في الأندلس يقلدون المذهب المالكي المتمثل بفقه الإمام مالك بن أنس، والذي كان بدوره على علاقة ليست وطيدة مع العباسيين؛ بسبب مواقفه من بعض الثورات المعارضة للدولة العباسية[٢]، والاضطهاد الذي لقيه على يد أحد ولاة الدولة العباسية في المدينة[٣]، كل ذلك أسهم في التقارب بين السلطة المركزية في الدولة الأموية وبين الإمام مالك ومذهبه، يضاف لذلك الإطراء والمديح الذي ساقه الإمام مالك بن أنس للأمير الأموي هشام بن عبدالرحمن[٤]، ووصول هذا الخبر إلى أسماع الأمير هشام بن عبدالرحمن، وقد يكون ذلك من بين الأسباب التي دفعت الأمير هشام للقيام بإلزام الناس بمذهب مالك بن أنس، وتصيير القضاء والفتيا عليه[٥].

ويكفي تأكيداً على ذلك قيام الأمير هشام بن عبدالرحمن بعزل مفتي الأوزاعية صعصعة بن سلام، وأسند له الصلاة فقط، وهو الذي كان يشغل هذين المنصبين طوال فترة حكم الأمير عبدالرحمن الداخل وجزءاً من أيام الأمير هشام[٦].

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت مولى بني تيم الله بن ثعلبة، ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ وتوفي ببغداد سنة ١٥٠ هـ (يوسف بن عبد البر القرطبي، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط١، ص٨٣ – ٩١، مكتبة المغيرة الإسلامية، حلب، ١٩٩٧ م).

(٢) أهم هذه الثورات ثورة محمد بن عبدالله بن الحسن (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم حيث خرجوا على أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ، ولم تنجح ثورتهم وانتهت بمقتلهم (الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ط١، ٤٢٢/٤ – ٤٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ).

(٣) حادثة ضرب الإمام مالك بن أنس على يد والي المدينة جعفر بن سليمان (المسعودي: علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق كمال حسن مرعي، ط١، ٢٨٢/٣، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥ م).

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٢.

(٥) عياض، ترتيب المدارك، ١٥/١.

(٦) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٢٦.

وبالإضافة إلى قيام الأمير هشام بن عبدالرحمن بعزل صعصعة المفتي الأوزاعي، نراه يلح وباستمرار على زياد بن عبدالرحمن لتولي القضاء، وهو من أبرز من أسهم بنشر المذهب المالكي بالأندلس، فرفض زياد القضاء، ووصل به الأمر إلى الهرب بنفسه، فقال الأمير هشام:"ليت الناس كزياد حتى أكفي أهل الرغبة في الدنيا ثم أمّنه فرجع إلى وطنه"[١].

هذا الاهتمام من الأمير هشام بن عبدالرحمن بالفقيه زياد بن عبدالرحمن لا يستغرب، فعن طريقه تعرّف الإمام مالك بن أنس على الأمير هشام ومدحه بكلمات[٢] لا شك أنها وصلت إلى أسماع الأمير، وهذا ما يفسر إلحاح الأمير هشام على الفقيه زياد بن عبدالرحمن لقبول خطة القضاء، ولما رفض هذا المنصب، قام الأمير هشام بتقريب الفقيه زياد واستشارته في كثير من أموره، فكان يأخذ برأيه ويبالغ في بره وإكرامه ويخلوا به[٣].

وبدوره انعكس كل ذلك على علماء المالكية، فهذا الفقيه ابن أبي هند[٤] الذي كان الإمام مالك يسميه حكيم الأندلس، مرّ به الأمير هشام بن عبدالرحمن فقام إليه وحيّاه، فقال له الأمير هشام:"لقد ألبسك مالك ثوباً جميلاً"[٥].

وكان الأمير هشام يقول:"بلوت الناس فما رأيت رجلاً يكتم من الزهد أكثر مما يظهر إلا زياداً"[٦].

وكان الفقيه زياد بن عبدالرحمن حاضراً يوماً عند الأمير هشام فغضب على أحد خدمه، فأمر بقطع يده، فقال له زياد:"أصلح الله الأمير، فإن مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه، أن من كظم غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً يوم القيامة، فسكن غيظ

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٢٤.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٢.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ١/٢٠١.

(٤) هو عبدالرحمن بن أبي هند الأصبحي من أهل طليطلة وسكن قرطبة، سمع من مالك بن أنس، واستوزره بعض الخلفاء(ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢١١).

(٥) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٣.

(٦) عياض، ترتيب المدارك، ١/٢٠١.

الأمير وقال له: آلله أن مالكاً حدثك بهذا ؟ فقال زياد: آلله أن مالكاً حدثني به، فأمر الأمير أن يمسك عن الخادم وعفا عنه"[١].

ومن الملاحظ أن الأمير هشام بن عبدالرحمن أولى الجانب الديني أهمية كبيرة في إدارته للدولة، حيث يذكر حسين مؤنس[٢]: أن الأمويين تنبهوا لأهمية الجانب الديني في تفكير شعوبهم، حيث يعتبر هذا من أهم الاكتشافات التي مكنت دولتهم من الاستمرار، وهذا الاكتشاف تم في السنوات القصيرة التي حكمها هشام بن عبدالرحمن، وهي سنوات سبقها تمهيد طويل أثناء حكم والده الأمير عبدالرحمن الداخل، واستطاع هشام بحنكته هذه أن يتغلب على أخيه سليمان، حيث كان كلاهما مرشحاً لولاية العهد، فبينما نرى سليمان يهتم بالحرب والسياسة وكسب الجند، نرى هشام متديناً ميالاً إلى العلم فاجتذب الفقهاء إليه وأحبوه.

لقد كان التشابه بين اهتمام الأمير هشام واهتمام الفقهاء في وقته، من أبرز الأسباب التي ثبتت أقدام المذهب المالكي في الأندلس، فإن هشام وقد رأى ما وصل إليه بمساندة العلماء والركون إليهم، وما وصل إليه أخوه بسبب انصرافه إلى أهل السياسة وحدهم، حيث مضى في هذا الطريق فأصبح أميراً فقيهاً، ولم يرَ مانعاً من أن يسمح للفقهاء بشيء من السلطان إلى جانبه، مع الحرص على أن يكون هذا الجانب الذي يتنازل عنه مضيفاً إلى جاه الأمير زائداً في سلطانه[٣].

ورغم العلاقة السيئة التي ربطت الأمير الجديد الحكم بن هشام بعلماء وفقهاء المالكية، نتيجةً لقيامه بصلب اثنين وسبعين رجلاً من فقهاء وأفاضل ووجهاء أهل قرطبة سنة ١٨٩هـ[٤]، إلا أن الأمير الحكم لم يلبث أن تراجع عن موقفه من الفقهاء، فقد تبين له أن

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٩١.

(٢) شيوخ العصر، ط٢، ص ٩، ١٠، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٧ م.

(٣) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ١١.

(٤) تتلخص هذه الحادثة في قيام العديد من علماء ووجهاء قرطبة بتدبير خطة للإطاحة بالأمير الحكم بن هشام وتولية ابن عمه محمد بن قاسم المرواني ؛ لأمور نقموها على الحكم، ولكن تم كشف مخططهم من قبل الأمير الحكم، فأمر بقتل وصلب ٧٢ رجلاً منهم، كانوا من فضلاء الناس ووجوههم (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ١٢١، ابن عذاري، البيان المغرب، ٧١/٢).

ملكه لن يقوم على القوة العسكرية وحدها، وأنه بحاجة إلى تأييد علماء الدين، فأصدر عفواً عامًّا عن المشتركين بالثورة[١]، خصوصاً الفقهاء المشهورين أمثال يحيى بن يحيى الليثي[٢].

ويذكر ابن حيان[٣] أن الأمير الحكم تاب من ذنوبه، وندم على ما اقترف منها، واستغفر ربه، وعرضت له رقة فطفق يكثر الذكر وتلاوة القرآن.

أما ابن عذراي[٤]فيذكر أن الأمير الحكم تاب إلى الله متاباً، ورجع إلى الطريقة المثلى، وأقر واعترف بذنوبه. ويعني ذلك أنه أقر بسلطان الدين وعلمائه، وعول على أن يوثق علاقته بهم ليكونوا عماد سلطانه[٥].

ولما أعطى الأمير الحكم بن هشام الأمان ليحيى بن يحيى الليثي زعيم المالكية في وقته، استجاب يحيى ورجع إلى قرطبة في آخر عهد الحكم، فاستقرت بقرطبة حاله واعتلت رياسته[٦]، وبهذا عاد المذهب المالكي للبروز في الأندلس بعد الكبوة التي تعرضت لها في بدايات عهد الحكم بن هشام.

ورغم القسوة والشدة التي أبداها الأمير الحكم بن هشام في بدايات حكمه على بعض الفقهاء، سواءٌ أكانوا من أتباع المذهب المالكي أو غيره من المذاهب، إلا أنه ظل متمسكاً بالمذهب المالكي رافعاً لشأنه، حتى إنه قبل بالشروط التي اشترطها عليه القاضي محمد بن بشير[٧] عندما ألزمه تولي خطة القضاء وقال:"أقبل خطتك هذه على ثلاثة شروط

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ١٤٦.

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ١٥٥، ١٥٦، ٢٠٠، ٢٠١.

(٣) المقتبس، السفر الثاني، ص ١٧٩.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٨٠.

(٥) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ٢٨.

(٦) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ١٥٥، ١٥٦.

(٧) هو محمد بن بشير بن شراحيل المعافري، أصله من جند باجة من عرب مصر، طلب العلم بقرطبة، وكتب للقاضي المصعب بن عمران، ولاه الأمير الحكم بن هشام القضاء ولم يزل متولياً لخطة القضاء حتى وفاته سنة ١٩٨ هـ (الخشني، قضاة قرطبة، ص ٤٧، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٢).

مضمونة إن التزمتها لي تقدمت، وإلا فلن أقبلها البتة، قال: وما تلك ؟ قال: نفاذ حكمي على كل أحد ما بينك – أعزك الله – فحارس السوق، وأني إذا ظهر لي العجز من نفسي استعفيت فأعفيتني، وأن يكون رزقي من مال الفيء، فقال له الأمير الحكم: هن لك عندي حفيظات، وعند ذلك تقلد العمل"(١).

وقد طبق القاضي محمد بن بشير شروطه التي اشترطها على الأمير الحكم، من ذلك حكمه في جارية للأمير - وهي أم لولد – حيث كتب إليه، وطلب منه إحضارها لإنفاذ الحكم، ووجب أن تقوّم الجارية، ويدفع ثمنها إلى مستحقها على فتوى الإمام مالك بن أنس، فقبل الأمير، فقوّمت الجارية بداخل القصر وحضر تجار الرقيق لتقويمها بناءً على حكم القاضي(٢).

ومن ذلك أيضاً أنه لما شهد الأمير الحكم مع عمه "سعيد الخير"، وذهب بالشهادة وكيله إلى القاضي محمد بن بشير، رد الشهادة و لم يقبلها، فذهب سعيد الخير إلى الأمير الحكم وأغراه بالقاضي فلم يلتفت له، وأثنى عليه خيراً(٣). ويكفي القارئ أن يتمعن في الحادثتين السابقتين ليتعرف على مستوى التمكين الذي وصل إليه علماء المالكية في تلك الفترة، ومدى التزام الأمراء بذلك حتى في القضايا التي يكون الأمراء أو أقاربهم طرفاً فيها، ورغم ما شهده عهد الأمير الحكم من قسوة وشدة ضد بعض الفقهاء، إلا أنه ظل ملتزماً بالنهج الذي سار عليه من قبله في التمكين للمذهب المالكي ودعمه.

وبعد وفاة الأمير الحكم بن هشام وتولي ابنه الأمير عبدالرحمن بن الحكم، انتقلت الأندلس إلى مرحلة جديدة في ترسيخ الحكام الأمويين للمذهب المالكي، فقد ارتفع من خلالها نفوذ الفقهاء المالكيين إلى درجة أن أصبحوا هم المسيطرين على الشؤون الدينية في جميع أنحاء الدولة لا ينازعهم فيها منازع، وقد ساهم في ترسيخ هذا النفوذ أمران، الأول: تعيين الفقيه يحيى بن يحيى الليثي المستشار الأول في الدولة، فقد اتخذ الأمير عبدالرحمن بن

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢١٤.

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢١٨.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢١٦، ٢١٧.

الحكم من الفقيه يحيى بن يحيى مستشاراً خاصاً له في أموره ونوازله، فلم يكن يولي أحداً إلا عن رأيه ومشورته، ولا يُعزَل أحد إلا عن رأيه ومشورته[١].

ويلخص ابن حيان[٢] الحال التي كان عليها الفقيه يحيى بن يحيى في عهد الحكم فيقول:"غلب يحيى بن يحيى على رأي الأمير عبدالرحمن بن الحكم، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الوالد لأبيه، فلا يستعفي قاضياً ولا يعقد عقداً ولا يمضي في الديانة أمراً إلا عن رأيه وبعد مشورته".

ويقول ابن الفرضي[٣]:"لم يُعطَ أحدٌ من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى".

الأمر الثاني: تعيين جملة من الفقهاء المالكيين في منصب المشاور، حيث أشركهم الأمير عبدالرحمن بن الحكم في إدارة شؤون دولته، فكان يستشيرهم فيما يشكل عليه من أمور دينه ودنياه وعرف هؤلاء فيما بعد بالفقهاء المشاورين[٤].

ومن شدة حرص الأمير عبدالرحمن بن الحكم على تطبيق المذهب المالكي أمر بأن لا تفرق صلاة الجمعة بمصر واحد، فقام بحبس الناس على مسجد واحد هو جامع قرطبة، أخذاً برأي الإمام مالك بن أنس، مما أدى إلى تضايق الناس[٥].

ويعلق الحميدي[٦] على انتشار مذهب الإمام مالك في الأندلس ومذهب أبي حنيفة في العراق بقوله:"مذهبان انتشرا بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة في العباسية ومذهب مالك بن أنس في الأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، ص ١٨٠، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٣١، ٤٣٢ .

(٤) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٩٨، ابن حيان، المقتبس، ص ١٨٣، ٢٢٠، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

(٥)ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٦) جذوة المقتبس، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

القول في القضاء، ولا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به".

وفي المرحلة التي تلت حكم الأمير عبدالرحمن بن الحكم شهدت الأندلس دخول مذاهب فقهية كالشافعية والظاهرية وغيرها، إلا أن المالكية ظلت هي المسيطرة على رأي حكام الدولة الأموية، فقد كان الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم محباً للعلوم مؤثراً لأصحاب الحديث[1]، وأصحاب الحديث هم أتباع مدرسة الإمام مالك بن أنس التي تعتني كثيراً بعلم الحديث[2]، وفي ذلك يقول عياض[3] في حديثه عن الإمام مالك بن أنس:"وهو أمير المؤمنين في الحديث".

ورغم أن الأمير محمد بن عبدالرحمن قرّب الفقيه قاسم بن محمد بن سيار[4]،وهو شافعي المذهب وجعله كاتباً لوثائقه[5]، إلا أن هذا الفقيه كان لا يفتي بالأندلس إلا بمذهب مالك، وحين سُئل عن سبب فتواه على المذهب المالكي بخلاف ما يعتقده قال:"إنما يسألوني عن مذهب جرى في البلد يعرف فأفتيهم به، ولو سألوني عن مذهبي أخبرتهم"[6]. ولا يستبعد أن يكون هذا الفقيه يكتب وثائق الأمير محمد بن عبدالرحمن وفق مذهب الإمام مالك.

وفي عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن وجزء من عهد والده الأمير عبدالرحمن بن الحكم

---

(١)مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ط٢، ص ١٩١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩ م.

(٢)عبير بيومي، دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس، ص ٣١.

(٣) ترتيب المدارك، ٣٦/١.

(٤) هو قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، من أهل قرطبة، يكنى أبا محمد، سمع من عدد من العلماء الشافعيين والمالكيين، كان يلي وثائق الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم طوال أيامه، توفي سنة ٢٧٧ هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٧٩، ٢٨٠).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٨٠.

(٦)ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنّان ، ط١، ص٣٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

دارت الفتيا في الأندلس على الفقيه أصبغ بن خليل مدة خمسين سنة[١]، وهو مالكي متعصب لمذهبه كما يذكر ذلك ابن الفرضي[٢].

كما انفرد الفقيه عبيدالله بن يحيى بن يحيى الليثي[٣] برياسة البلد في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن، وكان مشاوراً في الأحكام[٤]. وهذا ما يفسر سيطرة المالكية على الأندلس أثناء فترة حكم الدولة الأموية، فلولا دعم الحكام الأمويين لهم وتعيينهم في أرفع المناصب، لما تمكن المذهب المالكي من السيطرة على الحياة الدينية في الأندلس خلال تلك الفترة.

ولما تولى الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله"اعتز ركن الدين واحتمى ذمار المسلمين، وقام الجهاد على ساق، وخمدت نار الخلاف والشقاق، ودخل الناس إلى طاعته أفواجاً، واستنفروا إلى دعوته أفراداً وأفواجاً"[٥]، وأخذ على عاتقه تطبيق مذهب الإمام مالك في الأندلس، فكان يشهد معه الجمعة ثلاثة آلاف وخمسمئة من العلماء والفقهاء كلهم مقلس[٦]، وكان لا يتقلس إلا من حفظ المدونة وموطأ الإمام مالك[٧]. وكانت الفتيا في تلك الفترة دائرة على الفقيه محمد بن عمر بن لبابة [٨] كما كان هذا الفقيه مشاوراً أيضاً، ولم يشترك معه أحد في رياسة البلد والقيام بالشورى حتى وفاته سنة ٣١٤ هـ، وكان هذا

---

(١) هو أصبغ بن خليل يكنى أبا القاسم، من أهل قرطبة، تولى الفتيا بالأندلس مدة خمسين سنة وتوفي سنة ٢٧٣هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٧٢ – ٧٤).

(٢) تاريخ علماء الأندلس، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) هو عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي، يكنى بأبي مروان من أهل قرطبة، أخذ علمه عن والده الفقيه المشهور يحيى بن يحيى، توفي سنة ٢٩٨ هـ في آخر عهد الإمام عبدالله بن محمد (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٠٦، ٢٠٧).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٢٣، ٢٢٤.

(٦)القلسوةوالقلساة والقلنسوة والقلنسية من ملابس الرؤوس معروف وتقلس أي ألبسته القلنسوة فلبسها (ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ط٣، ٦/١٨١، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ).

(٧) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٠٨.

(٨) هو محمد بن عمر بن لبابة، من أهل قرطبة، كان إماماً في الفقه، وكان مشاوراً في أيام الأمير عبدالله بن محمد ثم انفرد بالفتيا في عهد عبدالرحمن الناصر، ولد سنة ٢٢٥ هـ وتوفي سنة ٣١٤ هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٢٠).

الفقيه أشهر المالكية في وقته[١].

هذا العدد الهائل من أتباع المالكية المتمكنين، وهذه الهيمنة المطلقة على المناصب الدينية، ما كانت لتحدث لولا تمكين أمراء البيت الأموي لهذا المذهب والتزامهم بدعمه، خصوصاً أن المذهب المالكي سيطر على الحياة الدينية في الأندلس منذ عهد الأمير هشام بن عبدالرحمن (١٧٢هـ - ١٨٠هـ) مروراً بعهد الخليفة عبدالرحمن الناصر(٣٠٠ هـ - ٣٥٠ هـ) والذي نحن بصدد الحديث عنه، ولا شك أن هذه السنوات الطويلة أعطت المذهب المالكي زيادة في الرسوخ وكثرة في الأتباع، وانعكس ذلك بدوره على عامة الناس، فتقبلوا كل ما يصدر عن أصحاب هذا المذهب واعتمدوا عليهم في كل ما أشكلهم من أمور دينهم ودنياهم، وهذا ما يفسر إبراز الأمويين لهم والاعتماد عليهم في كثير من أمورهم.

وكان الفقهاء مجمعين على أن الخليفة عبدالرحمن الناصر لا يرى إلا رأي الإمام مالك، ففي مناظرة مع مجموعة من الفقهاء المتمسكين بمذهب مالك قالوا فيها لأحدهم:"سبحان الله تترك قول مالك الذي أفتى به أسلافنا، واعتقدناه بعدهم وأفتينا به لا نحيد بوجه عنه، وهو رأي أمير المؤمنين ورأي الأئمة آبائه"[٢]. وبلا شك فهذا النص يعطي دلالة واضحة على أن رأي الأمير هو المعتبر بالنسبة للتفويض وما يجب العمل به، بل والمحاجة في ذلك واعتباره شاهداً على وجوب الإتباع، وهذا التكامل والتواؤم بين الأمويين والمالكية، ما يفسر بوضوح سر دعم كل منهما للآخر، وبالتالي نرى أنه لما أخذت البيعة من بعض أمراء العدوة في المغرب، ألزموا بالعمل بالسنة وبمذهب الإمام مالك بن أنس[٣]، وفي ذلك تأكيد على سيادة المذهب المالكي وأنه هو المذهب الرسمي للدولة الأموية وهو ما يجب العمل به وترك ما دونه.

ومن أشهر الفقهاء في عهد عبدالرحمن الناصر الفقيه محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٢٠.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٨٢/٢.

(٣) ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق عبدالرحمن علي الحجي، ص ١٧٤، دار الثقافة، بيروت.

الليثي[١] من أسرة الفقيه المشهور يحيى بن يحيى الليثي، وكان هذا الفقيه مشهوراً بمالكيته، اعتمد عليه الخليفة عبدالرحمن الناصر في أمور كثيرة فكان قاضياً ومشاوراً تولى قضاء عدد من البلدان والنظر في عمالها، فكانوا لا يقدمون ولا يؤخرون إلا عن أمره، ثم تولى قضاء الجماعة في قرطبة سنة ٣٢٦ هـ[٢]. كما عينه الخليفة عبدالرحمن الناصر سفيراً له على ثغور الأندلس، وبالأخص العدوة المغربية، فكان يذهب لمقابلة كبار الأمراء، ويشرف على المناطق، ويرعى مصالحها وحصونها، ويرتب مغازيها وكانت وفاته في بعض زياراته لهذه الثغور، وبالتحديد في أحد الحصون المجاورة لطليطلة[٣].

إن تفويض الخليفة عبدالرحمن الناصر لهذا الفقيه المالكي، وإعطائه هذه الصلاحيات لا تثير الاستغراب، وكل ما قام به يعتبر نموذجاً لما كان عليه عمل الأمراء قبله، وقد يكون اقتداءً بجدّه الأمير عبدالرحمن بن الحكم الذي فوض جدّ هذا الفقيه في أمور كثيرة، فكان لا يولي ولا يعزل إلا عن رأيه ومشورته[٤]، وكل هذه الصلاحيات التي أسندها الناصر لهذا الفقيه إنما تأتي في إطار التزام الأمويين بدعم المذهب المالكي والتمكين له.

وعلى الرغم من أن الخليفة الناصر ولّى الفقيه منذر بن سعيد البلوطي[٥] القضاء، وكان ظاهري المذهب، إلا أنه ألزمه بالعمل بمذهب الإمام مالك، فكان القاضي منذر البلوطي إذا جلس في مجلس الحكم قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، لأنه هو الذي عليه العمل بالأندلس وحمل السلطان أهل مملكته عليه[٦]، وفعل الفقيه المنذر يشابه ما كان

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي، من أهل قرطبة، يكنى أبا عبدالله، رحل لطلب العلم سنة ٣١٢هـ، ولد سنة ٢٨٤ هـ، وتوفي سنة ٣٣٩ هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٢ – ١٧٥، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٤٠، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨١ – ٨٥.

(٤) ابن حيان، المقتبس، ص ١٨٠، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٥) هو منذر بن سعيد بن عبدالله البلوطي، ولاه الخليفة عبدالرحمن الناصر القضاء والصلاة في قرطبة سنة ٣٣٩ هـ، واستمر على هاتين الخطتين طوال فترة حكم الأمير عبدالرحمن الناصر وجزءاً من حكم ابنه الحكم المستنصر، حتى وفاة هذا الفقيه سنة ٣٥٥ هـ. (الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٥ – ١٧٦).

(٦) المقري، نفح الطيب، ٢/٢١.

يفعله الفقيه قاسم بن سيار في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن حيث كان لا يفتي إلا بمذهب مالك مع كونه شافعي المذهب، ويعلل سبب فعله ذلك بأن مذهب مالك كان هو السائد في البلد[1]، ومن هنا نستشف أن المذهب المالكي أصبح عرفاً لحكام بني أمية في الأندلس، بحيث أنهم كانوا لا يتركون مجالاً لمذاهب أخرى لكي يعمل بها إزاء مذهب مالك.

أما الخليفة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الناصر فقد بلغ مبلغاً كبيراً في تأييده لمذهب الإمام مالك، حتى إنه قال:"بلغني إن أقواماً يفتون بغير مذهب مالك ابن أنس... وكل من زاغ عن مذهب مالك فإنه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله"[2].

ومن شدة اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بمذهب مالك، أنه كان لا يرى أن يقدم قولٌ على قوله، ويتبين ذلك من خلال رده على أحد وزراءه فيقول:"إن مذهب مالك بن أنس - رضي الله عنه - أفضل المذاهب ولم أرَ في أصحابه ولا من تقلّد مذهبه غير السنة والجماعة، فليستمسك بهذا ففيه النجاة إن شاء الله"[3].

بل إنه هدد بمعاقبة من يخالف مذهب مالك بن أنس بالفتوى وغيره، فيقول ما نصه:"فمن خالف مذهب مالك بن أنس رحمه الله بالفتوى وغيره، وبلغني خبره أنزلت به النكال ما يستحق"[4]. ويقول كذلك:"نظرت في أقاويل الفقهاء، ورأيت ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم أرَ مذهباً أنقى ولا أبعد من الزيغ من مذهبه، وجل من يعتقد مذهباً من مذاهب الفقهاء، فإن فيهم الجهمي والرافضي والخارجي[5] إلا مذهب مالك،

---

(١) ابن فرحون، الديباج، ص ٣٢٠.

(٢) ابن سهل : عيسى بن سهل الأسدي، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة التويجري، ط١، ٨٩٩/٢، ١٩٩٥ م.

(٣) ابن سهل، الإعلام، ٨٩٦/٢.

(٤)ابن سهل، الإعلام، ٨٩٦/٢.

(٥) مبالغة الخليفة الحكم المستنصر في تزكية مذهب مالك، ورمي المذاهب الفقهية الأخرى بخروج أصحاب البدع منها، فيه إجحاف كبير بحقها وتكلف مذموم لنصرة مذهبه الذي يرى أنه أصح المذاهب، وإلا فكل المذاهب الفقهية بلا استثناء خرج منها كثير من أهل البدع، والسبب ليس في هذه المذاهب؛ إنما مرده لتعلق أصحاب هذه البدع في بعض الشبه التي تكون قد طرأت عليهم بشكل أو بآخر.

فإني ما سمعت أحداً ممن انتهى إليه بشيء قال من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى"[1].

إن تفضيل الخليفة الحكم المستنصر لمذهب مالك، وتهديده لكل من يخالفه بفتوى أو غير ذلك، وتزكيته للمذهب باعتباره أسلم المذاهب من الانحراف والزيغ، لا تدل إلا على زيادةً في تكريس هذا المذهب، وتوجيهاً للرأي العام بجميع مؤسسات الدولة الأموية بأن الدولة ماضية في دعم هذا المذهب وتعزيز وجوده ووجوب اتباعه.

لقد كان حكام بني أمية يراقبون حركة الإفتاء في أرجاء الدولة، وكانت لهم عيون تنقل لهم تفاصيل الحياة الدينية وما عليه عمل الفقهاء، وبالتالي فإنهم كانوا لا يقبلون أبداً بأي فتوى مخالفة لما عليه عمل المالكية، بل ويشددون في النكير على من خالف هذا المذهب، خوفاً من تفرق الأمة، وسعياً للوحدة الفكرية.

كل ما تقدم يبين أن الأمراء الأمويين بالأندلس التزموا مذهب مالك بن أنس، ودعموه بكل ما يستطيعون، مما أدى إلى بروز هذا المذهب، وكثر المتمسكين والدارسين له، مؤدياً ذلك إلى سيطرة هذا المذهب على الحياة المذهبية في الأندلس سيطرةً تامة، وداعم أساسي في وحدته الفكرية التي نعم بها الناس في أيامهم.

---

(١) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٩، ٩٠٠.

المبحث الثاني

تقريب علماء المالكية واستشارتهم

حظي الفقهاء والعلماء بمكانة سامية ومرموقة من لدن أمراء وخلفاء البيت الأموي في الأندلس، فالعلاقة التي ربطت بين الأمويين في الأندلس والفقهاء في عصرهم أشهر من أن تذكر فقط، ولا يمكن لدارس التاريخ الأموي في الأندلس أن ينكر أو يتجاهل تلك العلاقة، حيث مثل الجانب الديني في حياة الشعب الأندلسي ركيزة أساسية في نفوسهم، ولذا أدرك الحكام الأمويين أهمية هذا السند الشرعي في استمرارهم ووجودهم، بل وقوتهم، مما جعل السلطة الحاكمة في الدولة الأموية تحترم الفقهاء وتستشيرهم، وتأخذ بنصائحهم، وتستعين بهم في حل مشاكلها، وتسند إليهم الوظائف الدينية والعامة، ويقول في ذلك حسين مؤنس[١]: "وربما كان تبيّن الأمويين في الأندلس لأهمية الجانب الديني في تفكير شعبهم الأندلسي، وتقديرهم لأهميته، من أكبر الاكتشافات التي مكنت لدولتهم من الاستمرار، وربما كان هذا الاكتشاف مجرد مصادفة سعيدة، وربما كان فهم ذكي لطبيعة الشعب الأندلسي". والصحيح أنه كان نتاج علم هؤلاء الحكام وقوة ذكائهم.

ولقد عُني الأمير عبدالرحمن الداخل بالجانب الديني في فترة حكمه، فنراه يخطب للخلفاء العباسيين عدة أشهر[٢]، كما كان ذا صلة بالفقهاء وأهل العلم، يحترمهم ويزورهم، منهم الفقيه الغازي بن قيس الذي كان يزوره في منزله[٣]، كما أولى الفقيه معاوية بن صالح الحضرمي اهتماماً خاصاً ووثق به، وأرسله إلى الشام لإحضار أختيه من هناك، ثم اختاره قاضياً بعد رجوعه[٤]، وكانت أحكامه التي يصدرها غير قابلة

---

(١) شيوخ العصر، ص ٩.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٣٥، ٣٦.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٥٦. الزبيدي، طبقات اللغويين، ص ٢٥٤.

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٣٠. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٤.

للنقض[١]،وكان الفقيه سعيد بن عبدالرحمن بن وهب[٢]خاصاً بالأمير عبدالرحمن الداخل، وربما كان يشاوره في بعض الأمور لمكانته منه[٣].

ولما تولى الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل الإمارة بعد وفاة والده، قرّب العلماء والصلحاء، وأجرى الحق على القريب والبعيد، وأنصف من نفسه، وقرابته منقاداً إلى الحق[٤]. ويتجلى ذلك في موقفه من القاضي المصعب بن عمران، حينما عرض عليه الأمير هشام القضاء فرفض، فأقسم عليه في ذلك وقال:"تسمع مني ما أقول لك، بالله الذي لا إله إلا هو لتجيبني إلى ما أدعوك أو لأسطون بك سطوة تمحو عني اسم العدل والرفق ما بقيت، وإن الأخلاق التي كنت تكرهها من أبي، قد أمنكها الله مني، وبقي طيبها عليك لصلاح أمور المسلمين، ولو وضعت المنشار على رأسي لم أعترضك"[٥].

وقد طبق الأمير هشام هذا التعهد بنصه، فقد كان لبعض رجال الأمير خصومة عند القاضي المصعب بن عمران في بيت يدعي أنها له، فسجل عليه القاضي فيها، وأخرجه منها، فاشتكى هذا الرجل للأمير هشام، وقال له: إن القاضي أخرجني من داري وسجل عليّ فيها، فقال له الأمير: وماذا تريد مني ؟ والله لو سجل علي القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه، وفي ذلك إذعاناً منه للحق[٦].

كل ما سبق ذكره من تقريب للعلماء واستشارتهم والاستعانة بهم من قبل الأمير عبدالرحمن الداخل والأمير هشام بن عبدالرحمن في بداية عهده لم يكن للمذهب المالكي أي دور فيه، إذ أن هذا المذهب لم يبدأ دخوله بشكل واضح إلى الأندلس إلا في منتصف

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٤، ٦٥.

(٢) هو سعيد بن عبدالرحمن بن وهب بن أبي عامر سعيد بن عبدالله السبأي، من أهل قرطبة، سمع الحديث وكتبه، وجده أبو عامر هو الداخل إلى الأندلس، وكان خاصاً بالأمير عبدالرحمن الداخل (محمد ابن عبدالله القضاعي الأندلسي المعروف بابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق، جلال الدين الأسيوطي، ط١، ٣/٢٠٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨ م).

(٣) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ٣/٢٠٠.

(٤) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٧٠ – ١٧٢.

(٥) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٤٣. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٣.

(٦)ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٦٦.

أيام الأمير هشام بن عبدالرحمن، وبالتالي فتقريب هذين الأميرين للعلماء في بداية الدولة إنما كان في سبيل دعم المذهب السني والمحافظة على وحدة البلاد الفكرية.

وبوصول طلائع الفقهاء المالكيين العائدين من الحجاز بمذهب مالك في منتصف عهد الأمير هشام، أعجب هذا الأمير بأتباع هذا المذهب وما نقل له عن إمام أهل المدينة مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي فقربهم وأدنى منزلتهم(١) خصوصا الفقيه زياد بن عبدالرحمن، الذي عرض عليه القضاء فرفض، إلا أن الأمير هشام لم يتركه، بل كان يؤثره ويكرمه ويخلو به، ويسأله ويستشيره في كل ما يعن له من أمور دينه ودنياه، فكان الأمير يأخذ برأيه، ويبالغ في بره، ويوالي زيارته ومحادثته(٢).

ولما تولى الأمير الحكم بن هشام الإمارة في الأندلس، نكل بمجموعة من أشراف أهل قرطبة وعلمائها وصلحائها وفقهائها وصلب مجموعة منهم، بدعوى أنهم أرادوا الخلاف عليه واستبداله (٣). هذه الحادثة على فجاعتها، وعظم أمرها لم تجعل الأمير الحكم يدير ظهره للفقهاء والعلماء، خصوصاً المالكية منهم، فقد كان الأمير الحكم يستقدم الفقيه حفص بن عبد السلام السلمي(٤) كل عام في شهر رمضان يؤم به، وكان هذا الفقيه ممن سمع من مالك ولازمه سبع سنين(٥)، وكان الحكم إذا جلس أحضر الفقهاء والقضاة إلى مجلسه وشاورهم فيما يُشكل عليه من أموره(٦).

وحظي القاضي عباس بن ناصح الجزيري(٧) العالم والشاعر المعروف الذي ذكره

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٢. ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٢٦. عياض، ترتيب المدارك، ١/٢٠٠.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ١/٢٠١.

(٣) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٨١.

(٤) هو حفص بن عبد السلام السلمي من أهل سرقسطة، رحل مع أخيه حسان إلى الحجاز، فسمعا من مالك ابن أنس، وكان حفص متقناً بالعلوم، بليغاً حازماً، لزم مالك سبع سنين، وكان مالك يدني منزله (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٠٣).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٠٣.

(٦) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٧٨.

(٧) هو عباس بن ناصح الثقفي، يكنى بأبي العلاء، من أهل الجزيرة، نشأ بمصر ورحل إلى الحجاز والعراق لطلب العلم واللغة العربية، كما كان شاعراً، وله حظ من الفقه والرواية، تولى قضاء شذونة والجزيرة في عهد الحكم بن هشام (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٣٨، ٢٣٩).

عياض[١] بأنه ممن روى عن مالك، بثقة الأمراء الأمويين، فقد كان أمراء بني أمية يستنصحونه ويفد عليهم بقرطبة، وكان يهدي النصائح للأمير الحكم بن هشام على سبيل الديانة، ويذكره بالثغور ويحضه على الجهاد[٢].

وقد بلغ الأمير الحكم بن هشام مبلغاً عظيماً في توقير الفقيه زياد بن عبدالرحمن، وكان يرافقه في كثير من تحركاته داخل المدينة[٣].

واختار الأمير الحكم أواخر عهده ثلاثة من الفقهاء ليشكلوا نواة الشورى في الدولة الأموية، وهم الغازي بن قيس، وزونان بن الحسن[٤]، والحارث بن سعيد[٥]، وكان الغالب على هؤلاء المذهب المالكي[٦].

وخلال الفترة التي قضاها الأمير الحكم بن هشام في إدارة الدولة الأموية بالأندلس، أدرك أن السياسة الصحيحة لا تقتضي المواجهة مع علماء العصر، وتجلى له ذلك بعد معاناته مع المرض في آخر حياته، فأصدر عفواً على من بقي منهم، وتاب من ذنوبه، فعاد العلماء إلى منزلتهم، واعتمد عليهم في آخر فترة حكمه[٧].

---

(١) ترتيب المدارك، ١/١٥٢.

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٣١ – ٢٣٥.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٩١.

(٤) هو عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق، ويعرف بزونان، يكنى أبا مروان و أبا الحسن، كان مفتياً في أيام الأمير هشام بن عبدالرحمن وأيام الأمير الحكم بن هشام، وكان ينتحل مذهب الأوزاعي، ثم انتقل إلى مذهب الإمام مالك، وتوفي في سنة ٢٣٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٢٠، عياض، ترتيب المدارك، ١/٣٧٥، ٣٧٦).

(٥) هو الحارث بن أبي سعد مولى الأمير عبدالرحمن بن معاوية، يكنى أبا عمرو، وفي أصل النسخة اسمه الحارث بن سعيد، كان مفتياً في آخر عهد الحكم بن هشام، وأول أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم، كما ولي الشرطة الصغرى حتى وفاته سنة ٢٢١ هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٩٣).

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٩٣، ٢٢٠. ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ١٩٧. عياض، ترتيب المدارك، ١/٣٧٥، ٣٧٦.

(٧) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ١٤٦، ١٥٥، ١٧٩، ٢٠٠، ٢٠١. ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٨٠. حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ٢٨.

ومن خلال التجربة السابقة استفاد الأمير عبدالرحمن بن الحكم بن هشام من تجربة والده،فنراه بعد تولي الإمارة يصحح الأخطاء، ويتدارك ما وقع فيه والده، فقد أصبحت العلاقة التي ربطت الحكام الأمويين بفقهاء المالكية ركناً أساسياً في السلطة، سار عليه الأمير عبدالرحمن بن الحكم ومن جاء من بعده من حكام بني أمية، فقد غدت استشارة الفقهاء والاستعانة برأيهم، من المبادئ العامة والأمور الثابتة في تاريخ البيت الأموي، ويبرز ذلك بشكل واضح من خلال اعتماد الأمير عبدالرحمن بن الحكم على الفقيه المالكي يحيى بن يحيى الليثي، فقد غلب هذا الأخير على رأي الأمير عبدالرحمن فصار يلتزم من تعظيمه وتكريمه وتنفيذ أموره، ما يلتزمه الولد لأبيه، فلا يعين قاضياً، ولا يعقد عقداً، ولا يمضي في الديانة أمراً إلا عن رأيه ومشورته[1]، وفي ذلك يقول ابن حيان[2]:"اتخذ الأمير عبدالرحمن بن الحكم من الفقيه يحيى بن يحيى الليثي مستشاراً خاصاً في أموره ونوازله، فلم يكن يولي أحداً في القضاء إلا عن رأيه ومشورته، ولا يعزل أحداً إلا بمشورته، ويقول ابن الفرضي[3]:"لم يُعْطَ أحدٌ من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر، وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى، وسمع منه مشايخ الأندلس في وقته".

وطبقاً لذلك تولى الفقيه يحيى بن يحيى منصب كبير المشاوَرين في الدولة الأموية بالأندلس، وأصبح هو رجل الدولة الأول وتعددت مسمياته، فعرف باسم رئيس الفتيا أو المفتين، كما سمي شيخ المسلمين، وبدأ وكأنه الممثل الشرعي لجميع المسلمين، وصار تأييده للأمير بمثابة تأييد جميع المسلمين له، وتفويضهم لجميع ما يقوم به[4]. وفي المقابل كان الفقيه يحيى بن يحيى لا يشير على الأمير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه[5]، وهذا من الأسباب التي أدت إلى انتشار المذهب المالكي في الأندلس وكثرة المقبلين عليه.

(١)ابن حيان، المقتبس، ص ١٨٠، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٢) المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٤) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ٢٩.

(٥) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٤٦.

وتبعاً لذلك، كثر عدد القضاة في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم، بسبب إشارة الفقيه يحيى بن يحيى بذلك، فكان لا يشير بتولية قاضٍ إلا ولاه، ولا يشير بعزل أحد إلا عزله[١]، وبلغ من شدة تمكنه في الدولة، وقوة تأثيره على رأي الأمير، أن قال لأحد القضاة:"استعف من ذلك، فإنه أستر لك، وإلا وقعت في عزلك"[٢] فاستعفى ذلك القاضي.

وكان من ثمار سياسة الأمير عبدالرحمن بن الحكم وتقديمه للفقيه يحيى بن يحيى، أن اعترف هذا الفقيه بجميل صنع الأمير له، فكان كلما ذكر عنده الأمير حمد سيرته وزين آثاره لدى رعيته، وحضهم على طاعته والقيام بواجبهم تجاهه، ويتجلى هذا الأمر بشكل واضح في تأييد الفقيه يحيى لخطاب الأمير عبدالرحمن بن الحكم، والذي بعثه لابنه محمد حينما استخلفه على قرطبة في إحدى غزواته ليستنفر الناس للحاق به، فلما قرأ كتاب الأمير على الناس قام الفقيه يحيى فقال:"نعم أصلح الله الأمير، الواجب علينا الخُفُوفُ إلى الإمام أصلحه الله وأيده، والبدار إلى اللحاق به، وألا يعتذر في ذلك منا إلا معتذر قد أنزل الله في كتابه عذره لا سواه"[٣].

يقول إحسان عباس[٤]عن يحيى بن يحيى:"ولذلك كان رأي الفقيه المشاور مقدماً على آراء أصحابه وعلى آراء الوزراء، وأبرز من نال هذه المنزلة يحيى بن الليثي لدى الأمير عبدالرحمن، فبرأيه دون سواه تتم تولية القضاة، وكان الأمير لايحيد عن مشورته في تولية أو عزل، وهذا أحدالأسباب التي ساعدت على رسوخ المذهب المالكي في الأندلس، لأن يحيى كان مالكياً"

ولهذا التزم الأمير عبدالرحمن في فترة حكمه إكرام طبقات أهل العلم والفقهاء،

---

(١) ابن حيان، المقتبس، ص ١٧٨، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٢)عياض، ترتيب المدارك، ٣١٣/١.

(٣) ابن حيان، المقتبس، ص ١٨١، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٤) الشورى في المغرب والأندلس منذ بداية الدولة الأموية حتى نهاية دولة الموحدين، من كتاب الشورى في الإسلام، ٣٥٢/١، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩م.

فقربهم، وأدنى منزلتهم، وأسعف مطالبهم[١]، ورتب اختلاف الفقهاء إلى قصره، وأمرهم بالكلام بين يديه[٢].

من خلال ما سبق يتضح أن الأمير عبدالرحمن سلم مقاليد الأمور الدينية بشكل كامل لفقهاء المالكية؛ إيماناً منه بأهمية دورهم في ترسيخ الوحدة الفكرية، والمحافظة على الشكل الديني للدولة، إضافة لثقته بأن هؤلاء العلماء يؤدون دوراً كبيراً في تسكين عامة الناس وربطهم بالحكومة السياسية.

وبوفاة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي اعتلت منزلة الفقيه عبد الملك بن حبيب[٣] عند الأمير عبدالرحمن بن الحكم، فقد تفرد بأثرته، فلم يكن يقدم أحداً من أصحابه عليه، ولا يعدل بمشورته عنه أحد، حتى أنه شاوره في أكبر أموره[٤]، وكثيراً ما قام الأمير عبدالرحمن بن الحكم بإفشاء أموره وهمومه إلى الفقيه عبد الملك بن حبيب، وكان يجد عنده الحل دائماً[٥].

وقد بقي أمراء الدولة الأموية على ارتباطهم الشديد بالفقهاء، بعد وفاة الأمير عبدالرحمن بن الحكم، وساروا على نهجه، فكان ابنه الأمير محمد بن عبدالرحمن محباً للعلم والعلماء، وقد روى عدداً من الأحاديث عن طريق أحمد بن الحسن النخعي[٦].

ولما عرض الأمير محمد بن عبدالرحمن القضاء على الفقيه المالكي إبراهيم بن محمد بن

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٩٨.

(٢) النويري : أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، ٢٢٦/٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٣) هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي، يكنى أبا مروان، كان بإلبيرة، وسكن قرطبة، وقيل إنه من مولى سليم، جمع علماً عظيماً، كان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين، عينه الأمير عبد الرحمن بن الحكم مشاوراً، توفي سنة ٢٣٨هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٢١ – ٢٢٣)

(٤) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٤١٨، ابن حيان، المقتبس، ، تحقيق محمود مكي، ص ١٨٣، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص ١٩٥، ١٩٦، القاهرة.

(٦) هو أحمد بن الحسن بن الحرث النخعي، أصله من الكوفة، دخل الأندلس أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم، كان يروي أحاديث عظيمة القدر (ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ٩١/١).

باز[1] رفض، فقال الأمير:"إذا لم تقبل قضاءنا، فاحضر مجلسنا وكن أحد الداخلين علينا، الذين نشاورهم في أمورنا، ونسمع منهم في رعيتنا"[2]، وعلق حسين مؤنس[3] على ذلك بقوله:"وقد لا يستشيرهم في شيء مكتفياً بدخولهم عليه، فيكون ذلك تأييداً دينياً للأمير، وإضفاءً للشرعية على حكمه".

كما أن الأمير عبدالله بن محمد لا يقدم أمراً ولا يؤخره إلا عن مشورة أهل العلم والفقه[4]. ومما يؤثر عنه أنه كان يعظم أهل العلم ويعرف حقوقهم، ويستدعيهم كثيراً إلى نفسه، ويستفتيهم في أحكامه، ويشاورهم فيما يطرقه من أحداث زمانه[5]، وكان مجلسه قبل الإمارة من أعمر مجالس الملوك بالفضائل، وأنزهها من الرذائل، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعليم[6].

وقد زاد عدد العلماء والفقهاء في مجلس الأمير عبدالله بن محمد، وبالتالي تولى وظيفة الفتوى والشورى ورئاسة الشورى عدد كبير من المفتين، والمشيخة المؤدين والمشاورين والفقهاء المرأسين[7].

وشاور الأمير عبدالله ذات مرة مجموعة الفقهاء المالكية، في شأن الزنديق هل يقتل قبل أن يستتاب ؟ أو يستتاب قبل أن يقتل ؟ وأخذ الأمير بقول من قال بالاستتابة من فقهاء المالكية، بالرغم من مخالفتهم لمالك في ذلك[8]، ولا شك أن فتواهم تلك، وموافقة الأمير لها، ومن ثم دعمها، يأتي في إطار دعم الوحدة الفكرية للأندلس على أساس

---

(١)هو إبراهيم بن محمد بن باز، ويعرف بابن القزاز، يكنى بأبي إسحاق، من أهل قرطبة، توفي بطليطلة، سنة ٢٧٤هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٨).

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧.

(٣) شيوخ العصر، ص ٣٢.

(٤) ابن حيان الأندلسي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، السفر الثالث، تحقيق محمود مكي، ط١، ص٨٠، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٩ م.

(٥) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٨٦.

(٦) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٨٢.

(٧) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٤٣ — ٤٥.

(٨) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٥٣.

التمكين للمذهب السني والأخذ بما يخدم الوحدة الفكرية في جميع القضايا.

وكان الأمير عبدالله بن محمد إذا حضر إلى المسجد الجامع لصلاة الجماعة، قام الناس له، فنصحه الفقيه المالكي سعيد بن خمير(١) وقال له: إنما يقوم الناس لرب العالمين، فقبل منه الأمير ذلك، وأوصى الحاضرين بأن لا يقوموا إليه إذا خرج، ويلزموا مجالسهم(٢). وفي تقبل الأمير لنصح هذا الفقيه بداية، ثم التوجيه بتطبيق النصيحة، إبرازاً لحرص أمراء البيت الأموي على ربط عامة الناس بهؤلاء الفقهاء، خصوصاً المالكية منهم، فإذا كان الأمير يستجيب لنصيحة هذا الفقيه المالكي، فمن باب أولى أن يسمع الناس لنصحه وتوجيهه، وهذا أفضل دعم يمكن أن تراه هؤلاء الفقهاء.

وفي عصر الخلافة الأموية في الأندلس، بقي خلفاء البيت الأموي على تقريب العلماء والفقهاء واستشارتهم في الشؤون العامة والخاصة، بدءاً من عبدالرحمن الناصر لدين الله الذي أعلن نفسه خليفة للدولة الأموية بالأندلس. فقد أصبح الفقيه المالكي محمد بن عمر بن لبابة الذي كان مستشاراً في عهد الأمير عبدالله بن محمد المفتي الأول في عهد الناصر، فلم يشترك معه أحد في رياسة البلد والقيام بالشورى(٣). وهنا يثبت المالكية أنهم المذهب المفضل في عصر الخلافة كما كانوا سابقاً في عصر الإمارة، وأن الأمويين يعتمدون عليهم بشكل أساسي في شؤون الدولة الدينية.

ثم ورث الفقيه محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى الليثي المعروف بابن أبي عيسى نفوذ ابن لبابة، فكان مقدماً ومشاوراً(٤)، وكلّفه الناصر بمهمات إدارية وسياسية وعسكرية واسعة وعديدة(٥). هذه الصلاحيات الواسعة التي منحها الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين

---

(١) هو سعيد بن خمير بن مروان بن سالم، يكنى أبا عثمان، من أهل قرطبة، من الموالي كان يسكن ببلاط مغيث، فنقله الأمير عبدالله بن محمد إلى قرطبة، بقرب المسجد الجامع، فكان يدرس فيه، توفي في سنة ٣٠١هـ، وكان مولده في سنة ٢٣٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٤٠).

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٨٥.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٢٠.

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٣، ١٧٤. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢.

(٥) ابن حيان القرطبي، المقتبس، نشر: ب شالميتا بالتعاون مع ف. كورنيطي و م. صبح وغيرهما، ص ٢٥٨، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، ١٩٧٩ م.

الله تعكس مدى الثقة الكبيرة التي اكتسبها فقهاء المالكية من قبل حكام الدولة الأموية في الأندلس، وبالتالي فإن نجاحهم في إدارة ما أسند إليهم يعزز من دورهم الفاعل في خدمة الوحدة الفكرية للأندلس من خلال حث الناس على الطاعة والتزام الجماعة والمذهب الواحد الذي تدعمه السلطة الحاكمة، ولا تغفل أن نجاح الفقيه السابق محمد بن عمر بن لبابة فيما أسند إليه، دفع الخليفة عبدالرحمن الناصر لمنح الفقيه المالكي الآخر ابن أبي عيسى صلاحيات أوسع تجاوزت ما تم منحه لسابقه.

وفي حوادث تمرد البلدان استعان الخليفة الناصر بالفقهاء لحلها، ظهر ذلك في حوادث متمردي طليطلة(١)، فقد كان الفقهاء يذهبون إليهم معذرين وداعين إلى الطاعة(٢)، ولم يفصح ابن عذاري(٣) عن أسماء هؤلاء الفقهاء إلا أننا نكاد نجزم أنهم لابد أن يكونوا من فقهاء المالكية الذين زادت أعدادهم بشكل كبير في أيام الناصر(٤). ومما ينبغي الإشارة إليه أن السلطة الأموية كانت موفقة في اختيار الفقهاء عموماً لتنفيذ مثل تلك المهام لأنهم يتصفون بالصدق والأمانة والإخلاص بالإضافة إلى العلم، وبالتالي فهم أقرب من غيرهم لحل مثل تلك الإشكالات.

واشتهر الخليفة الحكم المستنصر باستدعاء العلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، ويشهد مجالسهم ويسمع منهم ويروي عنهم(٥)، فقد استقدم الفقيه المالكي زكريا بن خطاب الكلبي(٦) من طليطلة، وكان الناس يرحلون إليه لطلب العلم، فسمع منه أكثر

---

(١) طليطلة: مدينة في وسط الأندلس، تعتبر مركزاً لجميع بلاد الأندلس، بينها وبين قرطبة تسع مراحل، وهي عاصمة القوط قبل الفتح الإسلامي، فتحها المسلمون عام ٩٢هـ، وأصبحت بعد الفتح من أهم القواعد الإسلامية في الأندلس (ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٣٩، الحميري، الروض المعطار، ص٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٠٢.

(٣) البيان المغرب، ٢/٢٠٢

(٤) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٠٨.

(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٠١.

(٦) هو زكريا بن خطاب بن إسماعيل الكلبي، يكنى أبا يحيى، من أهل طليطلة، تولى قضاء طليطلة في عهد الناصر سنة ٣٣٧هـ، رحل إلى المشرق سنة ٢٩٣هـ، وسمع العلم هناك، كان ثقة مأموناً (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٧، ١٢٨).

مروياته، وكان الحكم المستنصر في تلك الفترة ولياً للعهد[١]، كما درس الحكم المستنصر على يد الفقيه المالكي والمصنف المشهور محمد بن الحارث الخشني[٢]، ولازمه حينما كان ولياً للعهد، وكان الخشني يلي الشورى في تلك الفترة بالإضافة إلى ولاية المواريث[٣].

ولما توفي الحكم المستنصر تولى القاضي الفقيه المالكي محمد بن إسحاق بن السليم[٤] مهمة أخذ البيعة لهشام المؤيد ابن الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ، وشهد بذلك الأعمام وأبناؤهم، والوزراء وضروب أهل الخدمة، ورجالات قريش وأعلام قرطبة[٥].

ولما استولى الحاجب المنصور بن أبي عامر[٦] على مقاليد الأمور في الدولة الأموية بالأندلس، وحجر على الأمير هشام المؤيد بن الحكم المستنصر[٧]. قرّب القاضي المالكي أحمد بن ذكوان[٨] فنال مكانة كبيرة عنده، وكان يفاوضه في تدبير الملك، وسائر شأنه،

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٢) هو محمد بن الحارث الخشني، يكنى أبا عبدالله، من أهل القيروان، قدم الأندلس سنة ٣١٢هـ، وسمع من بعض علمائها، حكيم يعمل الأدهان، ويتصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة، استقر به المقام في قرطبة، وألف للحكم المستنصر كتباً كثيرة، توفي سنة ٣٦١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٨٣، ٣٨٤).

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٧.

(٤) هو محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم بن السليم بن أبي عكرمة الداخل إلى الأندلس، يكنى أبا بكر، من أهل قرطبة، وقاضي الجماعة فيها، فقيه بمذهب مالك بن أنس، ألف كتاب التوصيل مما ليس في الموطأ، توفي سنة ٣٦٧هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٥٥، ٣٥٦، عياض، ترتيب المدارك، ١٧٤/٢، ١٧٥).

(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٥٨/١ .

(٦) هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عامر، وكان جده محمد بن الوليد هو الداخل إلى الأندلس مع طارق بن زياد، وكانت أسرته أهل علم ودين ووجاهة في الأندلس، ارتفع شأنه في عهد الخليفة الحكم المستنصر، وأكمل ذلك بالاستيلاء على الحُكم في عهد ابنه هشام المؤيد، وتوفي سنة ٣٩٢هـ (ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٦/٢، ٢٥٧).

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢ — ٢٥٦.

(٨) هو أحمد بن عبدالله بن هرثمة بن ذكوان الأموي، يكنى أبا العباس، تولى قضاء الجماعة في عهد هشام المؤيد بأمر من أبي عامر سنة ٣٩٢هـ، وكان على خطة الرد قبل ذلك، توفي سنة ٤١٣هـ (خلف بن عبد الملك بن بشكوال الخزرجي، الصلة، تحقيق جلال الدين الأسيوطي، ط١، ٣٠/١، ٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨ م).

ولم يتخلف عنه في أي غزوة من غزواته، ولم يقطع أمراً دونه إلى أن مات[1] وهذه الحظوة الكبيرة التي وصلت إلى الاستشارة في تدبير الملك لهذا الفقيه المالكي، تؤكد ما للمالكية من دور كبير في توجيه جميع فئات المجتمع، خصوصاً أن الحاجب بن أبي عامر بحاجة لغطاء شرعي للاستمرار في إدارة شؤون الأمويين، ولن يأتي هذا الغطاء إلا بالتمكين للمالكية ولفقهاء المذاهب السنية الأخرى، الذين بدورهم يقومون بحثّ الناس على السمع والطاعة للسلطة الحاكمة.

وقد لجأ الحاجب بن أبي عامر كثيراً لفقهاء المالكية واستشارهم في أكثر الأمور الحاسمة، كقضية الجماعة الذين أرادوا البطش به وقتله، فقد جمع المنصور فقهاء المالكية، كابن المكوي[2]، وابن زرب[3]، وغيرهم من الفقهاء، وشاورهم في أمر هؤلاء الذين أرادوا به سوءاً [4].

ونظراً لما يتمتع به الفقيه محمد بن أحمد بن مهلّب[5] من الحظوة والمكانة عند حكام الأندلس، اعتمدوا عليه في إصلاح ذات البين بينهم، فكان يقوم بتسكين ما ينبعث لبعضهم مع بعض أيام الفتنة، وكان أحد الوجوه الذين رتبهم الأمير المستظهر أبو المطرف عبدالرحمن بن هشام (٤١٤هـ) ، لحسن أدبه وسعة معرفته[6].

---

(١) ابن بشكوال، الصلة، ١/٣٠، ٣١. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) هو أحمد بن عبد الملك الإشبيلي، يعرف بابن المكوي، ويكنى أبا عمر، سكن قرطبة، مولى لبني أمية، وهو شيخ فقهاء الأندلس في وقته، وهو أفقه الناس في زمانه، وأحفظهم لمذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله، توفي سنة ٤٠١هـ (عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٣٧ – ٢٤١).

(٣) هو محمد بن يبقى بن محمد بن زرب بن يزيد بن مسلمة، يكنى أبا بكر، تولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٦٧هـ،وكان أحفظ أهل زمانه للمسائل على مذهب مالك وأصحابه، ولد سنة ٣١٧هـ، وتوفي سنة ٣٨١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علـــماء الأندلس، ص ٣٦٩، ٣٧٠).

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٣.

(٥) هو محمد بن أحمد بن محمد بن حسن بن إسحاق بن مهلب بن جعفر، يكنى أبا بكر، من أهل قرطبة، ذكره الرازي في بيوتات الموالي بقرطبة، وأصلهم من شذونة، سمع من ابن الفرضي، وتوفي سنة ٤٥٠هـ(ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ١/٢٦٥، ٢٦٦).

(٦) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ١/٢٦٦.

ومما تقدم يتبين لنا أن الأمراء الأمويين قربوا فقهاء المالكية واستشاروهم وسمعوا منهم، وأعطوهم حقهم الذي يجب لهم، وكانوا موفقين في اختيارهم، لأنهم في الغالب ممن يتمتع بالصدق والأمانة والإخلاص، بالإضافة إلى العلم، وعن طريق هؤلاء الفقهاء ازدادت مكانة الحكام الأمويين عند عامة الناس، واستطاعوا بمساعدة الفقهاء أن يوحدوا الأندلس فكرياً، ويقطعوا الطريق على كل خارج على الدولة يحاول استغلال التحزب المذهبي كنقطة ضعف لتحقيق أطماعه السياسية، مما جعل عامة المجتمع الأندلسي يشعرون بالرضى التام عن هذا التوجه ويدعموه.

المبحث الثالث

تعيين علماء المالكية في المناصب الرسمية ومشاركتهم في وضع أنظمة الدولة

منذ أن ظهرت الدولة الأموية في الأندلس كانت تشعر أنها بحاجة لإضفاء الشرعية على حكمها، وقد رأت أنها تستطيع تحقيق هذا المقصد بالاعتماد على العلماء والفقهاء الذين يحظون بالثقة والقبول عند عامة الناس، خصوصاً أن الأندلس في تلك الفترة كانت تزخر بالعديد منهم، ومن ثم كان هناك توجه من حكام بني أمية إلى الاستعانة بالعلماء في أعمال دولتهم، فقد أسندوا إليهم العمل في عديد من الخطط التي كانت تنقسم إلى نوعين دينية وإدارية، فمن النوع الأول شغل العلماء منصب القضاء، والردوالمظالم، والسوق، وإمامة الصلاة، والإفتاء، ومن النوع الثاني شغل العلماء منصب الشرطة، والوزارة، وولاة الأقاليم.

وقد كان حكام الأندلس يجتهدون في البحث عن الصالح من العلماء لولاية تلك الخطط،قال أحمد بن خالد[1]:"كان من شأن الخلفاء رحمهم الله السؤال عن أخبار الناس، والكشف عن أهل العلم والخير منهم، والتعرف على أماكنهم من قرطبة أو غيرها من الكور، فكانوا إذا احتاجوا إلى رجل يصلح لخطة من خططهم استجلبوه"[2].

وسوف نستعرض بعض الخطط التي شغلها علماء وفقهاء المالكية في الأندلس أثناء الحكم الأموي لها، ومن أهمها :

---

(١) هو أحمد بن يزيد بن محمد بن سالم بن سليمان، يعرف بابن الجباب، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، سمع من علماء الأندلس وخارجها، وطلب العلم أيضاً في صنعاء، كان إمام وقته في الفقه والحديث، توفي سنة ٣٢٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٥، ٣٦)

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص٣٩. منيرة عبدالرحمن الشرقي، علماء الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ط١، ص١٥٩، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٢م.

١-القضاء:

تأتي مؤسسة القضاء كأبرز المؤسسات التي أسندت فيها المهمة للعلماء والفقهاء وحدهم بدون منازعة من أحد، ولا عجب في ذلك، فالشريعة الإسلامية أولت هذه المؤسسة دوراً كبيراً يتمثل في الفصل بين الناس في الخصومات، وتحقيق العدالة بينهم، بالإضافة إلى أمور أخرى تهم عامة المسلمين، كالنظر في أموال اليتامى، والأحباس (الوقف)، والمظالم، وغيرها مما يندرج تحت عمل المؤسسة القضائية، ولما احتاج الأمير عبدالرحمن الداخل إلى تولية قاض للجماعة بقرطبة، بلغه عن رجل بماردة [١] أنه صاحب صلاح وصلابة وورع، فاستجلبه وولاه القضاء، فسار في القضاء سيرة حسنة[٢].

ولما رجع الفقيه معاوية بن صالح من الشام، قدم على الأمير عبدالرحمن الداخل وكان قد بعثه إليها، فولاه القضاء والصلاة، وشارك معه في غزوة سرقسطة[٣]، فكان يحيي الليل بالصلاة، فإذا أصبح لبس سلاحه ومضى إلى الصف، حيث القتال ووقف فيه[٤].

ولما عزم الأمير هشام بن عبدالرحمن على تولية الفقيه المالكي زياد بن عبدالرحمن

---

(١) ماردة: مدينة قديمة بالأندلس، وهي قريبة من قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلاً وكانت مدينة ينزل لها الملوك الأوائل، فكثرت آثارهم بها والمياة المستجلبة إليها، على نهر وادي آنة، وتعد الآن أحد المراكز الإدارية لمدينة بطليوس الإسبانية (الحميري، الروض المعطار، ص٥١٨، ٥١٩، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ٣٢).

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص٣٩.

(٣) سرقسطة: مدينة في شرق الأندلس تسمى المدينة البيضاء، وهي قاعدة الثغر الأعلى بالأندلس، كبيرة القطر واسعة الشوارع، ممتدة الأطناب، وهي على ضفة نهر كبير يأتي بعضه من بلاد الروم من جبل قلعة أيوب اسمه إبرو، وسميت البيضاء لكثرة جصها وجيارها، وتنتشر فيها الفواكه، وهي حاليا تمثل مركزا لمقاطعة تسمى باسمها (الحميري، الروض المعطار، ص٣١٧، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ٢٥) وغزوة سرقسطة كانت في سنة ١٦٥هـ حينما ثار الحسين الأعرابي على الأمير عبدالرحمن بسرقسطة فخرج إليه الأمير عبدالرحمن وأرجعه إلى الطاعة (ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٦/٢، ٥٧).

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص٣٢.

القضاء أبى ذلك، وخرج هارباً بنفسه، فقال الأمير هشام ليت الناس كزياد[(١)].

وعين الأمير الحكم بن هشام في أول أيامه الفقيه المالكي محمد بن بشير المعافري، فكان خير قضاة أهل الأندلس وأعدلهم وأفضلهم[(٢)]، ولما مرض هذا القاضي اغتمّ الأمير الحكم وحزن حزناً شديداً، ولما سئل في ذلك قال:"كنت قد قلدت محمد بن بشير القضاء بين المسلمين، فكانت نفسي عليه طيبة، وقلبي واثقاً، وكنت مستريحاً من أخبار الناس وظلاماتهم، لما علمت من عدله وثقته، حتى أعلمت في هذه العشية أن الموت قد حضره، فقلقت لذلك واغتممت، وقمت في هذه الساعة أدعو الله وأبتهل إليه أن يوفق لي رجلاً يكون عوضاً منه تسكن إليه نفسي فأوليه قضاء المسلمين بعده"[(٣)].

ومما يؤثر عن القاضي محمد بن بشير أنه كان صلباً في الحق، لا هوادة عنده ولا مداهنة في أحكامه لسلطان، ولا يعبأ بأحد من أهل السلطان أو من لاذ بالأمير من جميع الطبقات[(٤)].

ولما توفي هذا القاضي عين الأمير الحكم بن هشام ابنه سعيد بن محمد بن بشير[(٥)]مكانه، ولم يوله القضاء إلا بعد امتحانه في أمانته، وتأكده من صلاحه واستقامته[(٦)].

ويوصف الأمير عبدالرحمن بن الحكم أنه من أكثر أمراء الأمويين في الأندلس تولية وعزلاً للقضاة، حتى أصبح عدد القضاة في عهده في قرطبة لوحدها عشرة رجال[(٧)]. وكان قد عهد بمهمة تعيين القضاة وعزلهم للفقيه المالكي المشهور يحيى بن يحيى الليثي،

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٢٤.

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٠١، ٢٠٢. عياض، ترتيب المدارك، ٢٨٦/١.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص٥٩. ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٠٢.

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص٤٨-٤٩.

(٥) هو سعيد بن محمد بن بشير بن شراحيل المعافري، قاضي الجماعة بقرطبة، وكان معيناً لوالده على العدل ومؤيداً له، كما صاحب للفقيه المشهور يحيى بن يحيى الليثي (الخشني، قضاة قرطبة، ص٦٠، ٦١).

(٦) الخشني، قضاة قرطبة، ص٦١، ٦٢.

(٧) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص ١٧٩، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

قال ابن حيان[١]:"اتخذ الأمير عبدالرحمن بن الحكم من الفقيه يحيى بن يحيى الليثي مستشاراً خاصاً في أموره ونوازله، فلم يكن يولي أحداً في القضاء إلا عن رأيه ومشورته، ولا يعزل أحداً إلا بمشورته"، ومما لا شك فيه أن القضاة الذين كان يشير بهم هذا الفقيه يتبعون لمذهب مالك، يقول الحميدي[٢]: "كان الفقيه يحيى بن يحيى لا يشير على الأمير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه"، ولا يمكن أن نغفل أن كل ما يحدث من هذه التعيينات إنما كان يقع تحت سمع وبصر وتأييد الأمير، وقد أدى هذا العمل إلى زيادة نفوذ المالكية، وتمكنهم من قيادة دفة الدولة دينياً، ومن ثمَّ العمل على تحقيق وحدتها الفكرية.

وحاول الأمير محمد بن عبدالرحمن إرغام الفقيه المالكي إبراهيم بن محمد بن باز- أحد تلاميذ الفقيه يحيى بن يحيى- على تولي القضاء فرفض، فعرض عليه الأمير أن يكون أحد الذين يحضرون مجلسه ويشاوره في أمور الدولة، فهدد بالهرب من البلد بأكملها، فأعرض عنه الأمير[٣].

ولما قام الأمير محمد بن عبدالرحمن بتعيين الفقيه عمرو بن عبدالله[٤] قاضياً — وهو أول من ولي قضاء الجماعة للأمراء الأمويين بالأندلس من الموالي — شق ذلك على العرب وتأثروا منه، وتكلموا فيه، فبلغ ذلك الأمير فقال: وجدت فيه ما لم أجد فيكم، فقال العرب: أما القضاء، فإنا لا نعترض فيه؛ لأنه من سلطانه، وأما الصلاة فإنا لا نصلي وراءه، فولى الأمير الصلاة، عبدالله بن الفرج النميري[٥] مكانه[٦].

---

(١) المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص ١٨٠، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٢) جذوة المقتبس، ص ٣٤٦.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٧.

(٤) هو عمرو بن عبدالله بن ليث، مولى إحدى بنات الأمير عبدالرحمن بن معاوية، من أهل قرطبة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالقبعة، استقضاه الأمير محمد بن عبدالرحمن سنتين ثم عزله، وهو أول من استقضي بقرطبة من الموالي، توفي سنة ٢٧٣هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٥٤، ٢٥٥).

(٥) هو عبدالله بن الفرج النميري، من أهل قرطبة، حافظاً للمسائل، ولاه الأمير محمد بن عبدالرحمن الصلاة بقرطبة، سمع من عبد الملك بن حبيب، وسحنون بن سعيد، وتوفي سنة ٢٦٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٧٧).

(٦) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٠١.

ولما تولى الأمير المنذر بن محمد الإمارة اختار أحد أهل الصلاح والفضل، ومالكي المذهب، ليكون قاضياً في أيامه، وهو القاضي عامر بن معاوية اللخمي[1]، ويقال أنه استشار فيه الفقيه المشهور بقي بن مخلد[2] فأشار به[3] ورغم أن الفقيه بقي بن مخلد غير محسوب على المالكية، إلا أنه يعرف توجه أمراء الدولة الأموية بتعيين المالكية في المناصب الرسمية خصوصاً الدينية منها.

وفي فترة ولاية الأمير عبدالله بن محمد تعاقب على القضاء أربعة رجال، أولهم النضر بن سلمة[4]، فقد قام الأمير عبدالله بإسناد ولاية القضاء إليه بعد عزل قاضي أخيه عامر بن معاوية اللخمي، ثم قام بعزله وولى مكانه موسى بن زياد الشذوني[5]، ولم يدم هذا القاضي طويلاً حيث تم عزله وتعيين قاضٍ جديد مكانه هو محمد بن سلمة[6]، وظل قاضياً حتى مات سنة ٢٨٩هـ[7]، وبوفاته استنفر الأمير عبدالله بن محمد جهده بحثاً عن قاضي يسد مكانه، فكان يستشير ويستخير، ويكرر النظر ويقلب الرأي، وأخيراً أشار عليه بعض وزرائه بالقاضي أحمد بن محمد بن زياد والملقب بالحبيب[8]، فولاه القضاء سنة ٢٩١هـ،

---

(١) هو عامر بن معاوية بن عبد السلام اللخمي، يكنى أبا معاوية، من أهل قرطبة، وأصله من رية استمر قاضياً حتى وفاة الأمير المنذر بن محمد، وعزله الأمير عبدالله بن محمد، توفي سنة ٢٨٧هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٧٤).

(٢) هو بقي بن مخلد، يكنى بأبي عبدالرحمن، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق فلقي جماعة من المحدثين، وكان مولده في سنة ٢٠١ هـ، ووفاته في سنة ٢٧٦ هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٨٢ – ٨٤).

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٠، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص١١٣.

(٤) هو نظر بن سلمة بن وليد بن أبي بكر القيسي، يكنى أبا محمد، من أهل قرطبة استقضاه الأمير عبدالله بن محمد ثم استوزره، توفي سنة ٣٠٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤١٥).

(٥) هو موسى بن زياد الشذوني، يكنى أبا القاسم، قاضي الجماعة بقرطبة، تولى القضاء بعد النضر بن سلمة (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٠٧).

(٦) هو محمد بن سلمة بن وليد القيسي، من أهل قرطبة، استقضاه الأمير عبدالله بن محمد بعد أخيه النظر بن سلمة بعد ولاية الثانية توفي سنة ٢٨٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٠٧).

(٧) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص٤٣، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٠٧.

(٨) هو أحمد بن محمد بن زياد بن عبدالرحمن بن زهير اللخمي المعروف بالحبيب، كان مشاوراً عند الأمير محمد بن عبدالرحمن، واستسقى بالناس في ولاية المنذر بن محمد، واستمر قاضيا حتى عهد الأمير عبدالرحمن الناصر حيث تم عزله (الخشني، قضاة قرطبة، ص١٤٨-١٥٤).

فكان آخر قضاته[1]. وقد تداول هؤلاء القضاة المالكيين القضاء مدة ولاية الأمير عبدالله، كما أن بعضهم أُعيد إلى القضاء مرة أخرى بعد الاستغناء عنه، ويدل ذلك على تمكن المالكية من المناصب الرسمية في الدولة الأموية، وتقديم أمراء البيت الأموي لهم حفاظاً على الوحدة الفكرية ودعماً لها[2].

كما تولى الفقيه المالكي محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى الليثي، والمعروف بابن أبي عيسى قضاء العديد من مدن الأندلس، والنظر في عمالها، فكانوا لا يقدمون ولا يؤخرون إلا عن أمره، ثم ختم ذلك بقضاء الجماعة بقرطبة، وبجانب القضاء عهد إليه بالعديد من الصلاحيات والأعمال[3]،وهذه الصلاحيات الواسعة لا تمنح عادة إلا للمالكية خصوصاً القضاة منهم، مما يدل على الثقة التي يطرحها أمراء الدولة الأموية بفقهاء ذلك المذهب.

ولما أسند الحكم المستنصر ولاية القضاء إلى الفقيه المالكي محمد بن إسحاق بن السليم، نص على ولايته بكتاب بعثه إليه قال فيه:"بسم الله الرحمن، هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله محمد بن إسحاق بن السليم، ولاه خطة القضاء، واختاره للحكم بين جميع المسلمين، ورفعه إلى أعلى المراتب عنده في تنفيذ الأحكام، غير مطلق يده إلا بالحق، ولسانه إلا بالعدل"[4]. وكان الخليفة الحكم المستنصر امتداداً للنهج الذي سار عليه أمراء بني أمية في إعطاء الصلاحيات الواسعة لفقهاء المالكية، والتمكين لهم، مما يعكس إعجابهم بالعمل الذي يقومون به هؤلاء في سبيل المحافظة على الوحدة الفكرية للأندلس.

لقد أولى أمراء الدولة الأموية ولاية القضاء اهتماماً خاصاً، واجتهدوا في إسناد القضاء إلى من يتحرون فيه العلم والصلاح والتقى، والتفقه على مذهب مالك بن أنس، ولا أدل على ذلك من تحريهم واستشارتهم واستخارتهم قبل تولية أي من قضاتهم، خصوصاً في

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٤٧-١٤٨، ابن حيان المقتبس، السفر الثالث ص٤٣.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٤٥- ١٤٨.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٣، ١٧٤. عياض، ترتيب المدارك، ٢/ ٨٤ – ٨٦، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢.

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ٢/١٧٥، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠١- ١٠٣.

عاصمة الدولة قرطبة، لذا لا نستغرب إذا ما علمنا أن غالبية قضاتهم من فقهاء المالكية، ومن أكابر علماء وفقهاء عصرهم.

ومن الأدلة على حرصهم على تولية الأكفاء من الفقهاء والعلماء قصة حصلت للأمير محمد بن عبدالرحمن، فقد كان أميراً على ماردة من قبل والده عبدالرحمن، فقام غلمان له بأخذ جارية حسناء ليهودي، فاشتكى اليهودي للقاضي سليمان بن أسود[1]، وكان في ذلك الوقت قاضياً للأمير عبدالرحمن على ماردة، فأرسل القاضي للأمير محمد بن عبدالرحمن يخبره بالخبر، ويتوعده إذا لم يتم إرجاعها لليهودي فسيذهب بنفسه إلى قرطبة، ويخبر الأمير عبدالرحمن بن الحكم ويستعفى من القضاء، فردت الجارية إلى اليهودي، ولما تولى الأمير محمد بن عبدالرحمن الإمارة سارع بتولية هذا القاضي وجعله قاضياً للجماعة بقرطبة رغم ماكان منه، إلا أنه ولاه وأعزه وأدنى منزلته[2]، وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على حرص هذا الأمير على توليه الأكفاء لهذا المنصب المهم.

لقد ترك أمراء الدولة الأموية قضاتهم يحكمون بما يرون أنه الحق، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يحابون صاحب سلطان ولا سلطة، ولذلك أفاض المترجمون في مدح هؤلاء القضاة، ووصفوهم بعدة أوصاف، يقول عياض[3]عن القاضي الفرج بن كنانة[4]بأنه:"صلب القناة في حكومته، يعطي طوابعه في كل أحد من قرابة السلطان ووزرائه، فلا يرد له طابع".

وكان القاضي ابن أبي عيسى، صارماً في تنفيذ الحقوق، والكشف عن أحوال

(١) هو سليمان بن أسود الغافقي، يكنى أبا أيوب، من أهل قرطبة، استقضاه الأمير محمد بن عبدالرحمن مرتين بقرطبة، ولم يزل قاضياً حتى توفي الأمير محمد، توفي وعمره ٩٥ سنة (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٥٥، ١٥٦).

(٢) النباهي، تاريخ قضاء الأندلس، ص٧٨، ٧٩.

(٣) ترتيب المدارك، ٣٩٤/١.

(٤) هو الفرج بن كنانة بن نزار بن غسان الكناني، من أهل شذونة، تولى قضاء قرطبة للحكم بن هشام سنة ١٩٨هـ مدة سنتين، وكان مبعوثاً للأمير الحكم في الثغر الأقصى (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٧٥).

الشهود، والصدع بالحق في السر والجهر، و لم يداهن ذا قدر ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان عن هنة[١].

كما ألزم حكام بني أمية في الأندلس قضاتهم بالحكم بمذهب مالك، فكان القضاة من غير المالكية إذا جلسوا للحكم بين الناس حكموا بمذهب مالك وما عليه أصحابه[٢]، وقد أدى ذلك لانتشار المذهب المالكي بين عامة الناس، حتى أصبح عرفاً يتميز به أهل الأندلس عن غيرهم من أقاليم العالم الإسلامي.

ومن خلال ما سبق يتبين أن القضاء في عهد بني أمية كان مستقلاً، وإذا كنا نعلم أن الحاكم الأموي هو الذي يعين القاضي، ولكن بمجرد التعيين يكون مستقلاً بنفسه، ويصبح الأمير عاجزاً عن توجيهه في أحكامه أي وجهة يريدها، ولو تعلق الأمر به أو بأحد أمراء الأسرة أو بأحد حواشي القصر، و لم يكن له بداً من الإذعان لحكمه وقضائه[٣].

ونظراً لطبيعة منصب القضاء في كونه يمثل الحق والانتصار لصاحبه، كانت الأحكام التي يصدرها القضاة وفق مذهب الإمام مالك تحظى بالقبول والتأييد من قبل المتخاصمين والسلطة الحاكمة، بالإضافة إلى أن القضاة الذين يمثلون هذا المذهب أصبحوا محط أنظار عامة الناس، وتأييد السلطة الحاكمة لهم تضفي على هذا المذهب وأتباعه أهمية كبيرة، وتجعل منهم أعلاماًتكتسب من خلالهم شرعيتها، وتحقق بهم وحدة البلاد الفكرية.

٢-خطة الرد وخطة المظالم:

انفرد المغرب والأندلس بخطة الرد، فقد ورد ذكر هذه الخطة في تراجم رجالات الأندلس و لم يظهر لأحد ممن تكلموا عنها حدود اختصاصها ولا دائرة نفوذها[٤]. ولقد

---

(١) عياض، ترتيب المدارك ٨٦/٢.

(٢) المقري، نفح الطيب، ٢١/٢.

(٣) شوقي ضيف، استقلال القضاء في الأندلس، نشر في فصول أدبية وتاريخية لمجموعة من العلماء والأدباء مهداه إلى ناصر الدين الأسد، تحرير حسين عطوان، ط١، ص١٩، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

(٤)محمد عبدالوهاب خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، ص٥١٩، ط١، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٢م .

أورد ابن سهل[١] في نوازله خطة الرد ضمن الخطط الست التي تخول لصاحبها سلطة إصدار الأحكام، وفصّل هذه الخطة عن خطة المظالم فيقول: "واعلم أن الحكام الذين تجري على أيديهم الأحكام ست خطط ... وصاحب مظالم وصاحب رد".ويشرح ابن سهل[٢]مهمة عمل صاحب الرد فيقول:"وإنما يحكم صاحب الرد بما استرابه القضاة وردوه عن أنفسهم، هكذا سمعته من بعض من أدركته".

ويقول النباهي[٣] عن خطة الرد:"ويسمى صاحب رد بما رد عليه من الأحكام... وإنما يحكم صاحب الرد فيما استرابه الحكام، وردوه عن أنفسهم"

ونحن هنا أمام أمرين اثنين هل خطة الرد منفصلة عن خطة المظالم، أو هما اسمين لخطة واحدة، وبالنظر إلى ما سبق مما أورده ابن سهل، والنباهي الذي يبدو أن ينقل عن ابن سهل، يتضح أن خطة الرد منفصلة عن خطة المظالم، وأن عمل صاحب الرد محصور في إصدار الأحكام بالقضايا التي رفض القضاة الحكم فيها، وهذا ما يؤيده بعض الباحثين[٤].إلا أن بعض الباحثين كحسين مؤنس[٥]يجمع بين خطة الرد وخطة المظالم فيعرفها : بإدارة الشكاوي، وتختص بالنظر فيما يرد إلى مركز الدولة من شكاوي الناس، والعمل على إنصافهم، ورد المظالم عنهم، ولهذا تسمى خطة الرد، أو رد المظالم، وهي ليست وظيفة قاضي القضاة.

ويوافقه الكبيسي[٦] فيقول: أسندت خطة الرد أو المظالم إلى الفقهاء والعلماء في أيام الدولة الأموية في الأندلس، واستعمل الأندلسيون اصطلاح (الرد) للتعبير عن مؤسسة المظالم في البداية، ثم غلب اسم المظالم على هذه الخطة في القرن الرابع الهجري. ويعلق على ما أورده ابن سهل والنباهي فيقول: "ويتضح أن صاحب الرد لا يتلقى الشكاوى

---

(١)ابن سهل، الإعلام، ١/ ٢٨ .

(٢)ابن سهل، الإعلام، ١/ ٢٨ .

(٣) تاريخ قضاة الأندلس، ص٢٠.

(٤)محمد خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص ٥١٩، ٥٢٠ .

(٥) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط٢، ص ١١٠، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦م.

(٦)دور الفقهاء في الحياة السياسية، ص ١٨١، ١٨٢ .

مباشرة من الجمهور، وإن الحكام كانوا يحيلون إلى صاحب الرد كل قضية يخشون النظر فيها، وهذه القضايا على الأغلب الشكاوى التي يرفعها الناس على الخاصة والولاة وكبار الموظفين، وهذا عين ما يعرف بالمظالم، وعلى هذا الأساس فإن اختصاص صاحب الرد هو النظر في المظالم"[١].

وخلاف النصين اللذين أوردهما ابن سهل والنباهي[٢] عن خطة الرد لا تزودنا المصادر حسب علمنا عن ماهية عمل صاحب الرد، أو بعض القضايا التي باشروها وأصدروا فيها أحكاماً، ومن هنا فإني أرجح أن عمل صاحب الرد هو نفسه عمل صاحب المظالم وقد استندت في ترجيحي هذا إلى قيام الخليفة المستنصر بإرسال صاحب الرد عبدالملك بن منذر البلوطي[٣] إلى مدن الكور الغربية[٤]، لمطالعة الرعايا والتعرف على أحوالهم ومدى رضاهم عن عمال الخلافة، وعن سير العمال فيها[٥]، وفي مرة أخرى أرسل هذا القاضي إلى مدينة الفرج[٦] ليتعرف على حقيقة ما رفعه أهلها على قائدها، فينصفهم منه[٧]. ولا شك أن هذا هو عين عمل صاحب المظالم.

أما المظالم فيقول ابن خلدون[٨] في تعريفها:"وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطة ونصفه القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين، ويزجر المعتدي، وكان يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه، ويكون نظره في البينات

---

(١)الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسة، هامش رقم (٢)، ص ١٨١ .

(٢)ابن سهل الإعلام، ١/ ٢٨، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٠ .

(٣) هو عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي، يكنى أبا مروان، من أهل قرطبة، سمع من أبيه وغيرهم وولي خطة الرد، اتهم بالنكث بالبيعة فقتل وصلب سنة ٣٦٨هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٢٤).

(٤) مدن الكور الغربية المقصود بها مدن غرب الأندلس.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٠٠.

(٦) الفرج: مدينة بالأندلس تعرف بوادي الحجارة، ينسب إليها بعض العلماء الذين خرجوا منها، وتقع الآن على نهر هنارس شمال شرق مدريد على بعد ٥٠كم (ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، ٢٤٧/٤، دار الفكر، بيروت، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ٤١).

(٧) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٠٤، ١٠٥.

(٨) المقدمة، ٣٧٥/١.

والتعزير، واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي"،

ولم يعين الحكام الأمويون في الأندلس على خطة الرد أو المظالم أحداً في البداية، إنما كانوا يتولونها بأنفسهم جرياً على عادة الحكام في العالم الإسلامي بجعل هذه الخطة من اختصاصهم[١]، إلا أنهم لم يستغنوا عن الفقهاء في ذلك، حيث أُسند إلى بعضهم مهمة رفع كتب المظالم إلى السلطان، كموسى بن أحمد الوتد[٢] الذي تصرف في دفع كتب المظالم الحاجب المنصور بن أبي عامر[٣]، وكان هذا الفقيه مالكي المذهب درس على يد عدد من فقهاء المالكية[٤].

وكان الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ) هو أول أمير أموي أسند هذه الخطة لفقهاء عصره، فقد عين الفقيه المالكي موسى بن محمد بن زياد على خطة الرد[٥].

ولّما تولى الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر الإمارة في الفترة مابين(٣٠٠-٣٥٠هـ) عين الفقيه أحمد بن محمد بن حدير[٦] على أحكام المظالم، فكان صلباً في أحكامه، مهيباً في الحق[٧].

ولما تولى الحكم المستنصر خلافة الدولة الأموية عين الفقيه المالكي محمد بن تلميخ

(١) ابن خلدون، المقدمة، ١/٣٧٥.

(٢) هو موسى بن أحمد بن سعيد اليحصبي، ويعرف بالوتد، يكنى أبا محمد، من أهل قرطبة، سمع من عدد من العلماء وكان بصيراً بالشروط، وقدم إلى الشورى، توفي سنة ٣٩٧هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٠٩).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٠٩، عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٥٠.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٠٩، عياض ترتيب المدارك، ٢/٢٥٠.

(٥) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٧، ابن الأبار، التكملة، ٢/١٤٦.

(٦) هو أحمد بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، ولي خطة الوزارة، وأحكام المظالم، وكان صلباً في أحكامه، ولد سنة ٢٥٥هـ، وتوفي سنة ٣٢٧هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤١).

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤١.

التميمي[1] على خطة الرد، وكان هذا الفقيه يحظى بمنزلة رفيعة عند الخليفة، كما أنه أحد المقربين لديه، وكذلك الفقيه محمد بن إسحاق بن منذر بن السليم المالكي المعروف الذي ولاه الحكم المستنصر خطة الرد، ثم ولاه بعد ذلك قضاء قرطبة[2].

ومن المهام التي كان الخليفة الحكم المستنصر يوكلها إلى أصحاب المظالم إرسالهم لتفقد أحوال المدن والفصل فيما يرد إليه من شكاوى الناس على ولاة الأقاليم، فقد أرسل صاحب مظالمه الفقيه المالكي عبدالرحمن بن موسى بن حدير[3] إلى إشبيلية لما شكى أهلها ما يواجهونه من حيف الوالي عليهم، فأوقف الوالي وامتحنه فيما نسبوه إليه من مظالمهم، وانتصر لهم منه ومن حاشيته وخدمه[4]. ولا شك في أن إرسال أصحاب المظالم خصوصاً المالكية منهم لتفقد أحوال المدن والفصل في شكاوى الناس يكسبهم مكانة في المجتمع، ويساهم في نشر العدل في البلاد، ومما لا شك فيه أنه يخدم قضية الوحدة الفكرية بالنظر إلى أن أصحاب تلك المبادرات يمثلون اتجاهاً مذهبياً واحداً.

وتداولت عائلة ابن هرثمة المالكية منصب قاضي المظالم بقرطبة، واختارهم الحاجب بن أبي عامر وابنه من بعده واحداً بعد الآخر لتولي هذا المنصب، حيث كانت البداية بوالدهم أبو بكر عبدالله بن هرثمة والذي كان مقرباً من ابن أبي عامر، وله مكانة خاصة عنده، فقد ولاه خطة الرد، وبعد وفاته عين ابنه أحمد بن عبدالله بن هرثمة مكانه، وكان هذا الفقيه مالكياً مشهوراً، وقد تدرج في المناصب حتى وصل إلى قاضي الجماعة في قرطبة[5].

---

(١) هو محمد بن تلميخ التميمي، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، حدث عن يحيى بن عبدالله في الموطأ، ولي خطة الرد والشرطة، وكان عالماً بالطب، توفي سنة ٣٦١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٥٠، ٣٥١).

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٥٥، ٣٥٧.

(٣) هو عبدالرحمن بن موسى بن محمد بن حدير يكنى أبا المطرف، سمع من عدد من العلماء وتولى الوزارة في عهد المستنصر، كان ديناً خيراً، توفي سنة ٣٦٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢١٧).

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٨٦.

(٥) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٥٣.

ومن أشهر قضاة المظالم أيضاً القاضي المالكي عبدالرحمن بن فطيس[1] الذي تقلد خطة المظالم بعهد المنصور بن أبي عامر، فكانت أحكامه شداداً، وعزائمه نافذة، وله على الظالمين سَوْرة، وقد تقلد بعد المظالم القضاء والوزارة والشورى[2].

واستمراراً للثقة التي وضعها الحاجب ابن أبي عامر في عائلة ابن هرثمة، ولّى ابنه عبدالملك بن المنصور بن أبي عامر[3] الفقيه محمد بن عبدالله بن هرثمة بن ذكوان[4] أحكام المظالم بقرطبة، فكان محموداً في أحكامه، حسن السيرة فيها[5]. ولا شك أن تعيين أسرة مكونة من أب وابنيه جميعهم على مذهب مالك في منصب واحد، دليل على تمكين أمراء البيت الأموي للمذهب المالكي، ومحاولة تجنب المجازفة في التغيير مراعاة لاختيار الأصلح المجرَّب، والذي يساعد في تحقيق الوحدة الفكرية للأندلس، وحصرها في مذهب واحد بعيداً عن إزعاج التنافس المذهبي الذي قد ينعكس بشكل مباشر على الجانب السياسي.

وفي أيام الفتنة التي وقعت في أواخر عهد الدولة الأموية في الأندلس، تولى عدداً من المالكية قضاء المظالم، منهم محمد بن علي بن هشام الأنصاري[6]، فكان حازماً في الحكم، شديداً على أهل الاستطالة[7].

وعُين أيضاً كبير مفتي المالكية في قرطبة في تلك الفترة، عبدالله بن سعيد

---

(١) هو عبدالرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس، يكنى أبا المطرف، قاضي الجماعة والوزير بقرطبة، تولى القضاء، والخطبة، والصلاة بالإضافة إلى خطة الوزارة في أيام المنصور بن أبي عامر وابنه عبدالملك وأيام الفتنة بقرطبة، وتوفي سنة ٤٠٢هـ (ابن بشكوال، الصلة، ٢٧٣/١).

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٢٥٩/٢، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١١٦.

(٣) هو المظفر بالله بن المنصور بن أبي عامر المعافري، ولي الحجابة بعد وفاة والده سنة ٣٩٢هـ، ولقب المظفر وسيف الدولة، توفي سنة ٣٩٩هـ (ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/٣، ٤).

(٤) هو محمد بن عبدالله بن هرثمة بن ذكوان يكنى أبا حاتم، من أهل قرطبة، صحب القاضي ابن زرب وتفقه عنده وولاة الشورى بقرطبة توفي سنة ٤١٤هـ (ابن شكوال، الصلة، ١٢٥/٢).

(٥) ابن شكوال، الصلة، ١٢٥/٢.

(٦) هو محمد بن علي بن هشام بن عبد الرؤوف الأنصاري يكنى أبا عبدالله من أهل قرطبة، كان واسع العلم حاذق الفتوى عالماً باللسان، توفي سنة ٤٢٤هـ (ابن بشكوال، الصلة، ١٣٧/٢).

(٧) ابن بشكوال، الصلة، ١٣٧/٢.

الأموي[١]على خطة المظالم، كما أسند إليه عدداً من الخطط الأخرى[٢].

وتولى القاضي المالكي ومؤلف كتاب "الموعب في تفسير موطأ مالك" يونس بن عبدالله بن مغيث[٣] عدداً من الخطط، منها القضاء والرد والشورى والصلاة، واستمر على بعض هذه الخطط حتى بعد سقوط الدولة الأموية في الأندلس[٤].

ولا شك أن تولية فقهاء المالكية هذا الكم الكبير من الخطط في وقت واحد يؤدي إلى تعميق حضورهم في المجتمع، كما يؤدي إلى تأصيل الاتجاه الواحد في الفكر، مما يعزز من وحدة الأندلس الفكرية في عهد بني أمية.

٢-ولاية السوق: (الحسبة):

الحسبة: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وهي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم [٥]، وصاحب السوق هو الوالي عليها، وكان يعرف بصاحب الحسبة، لأن أكثر نظره إنما يجري في الأسواق، من غش وخديعة، وتفقد مكيال وميزان، وشبه ذلك[٦]، ومن الشروط التي يجب توفرها فيمن يتولاها: أن يكون حراً عدلاً، ذا رأي وصرامة، وعلم بالمنكرات الظاهرة[٧].

من أشهر ولاة السوق بالأندلس العباس بن قرعوس[٨]، كان والياً على السوق أيام

---

(١) هو عبدالله بن سعيد الأموي، يعرف بابن الشقاق، يكنى أبا محمد، من أهل قرطبة، كان فقيهاً جليلاً أحفظ أهل عصره للمسائل وأعرفهم بقصد الوثائق، وكان يقرئ الناس بالقراءات السبع، توفي سنة ٤٢٦هـ (ابن بشكوال، الصلة، ٢٣٣/١، ٢٣٤).

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٢٩٨/٢، ابن بشكوال، الصلة، ٢٣٣/١، ٢٣٤ .

(٣) هو يونس بن عبدالله بن مغيث، قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها، يعرف ابن الصفار، استقضى ببطليوس، ثم ولي الخطبة بجامع الزهراء والشورى، توفي سنة ٤٢٩هـ (ابن بشكوال، الصلة، ٢٨٠/٢، ٢٨١).

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ٢٨٠/٢، ٢٨١.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣٩١.

(٦) النباهي، تاريخ القضاء في الأندلس، ص٢٠.

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣٩٢.

(٨) هو العباس بن قرعوس بن عبيد الثقفي، يكنى أبا قرعوس، من أهل قرطبة تولى ولاية السوق في عهد الأمير =

الأمير هشام بن عبدالرحمن، وعلى ما يبدو أيضاً أول أيام الأمير الحكم بن هشام، وكان رجلاً شديداً، يضرب المخالف ضرباً مبرحاً، ويشتد على أهل الريبة، وحدث أن خرج يوماً من المسجد الجامع فشاهد مع أحد رسل الأمير شراباً، فأخذه وأمر بكسره وإهراقه، وضرب الرسول ضرباً شديداً، فلما علم مرافق الأمير وكان هو الذي بعث بالرسول، قال للأمير: لقد ذهب ملكنا وغلبنا على أمرنا، فقال له الأمير: ما بالك، فأخبره الخبر، فقال له الأمير: هذا قوة لملكنا! ألا استتر رسولك[١].

ولما سأل ابنه قرعوس بن العباس بن قرعوس[٢] الإمام مالك عن فعل والده وقسوته مع أصحاب المنكرات، قال مالك: إن كان فعل ذلك غضبا لله وذبا عن محارمه، فأرجو أن يكون خفيفاً[٣].

ولما حدثت مجاعة شديدة في أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم، وكثر فيها التطاول من الفسدة، وتضرر العامة، وكثرت الشكوى منهم، وكثر استشارة الحكام له في الصلب والقطع وما أشبهه، ولّى السوق الفقيه المالكي إبراهيم بن حسين بن عاصم[٤]، وأمره بالاجتهاد، وأذن له: بالتنفيذ في القطع والصلب بلا أمر منه ولا استئذان، فكان إبراهيم يجلس في مجلس نظره في السوق، فإذا أُوتي بالفاسد، قال له: اكتب وصيتك، ودعا له بشيوخ، فأشهدهم على ما يوصي به، ثم قتله وصلبه، فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم[٥].

وقد لا يجد بعض ولاة السوق قبولاً لهم عند عامة الناس، إذ أن الأمير عبدالله بن

هشام بن عبدالرحمن والحكم بن هشام (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ص٢٩١).

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٩١.

(٢) هو قرعوس بن العباس بن قرعوس الثقفي، يكنى أبا محمد، من أهل قرطبة، سمع من مالك وتوفي سنة ٢٢٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩١، ٢٩٢).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩١، عياض، ترتيب المدارك، ٢٨٥/١.

(٤) هو إبراهيم بن حسين بن عاصم بن كعب الثقفي، يكنى أبا إسحاق من أهل قرطبة، تصرف في أحكام الشرطة والسوق أيام الأمير محمد توفي سنة ٢٥٦هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٦).

(٥) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٥١، عياض، ترتيب المدارك، ٤٥٠/١.

محمد لما عزل والي السوق عبدالله بن الأصبغ، وعين بدلاً منه أيوب بن سليمان[١]، لم يستمر طويلاً، إذ كرهه الناس فعزل عن هذه الخطة[٢].

وقد أعجب الخليفة عبدالرحمن الناصر بالفقيه يحيى بن عبدالله المرادي[٣]فولاه السوق بالإضافة إلى الشرطة والسكة [٤]، ثم عين أخاه يونس بن عبدالله[٥] على خطة السوق أيضاً في قرطبة سنة ٣٣٥هـ[٦].

وتميز والي السوق إسماعيل بن بدر بن إسماعيل[٧] في ولايته آخر عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر وأول عهد ابنه الحكم المستنصر، فحمد أمره فيها، ونال شكر الناس لجميل ولايته[٨].

وقد عين الخليفة الحكم المستنصر معلم ابنه هشام، الفقيه المالكي أحمد بن نصر[٩] على ولاية السوق، كما استعان به في عدد من الخطط غيرها، وكان الأمير هشام بن

---

(١) هو أيوب بن سليمان بن هاشم بن السمح المعافري، يكنى أبا صالح من أهل قرطبة، وأصله من جيان، كان إماماً في رأي مالك، متقدماً في الشورى، والفتيا دائرة عليه في وقته، توفي سنة ٣٠٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٧٨، ٧٩).

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص١١٣، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٧٩.

(٣) هو يحيى بن عبدالله بن يونس المرادي، من أهل قرطبة، توفي سنة ٣٢٦هـ (ابن الآبار، التكملة، ٢٣٨/٣).

(٤) ابن الأبار، التكملة، ٢٨٣/٣.

(٥) هو يونس بن عبدالله بن يونس المرادي، من أهل قرطبة، ذكره ابن حيان وغيره (ابن الأبار، التكملة، ٢٨٣/٣).

(٦) ابن الأبار، التكملة، ٢٨٣/٣ .

(٧) هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، مولى لبني أمية، يكنى أبا بكر من أهل قرطبة، سمع من بقي بن مخلد وغيره، توفي في أول ولاية حكم المستنصر سنة ٣٥١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦٤، ٦٥).

(٨) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٦٤، ٦٥.

(٩) هو أحمد بن نصر بن خالد، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، سمع من عدد من العلماء، وولي الشرطة والسوق والقضاء، وتوفي سنة ٣٧٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٥١).

الحكم المستنصر قد سمع من هذا الفقيه موطأ الإمام مالك(١).

كما ولّى الحاجب المنصور بن أبي عامر الفقيه المالكي عبدالرحمن بن محمد الرعيني(٢)عدداً من الولايات والخطط، ومنها ولاية السوق(٣).

مما سبق يتضح أن أمراء وخلفاء بني أمية هم الذين يباشرون تعيين ولاة السوق وعزلهم، لا يشاركهم في ذلك أحد، وبتتبع اختيارهم لولاة السوق نلاحظ حرصهم على تعيين فقهاء المذهب المالكي، مما يؤكد استمرارهم على اختيار الاتجاه الواحد في الفكر، والذي ينعكس بدوره على توحيد البلاد فكريا ويعزز من وحدته السياسية.

٤-الصلاة:

تقلد بعض الفقهاء في الأندلس وظيفة الصلاة في قرطبة وغيرها بحكم أحقيتهم الدينية، وكان تعيينهم غالباً يتم عن طريق أمراء وخلفاء الدولة الأموية، ومن الملاحظ أن أغلب من تولوا وظيفة الصلاة في المسجد الجامع، ضموا إلى جانب الصلاة والخطبة وظيفة أو وظائف أخرى، كما أن غالبية من يتم تعيينهم قضاة خارج قرطبة، كان يعهد إليهم بالصلاة إلى جانب القضاء(٤). وقد أولى أمراء الدولة الأموية هذا المنصب أهمية كبيرة، لأن من يتولى الصلاة والخطبة يقوم بدور كبير في تأليف قلوب عامة الناس، وعن طريقهم يأخذ الناس كثيراً من الإرشادات والتوجيهات، لذا حرص أمراء الدولة الأموية على اختيار فقهاء المذهب المالكي لهذا المنصب تمكيناً لهم، واستفادة منهم في توجيه الناس لطاعة إمام المسلمين، والمحافظة على وحدة البلاد الفكرية بدعم مذهب مالك وجعله مذهباً رسمياً

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٥١.

(٢) هو عبدالرحمن بن محمد بن أحمد الرعيني، المعروف بابن المشاط، يكنى أبا المطرف من أهل قرطبة، كان من أهل العلم والفهم، نال السؤدد بأدبه وفطنته، تولّى العديد من المناصب، وتوفي سنة ٣٩٧هـ (ابن بشكوال، الصلة، ٢٦٩/١، ٢٧٠).

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ٢٦٤/٢، ابن بشكوال، الصلة، ٢٧٠/١.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٢، ٧٥، ٢٤٨.

للدولة.

وقد تقلد الفرج بن كنانة عدة مناصب، فولي القضاء والصلاة زماناً، كما تصرف للأمير الحكم بن هشام في الولايات[1]، كما تولى الفقيه أحمد بن زياد اللخمي[2] القضاء والصلاة بقرطبة [3].

وبجانب وظيفة الشرطة، عين الأمير عبدالرحمن بن الحكم الفقيه محمد بن خالد الأشج[4]على وظيفة الصلاة[5].

ونتيجة لمحبة الأمير محمد بن عبدالرحمن للفقيه عمرو بن عبدالله بن لبيب، عينه على القضاء والصلاة، فرفض العرب الصلاة خلفه بحجة أنه من الموالي[6]، فعزله الأمير عن الصلاة وعين عبدالله بن الفرج النميري مكانه[7].

ولما تولى الأمير عبدالله بن محمد الإمارة عين النظر بن سلمة على القضاء والصلاة معاً، فأحسن السياسة وخالق الناس بخلق حسن، وتصرف للأمير عبدالله في أشياء كثيرة

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦.

(٢) هو أحمد بن زياد بن عبدالرحمن اللخمي، سمع من أبيه، واستقضي بقرطبة وولي صلاة الجماعة بها، ثم عزل وخرج حاجاً، فتوفي بمصر سنة ٢٠٥هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٨).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٨.

(٤) هو محمد بن خالد الأشج، المعروف بابن مرتنيل، مولى الأمير عبدالرحمن بن معاوية يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، سمع من ابن القاسم، وأشهب، وكان الغالب عليه الفقه، توفي سنة ٢٢٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩٦).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٩٦، عياض، ترتيب المدارك،

(٦)تصرف غير جيد من الأمير، ومطالبة جاهلية من العرب لمخالفة ذلك الهدي الإسلامي وسماحته قال تعالى"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير " سورة الحجرات، آية رقم (١٣) .

(٧) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٠١.

تصرفاً كاملاً، ثم لما أراد أن يستوزره عزله عن القضاء والصـــــــلاة، وولاها محمد بن سلمة[١].

وفي عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر عبدالملك، كان القاضي بقرطبة أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن فطيس قد جمع إلى جانب خطة القضاء، خطة الوزارة والصلاة، وقل ما اجتمع ذلك لقاضي قبله بالأندلس[٢]،كما تولى يونس بن مغيث الخطبة بجامع الزهراء، ثم الصلاة والخطبة بجامع قرطبة، بالإضافة إلى كثير من المناصب الأخرى، ثم تقلد في عهد المعتز بالله هاشم بن محمد المرواني (٤١٨- ٤٢٠هـ) قضاء الجماعة بقرطبة، والصلاة والخطبة سنة ٤١٦هـ[٣].

ويلاحظ أن كل من سبق ذكرهم قد تم اختيارهم بعناية من قبل أمراء الدولة الأموية في الأندلس فجميعهم من فقهاء المالكية، مما يؤكد سيطرة المالكية على أغلب المناصب في الدولة خصوصاً الدينية منها؛ عن طريق تمكين الأمراء لهم، والاستفادة منهم في دعم الوحدة الفكرية للأندلس.

٥-الفتيا:

يقول ابن خلدون[٤]:"وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك، ومنع من ليس أهل لها وزجره، لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم، فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس".

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٥.

(٢) ابن بشكوال، الصلة، ٢٧٣/١، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١١٦.

(٣) ابن بشكوال، الصلة ، ٢٨٠/٢.

(٤)المقدمة، ٣٧٢/١، ٣٧٣.

وعند النباهي[١]:"لا يستقضى إلا من يوثق به في عفافه، وصلاحه، وفهمه، وعلمه بالسنة والآثار ووجه الفقه، ولا يصلح أن يكون صاحب حديث لا فقه له، وفقيهاً لا حديث عنده، ولا يفتي إلا من كان هذا وصفه".

وقد برز عدد من المفتين الرسميين الذين دارت عليهم الفتيا في العهد الأموي في الأندلس، منهم عيسى بن دينار الغافقي[٢]، الذي كانت تدور عليه فتيا الأندلس في عهد الأمير الحكم بن هشام، لا يتقدمه في وقته أحد، وكان يسمى فقيه الأندلس لمكانته وعلمه، ونظراً لهذه المكانة العظيمة التي كان يتسنمها هذا الفقيه ، تم العفو عنه من الاتهام الذي ناله بسبب هيج الربض[٣]، كما تولى إلى جانب ذلك قضاء طليطلة، والشورى بقرطبة، وكانت له بها رئاسة، وينسب إليه وإلى الفقيه يحيى بن يحيى الليثي نشر مذهب مالك في الأندلس[٤].

وفي عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم انتقلت الفتيا في الأندلس بعد الفقيه المالكي عيسى بن دينار إلى الفقيه المالكي الآخر يحيى بن يحيى الليثي، والذي انتهت إليه الرئاسة في العلم بالأندلس، فقد دارت الفتوى عليه فيها حتى وفاته، ثم اختار الأمير عبدالرحمن بن الحكم بعده الفقيه المالكي عبد الملك بن حبيب، والذي كان من ضمن الفقهاء المشاورين في عهده، وانتهت إليه الرئاسة في الأندلس بعد وفاة الفيه يحيى بن يحيى[٥].

ورغم أن الأمير محمد بن عبدالرحمن لم يُعين الفقيه الشافعي قاسم بن سيار مفتياً للأندلس في أيامه، خاصة أنه كان من المقربين لديه، إلا أن هذا الفقيه كان ملتزماً بالفتوى على مذهب الإمام مالك حينما يسأل عن مسألة من المسائل، معللاً ذلك بأن مذهب البلد

---

(١) تاريخ قضاة قرطبة، ص٣٧.

(٢) هو عيسى بن دينار بن واقد الغافقي، يكنى أبا عبدالله، أصله من طليطلة، وسكن قرطبة، توفي بطليطلة سنة ٢١٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) هيج الربض كان في السنة ٢٠٢هـ، في عهد الحكم بن هشام. للاستزادة (ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٥/٢، ٧٧).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٦٢، عياض، ترتيب المدارك، ٣٧٣/١ — ٣٧٥.

(٥) عياض، ترتيب المدارك، ٣١١/١، ٣١٢، ٣٨٢.

هو المذهب المالكي وهو الذي عليه الفتيا[١].

وانتقلت الأندلس من الاعتماد على فقيه واحد تؤخذ منه الفتوى، إلى عدة فقهاء وصل عددهم في عهد الأمير عبدالله بن محمد إلى أكثر من عشرة فقهاء، من أشهرهم عبدالله بن يحيى بن يحيى وقاسم بن محمد بن قاسم[٢].

ونظراً لسعة علم الفقيه المالكي حباشة بن حسن اليحصبي[٣]، فقد كان فقيهاً بالمسائل، حافظاً للاختلاف، عالماً بالسنن والآثار، دعاه الخليفة الأموي الحكم المستنصر للجلوس للفتيا، وأن تجرى عليه جراية من عند الخليفة، ويتوسع له في الإنزال، فلم يوافق على ذلك[٤].

ونتيجة لاهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالفتيا، طلب من الفقيه والمؤرخ المعروف محمد بن الحارث الخشني تأليف كتاب له يختص بالفتيا، فألف له كتاباً سماه كتاب الفتيا[٥].

وفي الفترة التي تولى فيها الحاجب المنصور بن أبي عامر قيادة الدولة الأموية بالأندلس، تم تقديم الفقيه الحسن بن حيّ التجيبي[٦] لمنصب الفتيا، وأصبح صدراً في المفتين بقرطبة[٧].

كما تولى الفقيه المالكي عبدالله بن سعيد الأموي منصب كبير المفتين بقرطبة في

---

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص ٣٢٠.

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص٤٣، ابن الأبار، التكملة، ٣/٦٥.

(٣) هو حباشة بن حسن اليحصبي، يكنى أبا محمد، من أهل القيروان، رحل إلى المشرق وسمع كتاب البخاري ثم عاد إلى الأندلس، ولزم العبادة والعلم والجهاد حتى توفي سنة ٣٧٤هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١١٢).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١١٢.

(٥) الخشني، تاريخ قضاة قرطبة، ص٧.

(٦) هو الحسن بن حي بن عبد الملك التجيبي، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، شاوره القاضي محمد بن بقي بن زرب، وتولّى عدداً من الخطط، وتوفي سنة ٤٠١هـ (ابن بشكوال، الصلة، ١/١٢٦).

(٧) ابن بشكوال، الصلة، ١/١٢٦، ١٢٧.

أواخر عهد الدولة الأموية بالأندلس، وحاز فيها الرئاسة والشورى، والفتيا والقضاء، والوزارة[١].

ولا شك أن تركيز أمراء الدولة الأموية في الأندلس على تعيين علماء المالكية مفتين رسميين، وترقية بعضهم إلى درجة رياسة البلد في العلم والإفتاء، وإسناد العديد من الخطط لبعضهم، أثر كبير في ترسيخ مذهب مالك في الأندلس والتمكين للمالكية، مما يؤدي إلى دعم وحدة الأندلس الفكرية وحصرها في مذهب واحد، منعاً للتشتت المذهبي الذي لا يخدم الوحدة السياسية بأي حال من الأحوال.

٦-الشرطة:

استعان أمراء وخلفاء الدولة الأموية بالفقهاء لتولي خطة الشرطة، والتي كان يسمى صاحبها في الأندلس بصاحب الشرطة، كما قسم الأمويين منصب الشرطة إلى ثلاثة أقسام الشرطة الصغرى والشرطة الوسطى والشرطة الكبرى[٢]، أما ابن خلدون[٣] فإنه يقسمها إلى قسمين: الشرطة الصغرى والشرطة الكبرى.

وربما كانت أغلب جلسات الحُكْم بالنسبة لصاحب الشرطة الصغرى تتم في المسجد[٤]، في حين نصب لصاحب الشرطة الكبرى كرسي بباب دار السلطان، ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا بإذنه، ومن الملاحظ أن هذا المنصب كان حصراً على الأكابر من رجال الدولة، وكان من يتولاها مرشحاً للحجابة والوزارة[٥].

ولم نعثر في كتب التراجم إلا على فقيه واحد تولى منصب الشرطة الكبرى أو العليا، وكان ذلك في أيام الأمير عبدالله بن محمد، فقد عهد إلى الفقيه موسى بن محمد الجذامي

(١) عياض، ترتيب المدارك، ٢٩٨/٢، ابن بشكوال، الصلة، ٢٣٣/١، ٢٣٤.
(٢)ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٢، ابن سهل، الإعلام، ١/ ٢٨ .
(٣)ابن خلدون، المقدمة، ٢٥/٢، ٢٦.
(٤) ابن الأبار، التكملة، ٢٣٩/٣.
(٥) ابن خلدون، المقدمة، ٢٦/٢.

بمنصب الشرطة والرد ثم نقله إلى الشرطة العليا ثم القضاء[(١)]، ولا تطلعنا المصادر بنوع الأحكام التي أصدرها خلال فترة توليه هذا المنصب، الذي يبدو أنه تولاه لفترة قصيرة ؛ لأنه نقل إلى منصب القضاء ثم الوزارة[(٢)].

ونظراً لأهمية منصب الشرطة أعطى الأمير والخليفة لمتوليها صلاحيات واسعة، تصل في بعض الأحيان إلى القتل والصلب[(٣)]، كما تم منحهم رواتب مجزية تقديراً لعملهم[(٤)].

وكان تعيين الأمراء والخلفاء للفقهاء يختص بالشرطة الصغرى، التي كان مهمتها خاصة بالعامة من الناس[(٥)]، وكان أول من وليها بالأندلس الفقيه حارث بن أبي سعد سابق[(٦)] بعهد من الأمير الحكم بن هشام، واستمر والياً عليها حتى وفاة الحكم، وتولي ابنه عبدالرحمن الإمارة فأقره أيضاً عليها حتى وفاته سنة ٢٢٠هـ[(٧)]، ثم عين من بعده ابنه محمد بن حارث بن أبي سعد[(٨)] على نفس المنصب، ولما توفي الأمير عبدالرحمن بن الحكم أقره الأمير محمد بن عبدالرحمن عليها حتى وفاته سنة ٢٦٠هـ[(٩)].

وبجانب صاحب الشرطة محمد بن حارث، ولّى الأمير محمد بن عبدالرحمن ثلاثة من الفقهاء على خطة الشرطة خلال فترة إمارته، هم إبراهيم بن حسين بن خالد[(١٠)]،

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٧.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٠٧.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ١٥١، عياض، ترتيب المدارك، ١/٤٥٠.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٨١، ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٥٦.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ٢/٢٥، ٢٦.

(٦) هو حارث بن أبي سعد، واسم أبي سعد سابق، وهو مولى الأمير عبدالرحمن بن معاوية، يكنى أبا عمرو، دارت عليه الفتيا في عصره، توفي سنة ٢٢٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٩٣).

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٩٣، ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص ٢٣١، مكتبة دار التراث بالقاهرة ، عياض، ترتيب المدارك، ١/٣٧٧.

(٨) هو محمد بن حارث بن أبي سعد، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، تولى ولاية السوق إلى جانب الشرطة، وتوفي سنة ٢٦٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩٩).

(٩) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩٩.

(١٠) هو إبراهيم بن حسين بن خالد، ويكنى أبا إسحاق من أهل قرطبة، له رحلة للمشرق، حافظاً للفقه، وله =

ومسرور المعلم[١]، وإبراهيم بن حسين بن عاصم الذي ولي ولاية السوق أيضاً إلى جانب أحكام الشرطة[٢].

كما استعان الأمير عبدالله بن محمد بفقيهين لخطة الشرطة الصغرى[٣] خلال ولايته، ومثله أيضاً الخليفة عبدالرحمن الناصر[٤] وكان الناصر قد استحدث في عهده منصب الشرطة الوسطى في الأندلس ولم يكن هذا المنصب معروفاً في الأندلس قبله، وهي بين الشرطتين العليا والصغرى، فكان أول من رسمها وثلث عددها، فتعرّفت في دولته واستمرت بعده، وترتب رزقها وسطاً بين رزقي العليا والصغرى[٥] وخلال فترة حكم الخليفة الثاني للدولة الأموية في الأندلس الحكم المستنصر استعان بعدد كبير من الفقهاء لتولي منصب الشرطة الصغرى[٦]، ومما لا شك فيه أن غالبية هؤلاء كانوا من فقهاء وعلماء المالكية.

ومن أشهر من تولى خطة الشرطة أثناء وجود الحاجب المنصور بن أبي عامر على رأس الإدارة في الدولة الأموية، الفقيه إبراهيم بن محمد الشرقي[٧]، فقد عهد إليه المنصور بن أبي عامر بخطة الشرطة، بالإضافة إلى الخطابة، وعليه نال الرياسة في تلك الفترة[٨].

كتاب عن تفسير القرآن، توفي سنة ٢٤٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٥، ١٦).

(١) هو مسرور المعلم، من أهل سرقسطة، له سماع ورواية ورحلة، رجلاً فاضلاً (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٩٧).

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٥، ١٦، ٣٩٧.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٠٢، ٣٠٣، ٣٦٥.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٠٧، ٢٠٨، ابن الأبار، التكملة، ٣/٢٣٨.

(٥)ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٢، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ ٢٠٢ .

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٥١، ٦٣، ١٩١، ١٩٢، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٦، ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٨١.

(٧) هو إبراهيم بن محمد الشرقي، يكنى أبا إسحاق، منسوب إلى الشرف من سواد إشبيلية، كان فقيهاً جليلاً، ورئيساً في أيام المنصور بن أبي عامر (الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٣٢).

(٨) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٣٢.

إن اختيار أمراء بني أمية في الأندلس للفقهاء خصوصاً المالكية منهم لمنصب الشرطة، يرتبط بشكل كبير بعلاقة صاحب الشرطة في إصدار الأحكام على المخالفين مباشرة في بعض القضايا التي تتطلب سرعة البت فيها[1]، ولثقة الأمويين بفقهاء المالكية مُنح كثيرٌ منهم هذا المنصب، وأطلقت يد بعضهم في حرية إصدار الأحكام على المخالفين بدون استشارة أو رجوع للأمير[2]، كما أسند إلى بعضهم خطط أخرى مع منصب الشرطة خصوصاً ولاية السوق، ولا شك أن الفقهاء أثبتوا مقدرتهم العالية في إدارة هذا المنصب، كما أن منحهم كثيراً من الصلاحيات والتي وصلت إلى حد القتل، أعطت هذا المنصب قوة أكبر، وأدت إلى المحافظة على الأمن واستتبابه[3]، مما عزز من وحدة الأندلس السياسية والفكرية في آن واحد.

٧-الوزارة:

تقلد بعض فقهاء الدولة الأموية في الأندلس الوزارة، وهو منصب يهتم بمؤازرة ومعاونة الأمير أو الخليفة، وتحمل بعض الأعباء والثقل عنه في عدة أمور[4].

يقول ابن حيان[5]في الأمير عبدالرحمن بن الحكم:"وهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى قصر الخلافة كل يوم، والتكلم معهم فيما يحبه من أمور المملكة، والتماس آرائهم فيها، وخزاناً جماعة[6]، وهو الذي اتخذ لهم بقصره بيتاً حسناً مرسوماً باجتماعهم وجلوسهم، جرى عليه العمل إلى اليوم، اسمه بيت الوزارة، يستدعيهم منه إلى مجلسه، أو من يخصه منهم إذا شاء، فيفيض معهم فيما يبدو من الأمر والنهي، والولاية والعزل، أو يخرج

---

(١) عياض، ترتيب المدارك، ٤٥٠/١.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٤٥٠/١.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ٤٤٤/١، ٤٥٠.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٦٤، ابن خلدون، المقدمة ٥/٢.

(٥) المقتبس، السفر الثاني، ص٢٩٤ ، ٢٩٥.

(٦) يبدو أن سقطاً وقع في عبارة ابن حيان، ولعل تمامها "واتخذ خزّاناً جماعة"يشير إلى أن خطة الخزانة – إدارة بيت المال– عهد بها إلى عدة رجال (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٩٥، هامش(١)).

رقّاصه[١] ورسائله بأمره ونهيه إليهم، أو إلى من شاء منهم إذا لم ينشط لإيصالهم إليه، فيعلمون في ذلك بما يرسمه، على مثل يجري عليه أمرهم من الخلفاء من ولده إلى اليوم"

ويقول ابن خلدون[٢]:"وأما دولة بني أمية في الأندلس، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً".

ومن أشهر الفقهاء الذين تولوا منصب الوزارة في الدولة الأموية، الفقيه عبدالرحمن بن أبي هند الأصبحي، الذي كان يسميه مالك حكيم أهل الأندلس، حيث يذكر ابن حيان[٣] أنه تولى الوزارة لعدد من أمراء بني أمية، والذي يظهر أنه كان وزيراً في عهد الأميرين هشام بن عبدالرحمن والحكم بن هشام، باعتبار تاريخ وفاته الذي كان قريباً من سنة ٢٠٠هـ[٤] ولا شك أن تولية فقيه مالكي مقرب من الإمام مالك منصب الوزارة له أثر كبير في رفع شأن المالكية في تلك الفترة، لكونه يمثل الدولة، وبالتالي فقراراته التي سيصدرها ستشمل كافة البلاد مما يقوي من نفوذ المالكية، ويعزز من تواجدهم، ويقبل الناس عليه باعتبار اهتمام السلطة الحاكمة بشكل خاص بهذا المذهب.

واستمراراً لتبوأ الفقهاء المالكية أهم المناصب إبان الحكم الأموي، برز في عهد الأمير عبدالله بن محمد اثنان من الفقهاء الذين تدرجوا في المناصب حتى وصلوا إلى منصب الوزارة، أولهم موسى بن محمد بن زياد الجذامي الشذوني الذي تصرف للأمير عبدالله في خطط كثيرة منها الكتابة والشرطة والرد والشرطة العليا والقضاء ثم الوزارة، ولا يمكن لأحد أن يصل إلى هذا الكم الهائل من المناصب إلا بعد أن يحصل على ثقة الأمير، ويكون

---

(١) لفظ الرقّاص يطلق في الأندلس والمغرب حتى اليوم على الساعي الذي يحمل البريد (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٥٣١، هامش(١٩)).

(٢)المقدمة ٢/ ١٠.

(٣)المقتبس، السفر الثاني، ص٢٢٦، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ص٢١١.

(٤) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٢٦، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢١١.

مؤهلاً لذلك[١].

والفقيه الثاني هو النضر بن سلمة الذي كان قاضياً للأمير عبدالله بن محمد فعزله عن القضاء وولاه الوزارة[٢].

كما تولى الفقيه المالكي عبيد الله بن يحيى بن إدريس[٣] الشرطة والوزارة في عهد الخليفة الناصر، ومما يؤثر عنه أنه كان متواضعاً ما زادته الخطط الرفيعة التي تولاها إلا تواضعاً وفضلاً[٤].

ونظراً لمكانة الفقيه المالكي عبدالله بن عبدالرحمن الزجالي[٥] عند الخليفة الحكم المستنصر منحه منصب الوزارة، فلم يزده ذلك إلا إعراضاً عن الدنيا، ويقال أن قدميه تتفطر من طول صلاته وقيامه، واستمر على خطة الوزارة حتى وفاته سنة ٣٧٥هـ[٦].

وفي عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم وحاجبه المنصور بن أبي عامر، عين العديد من الفقهاء على خطة الوزارة، ومن أبرزهم القاضي المالكي عبدالرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس، الذي تدرج في عدة مناصب، فتولى أحكام المظالم والصلاة والخطبة، بالإضافة إلى منصب القضاء، وشارك الوزراء في الرأي، ثم عينه الحاجب المنصور بن أبي عامر على خطة الوزارة، واستمر وزيراً إلى أيام المظفر عبد الملك بن أبي عامر[٧].

وفي أواخر العهد الأموي حاز الفقيه المالكي عبدالله بن سعيد بن عبدالله الأموي على

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٧، ١٣٨، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ص٤٠٧.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٤٥، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ص٤١٥.

(٣) هو عبدالله بن يحيى بن إدريس، يكنى أبا عثمان، من أهل قرطبة، سمع من كثير من العلماء، وكان متفنناً في كثير من ضروب العلم، كتب الناس عنه كثيراً وسمعوا منه توفي سنة ٣٥٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ص٢٠٧، ٢٠٨).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٥) هو عبدالله بن عبدالرحمن الزجالي، يكنى أبا بكر، من أهل قرطبة، كان نحوياً أديباً، عالماً طويل الصلاة، استوزره الحكم المستنصر، وتوفي سنة ٣٧٥هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٩٦، ١٩٧).

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ١٩٦، ١٩٧، عياض، ترتيب المدارك، ١٨٢/٢.

(٧) عياض، ترتيب المدارك، ٢٥٩/٢، ابن بشكوال، الصلة، ٢٧٣/١. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١١٦.

الرئاسة بقرطبة، وتولى الشورى والفتيا والقضاء والرد ثم عين على خطة الوزارة [١].

ومما يلاحظ أن الفقهاء الذين تم تعيينهم على خطة الوزارة أغلبهم من فقهاء المالكية، ولم يتم تعيين أغلبهم إلا بعد اختبار وتمحيص بعد مرورهم بالعديد من المناصب ونجاحهم فيها، ومع ذلك لم يستطع أيٌ منهم أن يصل للمنصب الأعلى في الوزارة، وهو الوزير الأول أو الحاجب المباشر للأمير أو الخليفة، بل إن بعضهم تولى هذه الخطة تشريفاً لا تكليفاً.

٨-الولايات:

ومن المناصب الإدارية التي أسندت إلى بعض الفقهاء منصب الولاية والأمانة على البلدان، فقد كان القاضي المالكي في عهد الأمير الحكم بن هشام، الفرج بن كنانة يتصرف للسلطان في الولايات[٢]، فقد ولاه الأمير الحكم على سرقسطة، وكان ينتمي إليها، فلحق الفرج بالثغر، وتولاه مدة من الزمن[٣]، واستطاع خلال هذه الفترة أن يحل كثيراً من الإشكالات التي كانت تقع في هذا الثغر البعيد عن مركز الخلافة في قرطبة[٤]، وكانت المراسلات والكتب لا تتوقف بينه وبين الأمير الحكم بن هشام، وقد عبر الأمير الحكم بن هشام للفقيه الفرج عن مدى إعجابه بالأعمال التي قام بها، وحله للمشاكل المتكررة هناك، حيث قال:"ولقد أصبت رأيك فيما جمعت، من كلمة الفريقين، وأصلحت من أمرهم، وقد عرفنا حسن رأيك، وصواب سياستك"[٥]، كما شارك في كثير من الغزوات ضد النصارى في الثغر[٦]، ومما لا شك فيه أن العمل الذي قام به الفرج بن كنانة يعزز من مكانة الفقهاء في الأندلس، ويبين مدى قدرتهم على الإبداع في العمل الإداري، وربما أن ما حققه الفقيه الفرج بن كنانة خلال إمارته على سرقسطة، دفع حكام بني أمية

---

(١) ابن بشكوال، الصلة، ٢٣٣/١، ٢٣٤.

(٢) النباهي، تاريخ قضاة قرطبة، ص٧٥.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص٦٥.

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٦٥.

(٥) الخشني، قضاة قرطبة، ص٦٥، ٦٦.

(٦) عياض، ترتيب المدارك، ٣٩٤/١. النباهي، تاريخ قضاة قرطبة، ص٧٥.

للثقة بالفقهاء خصوصاً المالكية منهم، والعهد لهم بكثير من المناصب المختلفة، والتي أنتجت تمكيناً للمالكية، ورسوخاً في وحدة الأندلس الفكرية.

ولما ولّى الخليفة عبدالرحمن الناصر القاضي المالكي محمد بن عبدالله بن أبي عيسى قضاء إلبيرة، قلده مع القضاء أمانة الكورة والنظر في عمالها، فكانوا لا يقدمون ولا يؤخرون عن أمره، ولا يظلم أحد إلا كان معه، وكان الخليفة قد أوكل له أمور كثيرة، من تصريف في مهمات أموره، وإخراجه في السفارات إلى كبار الأمراء، والأمانات إلى الثغور والأطراف للإشراف عليها، وللإعلام بمصالحها، ولبنيان حصونها، وترتيب مغازيها، وإدخال جيوشها إلى بلد الحرب[1]، وكان هو المبعوث والسفير الأول للخليفة عبدالرحمن الناصر[2]، وكُلِّفَ بمهمات سياسية وعسكرية، وفي ذلك يقول النباهي[3]:"وكان الخليفة لا يخليه مع قيامه له بالقضاء، من تصريفه في مهمات أموره، وإخراجه في السفارات إلى كبار الأمراء، والأمانات إلى الثغور والأطراف للإشراف عليها، وللإعلام بمصالحها، والبنيان لحصونها، وترتيب مغازيها، وإدخال جيوشها إلى بلد الحرب"، كما أوكل الخليفة الناصر لهذا الفقيه بناء مدينة سالم[4] بالثغر الأوسط، وبعث معه غلاماً يُقال له غالب[5]، وأصبح مبعوثاً للأمير إلى العدوة المغربية لأجل مواجهة الخطر العبيدي الشيعي، فكان يحكم السفارة ويحسن التدبير[6].

كما فُوض الفقيه أحمد ين عبدالله بن ذكوان القاضي بقرطبة زمن الحاجب المنصور بن أبي عامر، على تدبير أمور الملك وسائر الشأن، وكان شديد النصح لابن عامر، لم

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٨١، ٨٢.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٣، ١٧٤. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢.

(٤) مدينة سالم: مدينة قديمة بالثغر الأوسط بناها القائد المغربي سالم المصمودي بعد الفتح، وجدد الناصر بنائها سنة ٣٣٥هـ، وهي مواجهه لقشتيلة، وكانت خالية مقفرة، وقد أمر الناصر قواد الثغر بالاجتماع إليها وبنائها، فبنيت أحسن بناء وبها قبر المنصور بن أبي عامر(ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢١٣، ٢١٤).

(٥) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٨٦.

(٦) ابن حيان القرطبي، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٨.

يتخلف عن أي غزوة من غزواته[١].

ومع أن كثيراً من المناصب التي سبق ذكرها كانت متداخلة بشكل كبير، إلا أن تولية فقهاء المالكية مثل هذه المناصب الخطيرة، والعهد لهم بأمور كثيرة كالسفارات والأمانات والثغور والمغازي، أكبر دليل على نيلهم الثقة الكاملة لدى حكام بني أمية، والذين كانوا بدورهم يدفعون باتجاه التمكين لهم، وتأصيل الإتجاه الفكري الواحد في الأندلس.

وبهذا نستطيع القول إن فقهاء المالكية نجحوا في مهامهم التي أسندت إليهم، وحازوا ثقة أمراء البيت الأموي وعامة الناس، بدليل استمرار الاعتماد عليهم، واستفاد منهم أمراء البيت الأموي في تعزيز التفاعل السياسي والاجتماعي بينهم وبين المجتمع الأندلسي، عن طريق هؤلاء الذين يحظون بثقة غالبية الشعب.

* * * * *

لقد رحب أمراء بني أمية بمذهب مالك واعتمدوه كمذهب رسمي للدولة، فتوحدت جهة الإفتاء، وأفرزت وحدة مذهبية تعتمد على الفتوى الواحدة المستقاة من فقهاء معروفي العلم والتوجه، كما تم تمكين فقهاء المذهب المالكي من نشر علمهم بين الناس، فانقاد الناس لهم ووثقوا بهم، فحاز فقهاء المالكية ثقة أمراء بني أمية، فشاوروهم واستعانوا بهم في مهمات كثيرة، وتقبلوا منهم النصائح والتوجيهات الدينية، وكان من نتائج ذلك قيام فقهاء المالكية بدورهم المرجو منهم في حث الناس على السمع والطاعة للأمراء، وكانت مجالس العلم من الأماكن التي يرفع فيها الدعاء للحاكم بالتسديد وحسن التدبير والتوفيق، وكان تسليم جميع الشؤون الدينية لفقهاء المالكية إيماناً منهم بأهمية دور هؤلاء في ترسيخ الوحدة الفكرية، والمحافظة على الشكل الديني للدولة، وثقتهم بأن هؤلاء العلماء سيؤدون دوراً مهماً في حث الناس على الطاعة، والالتفاف نحو حكامهم في وجه جميع التوجهات المخالفة، ونتيجة لذلك زادت أعداد من ينتمون لهذا المذهب من طلاب العلم ووصلت إلى أرقام كبيرة، وأسند إلى عدد منهم أمورٌ كثيرة خارج تخصصاتهم الدينية كالسفارات ومطالعة الثغور والإصلاح بين الثوار وتفقد الجيوش وبناء الحصون، مما يعكس حجم الثقة

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١١٢، ١١٣.

المتبادلة بين السلطة السياسية وفقهاء المذهب .

ولإدراك الدولة الأموية أهمية السند الشرعي في استمرار وجودهم وقوتهم اعتمدت على الفقهاء والعلماء خصوصاً المالكية منهم في المناصب الرسمية، بقسميها الدينية والإدارية، كالقضاة والمظالم وولاية السوق وأئمة المساجد والإفتاء، والشرطة والوزارة والولايات المختلفة، ووصل الأمر إلى أنهم كانوا يفتشون عن أهل العلم فإذا احتاجوا لرجل منهم لخطة من الخطط استجلبوه إليها، وتكاد تكون المناصب الدينية حكراً على فقهاء المالكية، لأن الأحكام والفتاوى التي تصدر منهم لابد أن تكون وفق هذا المذهب.

ولاشك أن تولية فقهاء وعلماء المالكية هذا الكم الهائل من الخطط سواءً الدينية أو الإدارية يؤدي إلى تعميق حضورهم في المجتمع ، كما يؤدي إلى تأصيل الاتجاه الواحد في الفكر، مما يعزز من وحدة الأندلس الفكرية .

الفصـــــل الثاني

دعم حكام بني أمية للمذهب السني

المبحث الأول: توجيه الرأي العام عن طريق الفقهاء والعلماء.

المبحث الثاني: الانفتاح على المذاهب الأخرى غير المالكية.

المبحث الثالث: الحفاظ على الهوية الإسلامية.

دخل الإسلام إلى الأندلس وأصبح هو المسيطر على الحالة الدينية في هذه الرقعة الجديدة المنضوية تحت لواء دولة الإسلام، ومع مرور الوقت ترسخ الجانب الديني في المجتمع الأندلسي وغدا جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، ولذا قرب الحكام الأمويون العلماء واحترموهم وأكرموهم نظراً لعلاقتهم المتينة بعامة الناس، ولأنهم هم الذين يمكن الاعتماد عليهم في توجيه الرأي العام للمجتمع الأندلسي باعتبار انقياد الناس لكل مايصدر عنهم، فهم محل الثقة بالنسبة إلى الناس لأنهم حملة الدين ومعلمي المسلمين، ولأجل ذلك انفتح أمراء بني أمية على المذاهب السنية الأخرى وعلمائها بجانب مذهبهم الرسمي المذهب المالكي، و لم يروا حرجاً في دعم هذه المذاهب وتقريب فقهائها وعلمائها، يحدوهم في ذلك الرغبة الملحة لتوحيد بلادهم فكرياً أمام كل فكر مخالف يمكن أن يزعزع التركيبة الدينية لمجتمعهم المسلم، والمحافظة على هويتهم الإسلامية عن طريق الاستفادة من جميع المذاهب السنية التي تمتلك الأدوات اللازمة كالحجة والنظر للوقوف في وجه أي فكر مخالف، وسنستعرض ذلك عن طريق المباحث التالية :

المبحث الأول

توجيه الرأي العام عن طريق الفقهاء والعلماء

برز الجانب الديني في المجتمع الأندلسي بشكل واضح، وأصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس، ومن ثم انسحب هذا الأمر على حكام الدولة الأموية بالأندلس، حيث اتخذ شكلاً واقعياً في صورة علماء وفقهاء يقفون إلى جانب الحاكم ويشاركونه في إدارة الدولة بصورة فعلية، بحيث يبدو للناس أن الجانب الديني من أعمال الدولة يشرف عليه علماء الدين، وأنه لا خوف من انحراف الدولة عن قواعد الدين الحنيف[1].

وكان من دواعي احترام السلطة للفقهاء وتكريمها لهم علاقتهم المتينة بعامة الناس، وثقة المجتمع بهم، ومن ثمَّ سهولة توجيههم وانقيادهم عن طريق هؤلاء الفقهاء.

ويعزو أحد الباحثين سبب قلة الجرائم والجنايات في عهد الأمويين أثناء حكمهم للأندلس، إلى تأصيل العقيدة الإسلامية ومبادئها القويمة، وحثها على الفضائل والتسامح وحسن المعاملة، وهي العامل الأساسي الفعال في عزوف المجتمع المسلم في الأندلس عن ارتكاب أي فعل ينطوي على مخالفة لهذه المبادئ[2].

ومما يذكر في الأحداث التي أعقبت تمكن الأمير عبدالرحمن الداخل من حكم الأندلس وانتصاره على خصمه يوسف الفهري[3]، ودخوله قصر الفهري بقرطبة، فخرجت زوجة الفهري وابنتاه فقلن له: يابن عمنا أحسن كما أحسن الله إليك، فقال:

---

(١) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ٧.

(٢) محمد بن عبدالوهاب خلاف، وثائق في أحكام القضاء الجنائي مستخرجه من مخطوط الأحكام الكبرى لابن سهل، مراجعة محمود مكي، ط١، ص٣٨،٣٩، المركز العربي الدولي للأعلام، القاهرة،١٩٨١م.

(٣) هو يوسف بن عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، تولى حكم الأندلس سنة ١٣٠هـ وعمره ٧٥سنة واستمر والياً على الأندلس مدة ٩سنين وكانت من أهل الديانة وقتل سنة ١٤٢هـ (ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٣٦/٣٧/٤٩).

أفعل، ونادى صاحب الصلاة وأمره بضم النساء إلى داره [1]. لقد وضع الأمير عبدالرحمن الداخل بعمله هذا أول لبنة في إدارته للدولة، يوضح من خلالها أنه سيعتمد على الفقهاء والعلماء، ومن خلالهم سيكون تواصله مع عامة الناس، وأن هؤلاء العلماء والفقهاء هم الثقاة الذين سيختصون بحفظ الدين وحماية الأعراض.

وفى عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم غلب الفقيه يحيي بن يحيي الليثي على رأي الأمير، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره، ما يلتزمه الولد لأبيه، فلا يعقد عقداً ولا يمضي في الديانة أمراً إلا عن رأيه ومشورته، والفقيه يحيى يعترف للأمير بجميل ذلك، فكان يحمد سيرته، ويُزَينُ آثاره لدى رعيته، ويحثهم على طاعته، والقيام بتكاليفه، وكان يقوم بذلك بلطف وسلامة جانب، وكأنه لا يقصده [2].

ولما أراد الأمير عبدالرحمن بن الحكم الخروج إلى بعض أهل الخلاف في المغرب الأقصى، ثم المسير إلى أرض العدو أرسل إلى ابنه محمداً يأمره باستنفار الناس نحوه والتعجل باللحاق به، فجمع الأمير محمد الناس وتكلم فيهم الفقيه يحيي بن يحيي وقال:"الواجب علينا الخفوف إلى الإمام أصلحه الله وأيده، والبدار إلى اللحاق به، وألا يعتذر في ذلك منا إلا معتذر قد أنزل الله في كتابه عذره لا سواه"[3]. ولم يكن تكريم وتعظيم الأمير للفقيه يحيى بن يحيى ليذهب هدراً، فقد استفاد منه الأمير في توجيه رأي عامة الناس وتطويعهم للأمير، واستجابتهم لكل ما يصدر عنه باسم الدين وطاعة ولاة الأمور.

وبعد تعيين الأمير عبدالرحمن بن الحكم لابنه محمد ولياً للعهد من بعده، بعد التدقيق والتمحيص بين أولاده، أمر القاضي وأهل الشورى بالركوب إلى الأمير محمد، وغشيان مجلسه أيام الجمع[4]، وكان الهدف توثيق البيعة أمام عامة الناس، وإفهامهم أن هذه البيعة قد رضي عنها علماء أهل البلد وأيدوها؛ فالواجب على عامة الناس القبول بها وتأييدها.

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٥٠.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص١٨٠، دار إحياء التراث، القاهرة.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص١٨٠، ١٨١، دار إحياء التراث، القاهرة.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص١٠٤، دار الكتب العربي، بيروت.

وحدث أن قام الأمير عبدالرحمن بن الحكم بمنع ابنه الأمير المنذر من الصلاة والخطابة في البلد الذي كان يتولى ولايته، بسبب منادمته لزرياب المغني[١]،مع أنه كان خطيباً مفوهاً[٢]،خوفاً من انتقاد عامة الناس له ونفورهم من مسجده، وتوجيها له بأن عليه أن يجالس علماء البلد وفقهائها، حتى يكون له القبول من عامة الناس وبالتالي سهولة توجيههم وتطويعهم للسلطة الحاكمة.

وفي مراعات أمور الناس وتحري العدل بينهم سارع الأمير عبدالرحمن بن الحكم إلى عزل أحد قضاته، بعد أن أمضى سبعة عشر شهراً في منصبه، ويعود السبب في عزله إلى أنه كان يستعجل بالحكم، وقد أُحصي عليه سبعون قضية أنفذها في تلك المدة، فاستنكرت منه، وخيف عليه الزلل، فعجل في عزلة[٣] وفي ذلك إشارة من الأمير لعموم الناس أن السلطة تتحرى العدل بينهم، وأنها لن تتوانى في عزل قضاتها إذا ثبت تقصيرهم في حق أحد من الرعية، لا سيما وأن هؤلاء القضاة هم الذين يعتمد عليهم الأمير في توجيه عامة الناس، وأن إخلالهم بعملهم يؤدي إلى نقمة الناس عليهم وعدم قبول توجيههم وما يصدر عنهم، وفي هذا بُعد نظر من الأمير.

وقد أكد الحاجب عبدالكريم بن مغيث[٤]، على أهمية دور الفقهاء والعلماء في تثبيت دعائم الحكم الأموي في الأندلس، وأنهم هم من يُعَول عليهم في توجيه الرأي العام، وذلك من خلال حديثه مع الفقيه يحيي بن يحيي الليثي، فقد قال له:"يا أبا محمد أردت أن أكرمك أنت وصاحبك، فأمكن بكما الأندلس"[٥]، وفي هذا القول إشارة

---

(١) هو علي بن نافع الملقب بزرياب مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي، وزرياب لقب غلب عليه من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه، وكان شاعراً مطبوعاً، كما أنه تلميذاً لإسحاق الموصلي، توفي سنة ٢٣٨هـ(المقري، نفح الطيب،١٢٢/٣).

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٢٣،٢٢٢، دار إحياء التراث، القاهرة.

(٣) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٦، ٧٧.

(٤) هو عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث، تولى الحجابة للأمير الأموي الحكم بن هشام وابنه الأمير عبدالرحمن بن الحكم،وقاد كثيراً من المعارك ضد نصارى الأندلس (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شهادة، ط٢، ١٦١/٤، ١٦٦، ١٦٤، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨م).

(٥) عياض، ترتيب المدارك، ٣١٢/١.

صريحة إلى حاجة السلطة الحاكمة لتأييد الفقهاء لها وأنهم هم من يوجه الرأي العام من أجل ضمان شرعية الحكم.

وقد يتواضع الأمير ويسير في شوارع المدينة على دابته وإلى جانبه كبار فقهاء المدينة، كما فعل ذلك الأمير الحكم بن هشام مع الفقيه زياد بن عبدالرحمن، لترسيخ شرعيته عند عامة الناس، وإبراز الفقهاء الذين يجب على الناس الأخذ عنهم وسماع توجيههم وفتاواهم[١]، وحدث أن اعتذر هذا الفقيه عن تولي خطة القضاء وهرب من الأندلس، فقال الأمير:"ليت الناس كزياد، حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا"[٢].

ولا نبالغ إذا قلنا إن الأمراء الأمويين أظهروا مزيداً من الاحترام والتقدير لفقهاء عصرهم، وكان بعضهم يُجلس الفقهاء على جانب فراشه أمام أعين الناس[٣]،كما كانوا يلبون مطالب الفقهاء ويقضون حوائج الناس التي يتقدمون بها[٤]، ويكفون أذاهم عن بعض الناس نظراً لتوجيه ونصح الفقهاء لهم[٥]، ولا يقبلون شفاعة كبار رجال الدولة في أبطال الأحكام التي تكون من صالح عامة الناس، إنما نراهم يؤيدون هذه الأحكام ويرون فيها تثبيتا لدعائم ملكهم [٦]. وهذا الاحترام الكبير الذي أبداه أمراء الدولة الأموية لفقهاء عصرهم، قابله الفقهاء بالعرفان والدعم للسلطة الحاكمة وحث الناس على طاعة الأمراء والقيام بتوجيههم نيابة عن الأمراء، ولذا حفلت كتب التراجم بكثير من الاحترام الذي كان يبديه أمراء البيت الأموي في الأندلس لفقهاء وعلماء دولتهم، ومن تلك النصوص يتضح أن بعضهم كان له وجاهة عند الخاصة[٧]، والبعض الآخر كان معظماً في الخاصة[٨]،أي عند الأمراء.

---

(١) عياض، ترتيب المدارك ٢٠٢/١.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٣٢.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٩.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٧٥.

(٥) عياض، ترتيب المدارك ٢٠١/١، ٢٠٢.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب ٦٦/٢.

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٤٢.

(٨) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٣٩.

وكان الأمير عبدالله بن محمد يذهب إلى العلماء بنفسه، ويقف على أبوابهم، وكان كلما مرّ بدار الفقيه بقي بن مخلد قدّم أحد فتيانه للسؤال عن بقي، والسلام عليه، وكان بقي يخرج إليه ويجده واقفاً ينتظره على بابه، فيدنو منه ويقضي حقه، ويحفي الدعاء له، ويقف معه كاشفاً عن حاله مستدعياً لدعائه،وكثيراً ما يطلب من بقي الحضور للقصر فيأنس بمذاكرته، ويقتبس من معرفته، ويستمع لنصيحته، ويصغي لموعظته، وبدوره كان الفقيه بقي بن مخلد يكثر الثناء على الأمير والتزكية له، ويدعو الناس للدعاء له[١].

وكان للقاضي النضر بن سلمة خطبة مشهورة معلومة عند الناس وقد حفظوها عنه، ويعود السبب في ذلك أن الأمير عبدالله بن محمد استحسن خطبة القاضي يوماً، فأمره بالتزامها فالتزمها طوال فترة ولايته على القضاء والتي استمرت نحواً من عشرة أعوام، ولا عجب في ذلك فقد كان هذا القاضي يتصرف للأمير عبدالله بن محمد في كل الأسباب تصرفاً كاملاً[٢]، ولابد أن يكون له تأثير كبير على عامة الناس، كما أن هذه الخطبة فيما يبدو كانت تحتوي على توجيهات للرعية بوجوب طاعة الأمير، وعدم الافتئات والخروج عليه، ويبدو أن هذا القاضي كان خطيباً مفوهاً وكاتباً بارعاً، فقداستعان به الأمير في أحد المرات ليكتب جواباً على خطاب أهمّ الأمير؛ فأجاب على الكتاب، وأحسن وأبلغ، فنال إعجاب الأمير وشكر له فضل منته[٣].

ولما حاول المطرف بن الأمير عبدالله بن محمد إرغام الفقهاء على البيعة له وخلع والده، وهددهم بالقتل إذا رفضوا، توجه الفقهاء للحاجب ابن السليم [٤]وقالوا له:"إنا قد بقينا على الجلاء بإخافة مطرف لنا ورغبته إلينا في البيعة له وخلع أبيه؛ فإن كنتم تحموننا

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٨٧.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٣، ١٣٤.

(٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٣٤.

(٤) هو سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم، تولى الحجابة للأمير عبدالله بن محمد، وأصبح من القادة المشهورين في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، وقاد عدداً من المعارك ضد ابن حفصون (ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١١٧، ١٢٥، الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٨).

وإلا صرنا إلى الجلاء، فمعنا علوم لن نفقد من يكرمنا بها حيث توجهنا"[١]، ولو لم يكن للفقهاء دور في توجيه الرأي العام، وتأثيرهم الكبير على عامة الناس من خلال حملهم للصبغة الشرعية السنية والتي تشكل مذهباً يعتنقه غالبية المجتمع الأندلسي، لما توجه المطرف بن الأمير عبدالله إلى الفقهاء لمحاولة دعمه في إزاحة والده وتولي الأمر من بعده.

ونال الفقيه محمد بن عبدالله بن أبي عيسى مكانه عاليه عند الخليفة الناصر، وكان له تأثير كبير على عامة الناس فأتمنه الناصر على أسراره[٢]، وعندما أعلن الناصر نفسه خليفة للمسلمين لم يعترض عليه أحد من الفقهاء، وإنما قاموا بالواجب أتم قيام، وكانت المنابر في الأندلس تصدح بالدعاء للخليفة، وفي هذا اعتراف له بهذا اللقب وتوجيه للناس بالأخذ به، وكان الناصر قد عهد إلى صاحب الصلاة بقرطبة القاضي أحمد بن بقي بن مخلد أن تكون خطبة الجمعة أول شهر ذي الحجة من عام ٣١٦هـ عن اتخاذه لقب الخلافة، كما حمل الناس على الأخذ بذلك، وقد كتب كتاباً بذلك يشرح سبب اتخاذه هذا اللقب وأوصى الخطباء بقراءته على الناس[٣].

وقد تحمل الخليفة الناصر انتقاد الفقيه المنذر بن سعيد البلوطي بشأن الإسراف الذي قام به في تزيين مدينة الزهراء[٤]، ولم يقم الناصر بأي ردة فعل تجاهه، واكتفى بعدم الصلاة خلفه[٥]، ومع ذلك ظل الناصر يدعمه ويسمح له بالتدريس والإفتاء دعماً منه للمذهب السني[٦].

وكان الخليفة الناصر قد أقام حفلة واستدعى لها وجوه الناس فلم يتخلف عنه إلا

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١١٧، ١١٨.

(٢) عياض ترتيب المدارك ٢/٨٥.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب/٢/١٩٨،١٩٩.

(٤) الزهراء: مدينة غربي قرطبة بناها الناصر عبدالرحمن بن محمد، بينهما وبين قرطبة خمسة أميال، وكانت مدينة قائمة بأسوارها وقصورها وكانت في ذاتها عظيمة يعجز الواصفون عن وصفها، ثم خرب ذلك كله وأصابها ما أصاب غيرها (الحميري، الروض المعطار، ص ٢٩٥).

(٥) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس ص٩٤،٩٥.

(٦) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٥، ١٧٦.

الفقيه إسحق بن ابراهيم بن مسرة[1]، ولما استفسر عن سبب غيابه قال:"سلام على الأمير سيدي ورحمة الله... قرأت كتابك وفهمته، ولم يكن توقيفي لنفسي، إنما كان لأمير المؤمنين... ولسلطانه ولعلمي بمذاهبه وسكوني إلى تقواه، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها ويغض منها، ويتطرق إلى تنقصها ويستعدُّون بها لدينهم، ويتزينون بها عند رعاياهم"[2]. وهذا النص يجب التوقف عنده كثيراً، فقد أراد هذا الفقيه أن يوصل رسالة للخليفة الناصر بأن عليه أن يتجنب دعوة الفقهاء لمثل هذه الاحتفالات لما لها من أثر في سقوط هيبتهم عند عامة الناس، باعتبار أن مثل هذه الاحتفالات ربما تحتوي منكرات ظاهرة لا يليق بالفقهاء والعلماء مشاهدتها وحضورها وعدم إنكارها، وأن على الخليفة أن يحافظ على شكل الفقهاء أمام أعين الناس، وعدم خدشه بمثل هذه العوارض التي ربما تجعل تأثير الفقهاء في المجتمع محدوداً، وتجعل منهم شخصيات لا قيمة لها عند عوام المسلمين، وقد أسدى هذا الفقيه النصيحة للخليفة بأسلوب جميل ورقيق.

ولما تولى الخليفة الحكم المستنصر إدارة الدولة الأموية بعد والده الناصر، قرّب الفقيه إسحاق بن إبراهيم؛ لأنه أدرك مدى حاجته إليه، خصوصاً أنه كان مهيباً مطاعاً، وعامة الناس تحترمه وتقدر علمه وتطيعه، ولا شك أن الخليفة كان يستعين فيه لتوجيه الرأي العام ودعم المذهب السني في الأندلس. وفي إحدى الرسائل التي بعث بها الحكم المستنصر لهذا العالم يقول فيها:"ولقد قلت لمن حضر في يوم السبت إثر خروجك، لن يزال هذا البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ، أكثر الله فيه مثله، اعترافاً لله بالنعمة فيك، وهذه بصيرتي فيك"[3]. ولذا كان الحكم المستنصر يتبسط معه وكثيراً ما كان هذا الفقيه يمد رجليه أمام

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مسرة يكنى أبا إبراهيم، من أهل قرطبة وأصله من طليطلة، من موالي بعض أهلها، سمع عدد من العلماء حافظاً للفقه على مذهب مالك مشاوراً في الأحكام، توفي بطليطلة سنة ٣٥٢هـ (ابن الفرض، تاريخ علماء الأندلس، ص٦٩،٧٠).

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ١٠٠/٢.

(٣) عياض، ترتيب المدارك ٩٨/٢، ٩٩.

الخليفة ويعتذر لشيخوخته، فيقول له الحكم:"لا مؤنة عليك منا، اقعد كيف شئت"[١].

ولما أكمل الحكم المستنصر بناء الزيادة بجامع قرطبة، أحضر الفقهاء والعدول وأعيان الناس ووجوههم وقضاتهم وأئمتهم، فحمد الله وشكره على توفيقه؛ أن من عليه بهذا البناء، وأخبرهم أنه حبس ربع ميراثه من والده في جميع الأندلس، على ثغور الأندلس كافة، وأشهد الحاضرين على ذلك، كما أشهدهم بعتق مماليكه من الذكور، ثم خرج غازياً[٢]. وهذا الفعل من الخليفة الحكم المستنصر يثبت بما لا يدع مجالاً للشك مدى حرص حكام بني أمية في الأندلس على دعم المذهب السني من خلال بناء المساجد، ثم تطبيق السنة بعتق المماليك، وإكمال تلك الأعمال بالخروج لغزو النصارى، ولكن هذا العمل لا يكون كاملاً إلا بعد أن يباركه الفقهاء والقضاة بحضور أعيان البلد وعامة الناس، مما يعزز من مكانة هؤلاء الفقهاء في المجتمع الأندلسي، ومن ثمَّ إمكانية توجيه الرأي العام عن طريقهم.

وفي شأن مطالعة أحوال الرعية وتوجيههم بشكل مباشر وإظهار مكانة الفقهاء للرعية، وأن السلطة الحاكمة تعتمد عليهم في ما يخص أحوال الناس ومعاشهم ورغباتهم وما ينقصهم، بعث الحكم المستنصر كلاً من محمد بن أحمد بن مفرج[٣] قاضي ريّة [٤]، وأبا عبيد القاسم بن خلف الجبيري[٥] الفقيه إلى المغرب، لمطالعة أحوال الناس واستئلاف

---

(١) عياض، ترتيب المدارك ٢/٩٨.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ٢/٢٣٤.

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق سنة ٣٣٧هـ لطلب العلم ثم رجع سنة ٣٤٥هـ، واتصل بالحكم المستنصر، وكانت له عنده مكانة كبيرة وألف له عدة دواوين، تولى قضاء إستجة وريّة، وتوفي سنة ٣٨٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ص٢٦٧-٢٦٨).

(٤) ريّة: كورة من كور الأندلس في قبلي قرطبة، يحدها البحر المتوسط جنوبا، وتجاور كورة إلبيرة من الغرب، نزلها جند الأردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات (الحميري، الروض المعطار، ص٢٧٩، ٢٨٠، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ٤٣).

(٥) هو قاسم بن خلف بن فتح بن عبد الله بن جبير، طرطوشي الأصل، ولزم قرطبة، رحل إلى المشرق لطلب العلم ومكث ١٣عاماً، كانت له منزلة عظيمة عند الحكم المستنصر، أسكنه معه مدينة الزهراء، استقضى على عدد من المدن بالأندلس، أتهم في نكث البيعة لهشام المؤيد وسجن عشر سنوات ومات في سجنه (عياض، ترتيب =

Scanned by CamScanner

قلوبهم فقضيا من ذلك وطراً ثم رجعا إلى قرطبة بعد تمام مهمتهما[١]، ثم قام الحكم المستنصر بتعيين القاسم بن خلف قاضياً على إشبيلية بعد عودته من تنفيذ هذه المهمة[٢].

ولم يغفل الحكم المستنصر عن توجيه قضاته لمراعاة عامة الناس، والتثبت في القضاء، ومعرفة الحق، وإصلاح السرائر، والاحتراس في أموال اليتامى، والأحباس، فقد كتب كتاباً وجهه إلى قاضيه محمد بن السليم لما ولاه القضاء، ورفعه إلى أعلى المراتب عنده في تنفيذ الأحكام، غير مطلق يده إلا بالحق، ولسانه إلا بالعدل، ورسم له في كتابه رسوماً كثيرة، وتوجيهات جليلة[٣]. وقد طبق الخليفة الحكم المستنصر ما يمكن أن تسميه بالتكامل بين ما تحتاجه السلطة الحاكمة من هؤلاء الفقهاء من خلال توجيه الرأي العام فيما يعود على الدولة بالخير، وما تحتاجه الرعية من العناية بشؤونهم وتفقد أمورهم والإيعاز للفقهاء بالقيام بذلك حتى يسهل انقياد الناس لهم.

وقد كان الحكم المستنصر مولعاً بالكتب وكثيراً ما يحث الفقهاء والعلماء على التأليف، ويكفي أن نذكر أن الفقيه والمؤرخ محمد بن الحارث الخشني، ألف للأمير الحكم مؤلفات كثيرة منها: كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتاب رأي مالك الذي خالف فيه أصحابه، وكتاب الفتيا، وكتاب في تاريخ علماء الأندلس وتاريخ قضاة الأندلس، وتاريخ الأفريقيين، وكتاب التعريف، وكتاب المولد والوفاة، وكتاب النسب، وكتاب الرواة عن مالك، وكتاب طبقات فقهاء المالكية، وكتاب مناقب سحنون، وكتاب الاقتباس وغيرها، ولا يخفى ما لهذه الكتب من قيمة عند عامة الناس إذا ما علمنا أن مؤلفها أيضاً مقرباً من الخليفة ومن أهل الشورى لديه[٤].

وبسبب انشغال الفقية إسحاق بن إبراهيم بتدريس الطلاب في المسجد لم يجب

=

المدارك ١٨٨/٢، ١٨٩).

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٩١.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٩١.

(٣) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠١ – ١٠٣.

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص٧.

رسول الخليفة حينما أرسل في استدعائه، وقال له:"ارجع إليه وعرّفه أنك وجدتني في بيت من بيوت الله مع طلاب العلم، يسمعون عليّ حديث ابن عمه رسول الله ﷺ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود فذلك أكرم، ثم أقبل على شأنه"[١]. ولم يغضب الخليفة بل إنه استبشر بذلك، وفتح له باب القصر القريب من الجامع ليدخل منه، وفي ذلك رسالة من الخليفة لطلاب العلم ولعامة الناس، أن الفقهاء والعلماء هم من يجب احترامهم وسماع نصحهم، أضف إلى ذلك الإشارات التي رماها هذا الفقيه بين عقول طلابه بقوله: يسمعون عليّ حديث ابن عمه رسول الله، وهنا يؤكد هذا الفقيه شرعية السلطة الأموية، ووجوب طاعتهم والانقياد لهم، كما أن الحديث الذي دار بين الفقيه ورسول الخليفة، يظهر أن الخليفة يبحث عن هذا الفقيه لكي يستشيره في أمر من أموره، ولا شك أن كل ما دار في المسجد سيصل إلى أسماع عامة الناس، مما يؤدي إلى ارتفاع أسهم هذا الحاكم وفقيهه في أعين المجتمع.

وسار ابنه الأمير هشام المؤيد على نهجه في منح الفقهاء والعلماء مكانة كبيرة لدعم المذهب السني أولاً، ثم منح هؤلاء مكانة كبيرة في نفوس عامة الناس؛ بسبب اعتماد السلطة عليهم ليسهل توجيههم، فعند توليتهلأحد الحُجّاب بعث إلى الفقهاء والقضاة وأشهدهم على تقليده أمر الحجابة[٢].

وعندما توفي الفقيه محمد بن يبقى بن زرب، حزن عليه الحاجب ابن أبي عامر واغتم لذلك غما شديداً، وكتب لورثته كتاب حفظ ورعاية انتفعوا به، وتفقدهم في حياته إكراماً منه لوالدهم، حيث كان يعظمه ويستحسنه، ويتحرك إليه إذا أتاه ويجلسه معه في فراشه[٣]، ولا شك أن ابن زرب كان من جانبه يبارك لابن عامر حجابته للخليفة هشام، ويعظم من وجوب طاعته وعدم الخلاف عليه.

وفي فترة حجابة المظفر عبد الملك بن أبي عامر، قصد دار الفقيه محمد بن إبراهيم بعد

(١) عياض، ترتيب المدارك ٢/١٠٠.

(٢) مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢٣٨.

(٣) عياض، ترتيب المدارك ٢/٢٣٤، ٢٣٥.

صلاة الجمعة، وكان طلابه يسمعون عليه فيها، فلما استأذن المظفر وعلم بذلك الشيخ، قال لمن حوله:"لا تقوموا، فامتثلوا أمره"، ومع ذلك فقد أكرم المظفر هذا الشيخ وطلب منه الدعاء بحضرة طلاب العلم لديه. ولا يخفى ما لهذا الفعل من ترسيخ لمكانة الشيخ عند عامة الناس الذين سيتناقلون هذا الحديث، حيث كان من دعاء الشيخ له:"اللهم أدخل له في قلوب رعيته الطاعة"(١). كما كان المظفر بن أبي عامر يقصد الفقيه محمد بن إبراهيم الخشني(٢) في داره، ويدخل عليه ويطلب منه الدعاء بين طلابه(٣).

وفي أحداث الفتنة التي وقعت في نهاية عهد الدولة الأموية بالأندلس، انحاز الفقيه عمر بن عبدالله بن ذكوان(٤) إلى جانب الأمير سليمان المستعين (٣٩٩هـ-٤٠٧هـ)، وخرج معه للقاء محمد بن هشام المهدي (٣٩٩هـ)، وقاتل بنفسه وحث الناس للانضمام معه، ولما تمكن سليمان المستعين بالله من الحكم عينه على خطة الوزارة، وربما أن هذا المنصب كان مكافئة من هذا الأمير لذلك الفقيه على الوقوف معه وحث الناس على ذلك(٥).

وهكذا أسهمت الوحدة المذهبية في الأندلس المتمثلة بدعم السلطة الحاكمة للمذهب السني على تبوء الفقهاء مكانة متميزة في المجتمع، ولم تنزلق الأندلس في الصراع المذهبي كبقية بلدان العالم الإسلامي حولها، لذا حظي الفقهاء بمكانة مرموقة ورئاسية من قبل المجتمع والسلطة الحاكمة، أفرز كل ذلك احترام السلطة للفقهاء والعلماء وتقريبهم والأخذ برأيهم ودعمهم على اختلاف توجهاتهم المذهبية، أثمر ذلك قبول عامة الناس لكل ما يصدر عن هؤلاء الفقهاء من توجيهات وملاحظات، جعلت الفقهاء والعلماء هم المحور

---

(١) ابن شكوال، الصلة، ١٠٩/٢.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الخشني، يعرف بابن المشكيالي، يكنى أبا عبدالله، من أهل طليطلة، سمع بقرطبة ورحل إلى المشرق، وكان حافظاً للمسائل وعيناً من أعيان طليطلة، ولد سنة ٣١٢هـ، وتوفي سنة ٤٠٠هـ (ابن بشكوال، الصلة، ١٠٨/٢، ١٠٩).

(٣) ابن بشكوال، الصلة، ١٠٩/٢.

(٤) هو عمر بن عبدالله بن ذكوان، يكنى أبا حفص من أهل قرطبة، كان نبيهاً وهو أخ للقاضي أبي العباس، وصاحب المظالم أبي حاتم، وكانت وفاته سنة ٤٠٣هـ (ابن الآبار، التكملة، ٥٨/٣).

(٥) ابن الأبار، التكملة، ٥٨/٣.

الأساسي في توجيه الرأي العام لوحدة الصف، والوقوف مع السلطة الحاكمة صفاً واحداً في مواجهة سيل الفتن التي كانت تعصف في كثير من بلدان العالم الإسلامي في تلك الفترة.

المبحث الثاني

الانفتاح على المذاهب الأخرى غير المالكية

من المتعارف عليه أن الأندلس في عهد الدولة الأموية ساد فيها العمل بالمذهب المالكي، وأصبح المذهب الرسمي للدولة منذ أيام الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل[١]، وتأكد هذا في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم، فقد كانت الأغلبية من عامة الناس تتبنى هذا المذهب، ووصل نفوذ فقهاء المالكية في عهده إلى غايته الكبرى، وكان الفقيه المالكي يحيى بن يحيى الليثي الممثل الرسمي لهذا المذهب عند الأمير عبدالرحمن بن الحكم، ونال من عظم القدر ما لم يتوفر لغيره من فقهاء زمانه، يقول فيه ابن الفرضي[٢]:"لم يُعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى".

واستمرت سيادة المذهب المالكي بعد ذلك عن طريق أمراء وخلفاء البيت الأموي في الأندلس، ويكفي أن نورد نصاً للخليفة الحكم المستنصر يؤكد فيه على سيادة هذا المذهب، حيث يقول:"إن مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه أفضل المذاهب، و لم أرَ في أصحابه ولا من تقلد مذهبه غير السنة والجماعة، فليستمسك بهذا ففيه النجاة إن شاء الله"[٣].

ويقول كذلك:"فمن خالف مذهب مالك بن أنس رحمه الله بالفتوى وغيره، وبلغني خبره، أنزلت به من النكال ما يستحق"[٤].

ومع هذا كله فإن الأندلس لم تنغلق على مذهب واحد، ومثل هذا الأمر لا يمكن أن

(١) عياض، ترتيب المدارك، مقدمة المؤلف، ص١٥.

(٢) تاريخ علماء الأندلس، ص٤٣١، ٤٣٢.

(٣) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٦.

(٤) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٦.

يتم عملياً ولا نظرياً أيضاً، لأننا أمام مجتمع إسلامي والرحلة لطلب العلم متاحة فيه لجميع أقطار العالم الإسلامي، والناس ينتقلون من بلد إلى آخر دون قيود أو حواجز، وعليه تنتقل الأفكار والمذاهب في المجتمعات الإسلامية، وكانت الأندلس إحدى هذه المجتمعات التي شهدت دخول مذاهب أخرى غير المالكية[١].

ومع أن الأمير الأموي هشام بن عبدالرحمن الداخل يميل بوضوح إلى مذهب الإمام مالك بن أنس، ويحرص على توليه فقهاء المالكية[٢]، إلا أننا نراه يُعين الفقيه المصعب بن عمران قاضياً، ويلح عليه لقبول هذا المنصب، ويشترط هذا القاضي عدة شروط يوافق عليها الأمير هشام، وكان هذا القاضي لا يقلد مذهباً ويقضي بما يراه صواباً[٣].

وفي عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم انتهت رئاسة الأندلس في الشورى والفتيا للفقيه المالكي عبد الملك بن حبيب[٤]، ومع سيطرة المالكية في تلك الفترة على الشورى والفتوى، تُركَ الفقيه الأوزاعي زهير بن مالك البلوي[٥] يصرح بالفتيا على مذهب الأوزاعي، ولم يعترض عليه أحد[٦]، وكان الفقيه عبد الملك بن حبيب يعتب عليه لتركه مذهب مالك وتمسكه بالمذهب الأوزاعي، فيقول: حسدتني إذ انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد[٧]، وهنا تظهر قمة التسامح المذهبي بين فقهاء الأندلس، كما يفهم من هذا أن الأمير عبدالرحمن بن الحكم لم يعارض هذا الأمر، رغم حرصه على المذهب المالكي وتمكينه لفقهائه، وقد يكون أراد من فعله هذا دعم المذهب السني والمحافظة على وحدة البلاد السنية.

---

(١) الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسية، ص٦٣.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، مقدمة المؤلف، ص١٥.

(٣) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٦٨.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص١٨٣، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٥) هو زهير بن مالك البلوي، يكنى أبا كنانة، من أهل قرطبة، فقيهاً على مذهب الأوزاعي، توفي في صدر أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٣١).

(٦) الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٩٤.

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٣١.

كما تولى الفقيه الشافعي قاسم بن محمد بن سيار وثائق الأمير محمد بن عبدالرحمن طوال فترة حكمه[1]، ومع أنه كان يتحفظ كثيراً على مخالفة مذهب مالك، إلا أنه حينما سئل عن سبب فتواه للناس على مذهب مالك قال: إنما يسألونني عن مذهب جرى في البلد، فأفتيهم به، وكان لا يرى حرجاً من الفتوى على المذهب الشافعي حينما يسأل، ويقول: ولو سألوني عن مذهبي لأخبرتهم[2].

ولما قدم الفقيه المعروف بقي بن مخلد من المشرق، بعد رحلته الطويلة التي قضاها في طلب العلم، وجمع العلوم الواسعة والروايات العالية والاختلافات الفقهية، انزعج من ذلك بعض فقهاء المالكية، وحاولوا منعه من التدريس، وتشنيع أمره للأمير محمد بن عبدالرحمن ورموه بالإلحاد والزندقة، وشهدوا عليه بالزيغ، ودعوا إلى سفك دمه، والتقرب إلى الله برفع شبهته، وخاطبوا الأمير محمد بن عبدالرحمن بما يعرفونه منه، فخاف الفقيه بقي بن مخلد وأراد الهرب من الأندلس، ولما أُحضر بقي بن مخلد بين يدي الأمير محمد أمر خصومه أن يتناظروا عنده، فأدلى بقي بحجته وظهر على خصومه، واستبان للأمير محمد حسدهم فدفعهم عنه، وأمر بعدم التعرض له وسمح له بالتدريس ونشر العلم، كما رفعه إلى مجموعة الفقهاء المشاورين، ولم يزل عظيم القدر عند الأمير محمد حتى توفي[3].

وعند الحميدي[4]"لما دخل أبو عبدالرحمن، بقي بن مخلد بكتاب مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وقرئ عليه، أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف، واستشنعوه، وبسطوا العامة عليه، ومنعوه من قراءته، إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد، فاستحضره وإياهم، واستحضر الكتاب كله، وجعل يتصفحه جزءاً جزءاً، إلى أن أتى على آخره، وقد ظنوا أنه يوافقهم في الإنكار عليه، ثم قال لخازن الكتب: هذا كتاب لا تستغني عنه خزانتنا، فانظر في نسخة لنا، ثم قال لبقي بن مخلد: انشر علمك، واروي ما عندك من

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٨٠.

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص٣٢٠.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص ٢٤٨، ٢٤٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٠٩، ١١٠.

(٤) جذوة المقتبس، ص١٧.

الحديث، واجلس للناس حتى ينتفعوا بك، أو كما قال: ونهاهم أن يتعرضوا له".

وعن طريق الفقيه بقي بن مخلد، دخلت عدة كتب إلى الأندلس، منها مصنف أبي بكر بن أبي شيبة بتمامه، وكتاب الفقه لمحمد بن إدريس الشافعي الكبير بتمامه، وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط، والطبقات لابن خياط، وكتاب سيرة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله للدورقي، ثم إن بقياً ألف عدداً من الكتب، فكان منها تفسير القرآن ومسند النبي ﷺ[1].
لقد كانت رعاية الأمير محمد بن عبدالرحمن وأمراء الدولة الأموية من بعده للفقيه بقي بن مخلد، والسماح له بالتدريس، وإدخال الكتب التي تخالف المذهب الرسمي للدولة الأموية والسماح بتأليفها، دلالة أكيدة وواضحة على حرصهم على دعم المذهب السني، والانفتاح على المذاهب السنية الأخرى التي تخالف مذهب الإمام مالك بن أنس.

ولما أدخل أبو عبدالله محمد بن عبد السلام الخشني[2] كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد، أنكر عليه ذلك الفقهاء وأخافوه، لكنه لم يستخف وقال: ما كنت أستخفي من قول الحق، ولا أخشى في الله أحداً، وكثر على الأمير محمد بن عبدالرحمن في شأنه، فأمر محمد بن حارث بن أبي سعد متقلد أحكام السوق والشرطة إحضاره، ووقفه على ما ينسب إليه، وطلب معرفة ما عنده، فلما حضر عنده، قال أأنت تقول أن في كتاب الله ناسخاً ومنسوخاً ؟ قال: نعم. يقول الله في محكم كتابه: ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾[3]، ولكنه لم يقتنع، فأمر بسجن الخشني، ولما علم الأمير محمد بذلك عَنّفَ صاحب السوق، وأمر بإطلاق سراح الخشني، وسمح له بنشر علمه، وأن لا يعترض أحد على مجلسه، فكان محمد بن عبد السلام الخشني إذا جلس بين طلابه، أمر القارئ عليه بالدعاء للأمير محمد بن عبدالرحمن، وإذا

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٨٣.

(٢) هو محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن زيد الخشني، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة رحل قبل سنة ٢٤٠هـ، وحج، ثم ذهب إلى البصرة وسمع من عدد كبير من العلماء، وأدخل إلى الأندلس كثيراً من حديث الأئمة، وكثيراً من اللغة والشعر، رفض تولي القضاء للأمير محمد بن عبدالرحمن، توفي سنة ٢٨٦هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) سورة البقرة آية رقم (١٠٦).

فرغ ختم به[١].

كما عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن إلى الفقيه الشافعي مالك بن يحيى القرشي[٢] بالولايات، وقد نصحه العالم المشهور بقي بن مخلد في ذلك فقال:"أوصيك بوصية إنك لا تستطيع كل ما يجب عليك، ولكن كن أشد من غيرك"[٣].

كما أصبح الفقيه بقي بن مخلد خاصاً بالأمير المنذر بن محمد قبل ولايته، حيث قدّم إليه البشرى في حياة أبيه بأنه سيتولى الإمارة، لرؤيا قصها عليه، فلما ولي الأمير المنذر ضاعف له البر والإكرام والإعظام والتبجيل، وأراده على ولاية القضاء فأبى عليه، فهَمَّ أن يكرهه، فقال له بقي:"ما هذا جزاء محبتي وانقطاعي وصاغيتي، فقال المنذر: أما إذا أبيته فأشر عليّ بقاض ترضاه للمسلمين"[٤]، فأشار عليه.

وقد زاد عدد العلماء والفقهاء في مجلس الأمير عبدالله بن محمد، وعليه فقد تولى وظيفة الفتوى والشورى ورئاسة الشورى عدد كبير من المفتين، والمشيخة المؤدين والمشاورين والفقهاء المرأسين من غير المذهب المالكي، منهم الفقيه بقي بن مخلد وابنه أحمد[٥]، والفقيه الشافعي يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز[٦]، كما تولى الشورى معه عبيد الله بن يحيى وغيرهم[٧].

وحاز القاضي أسلم بن عبد العزيز[٨] مكانة كبيرة لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر،

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٥٠-٢٥٤، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) هو مالك بن يحيى القرشي، من أهل قرطبة سمع من بقي بن مخلد وغيره، وكان بليغاً شاعراً (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩٤).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩٤.

(٤) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٣٥، ٣٦.

(٥) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٤٣ – ٤٥.

(٦) هو يحيى بن عبدالعزيز يعرف بابن الخراز، يكنى أبا زكريا، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق وكان يميل للمذهب الشافعي توفي سنة ٢٩٥هـ (ابن القرطبي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٣٦).

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٣٦.

(٨) هو أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد، ويعود به النسب إلى أبان بن عمرو مولى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، يكنى أبا الجعد، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق سنة ٢٦٠هـ، ودرس ثم رجع، توفي سنة ٣١٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٨١).

فكان يستخلفه على شؤون القصر إذا خرج للغزو، ثم ولاه بعد ذلك قضاء الجماعة في قرطبة، و لم يكن هذا الفقيه مالكياً وإنما كان يميل إلى المذهب الشافعي[١].

و لم يمنع تفقه منذر بن سعيد البلوطي بالمذهب الظاهري، من الحصول على الحظوة والمكانة لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر، ورغم أن هذا الفقيه يدافع عن مذهبه الظاهري، ويؤلف في ذلك كتباً، إلا أنه كان حريصاً على وحدة الأندلس المذهبية، فكان إذا جلس للقضاء لا يحكم إلا بمذهب مالك، وكان الخليفة عبدالرحمن الناصر قد عينه قاضياً للجماعة في قرطبة [٢] وعلق على ذلك المقري[٣] بقوله: "وهو الذي عليه العمل بالأندلس وحمل السلطان أهل مملكته عليه"، يقصد بذلك المذهب المالكي.

وقد شارك الفقيه منذر بن سعيد البلوطي في بعض المناسبات الرسمية، وألقى خطبة عصماء، في حفل استقبال الناصر لوفد الروم، وكان الفقهاء المكلفين بتلك الكلمة قد أعياهم الحديث لهول الموقف، فانبرى لها منذر، وتكلم بكلام عجيب، نال من خلاله مكانة عالية عن الخليفة عبدالرحمن الناصر[٤]، وكان مما قاله: "وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لَمّت شعثكم بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعُل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، بضيق الحال ونكد العيش والتقتير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيُمن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء"[٥]، فهو يذكر الحضور بما منَّ الله عليهم من توحيد صفوفهم تحت راية أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر، بعد أن كانت البلاد تعاني من الفتن والثورات والتمزق، و لم يتحقق ذلك إلا بعد جهد كبير قام به الخليفة، فيقول منذر في خطبته: "ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، و لم يكِلْ ذلك إلى

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٥٦، ١٥٩، الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٥٢، ١٥٣.

(٢) الخشني قضاة قرطبة، ص١٧٥، ١٧٦، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ١٠٠- ١٠١.

(٣) نفح الطيب، ٢/٢١.

(٤) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣١٥، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٨٩، ٩٠.

(٥) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٩٠، ٩١.

القواد والأجناد؟ حتى باشره بالمهجة والأولاد، واعتزل النسوان وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة...متحملاً للنصب، مستقبلاً لما نابه في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً"[١]، وبعد حديث طويل شدد فيه على فضل الخليفة فيما هم فيه من نعمة واستقرار، ذكرهم بما يجب عليه تجاه الخليفة، مع التأكيد في كلامة على ضرورة المحافظة على الوحدة الفكرية للأندلس،فيقول:"فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالنصيحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في فرقة الجماعة، ومرق من الدين، فقد ﴿**خسر الدنيا والآخرة ذلكهو الخسران المبين**﴾[٢]،...فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنه – تبارك وتعالى – يقول:﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[٣]، وقد علمتم معشر المسلمين ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم، وتفريق ملّتكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين"[٤]. وتعد هذه الخطبة من أشهر الخطب التي ركزت بشكل أساسي على ضرورة الوحدة الفكرية للأندلس، ومطالبة عامة الناس بالوقوف تجاه الفكر المخالف، الذي يهدف إلى شق عصا الطاعة، وتفريق الملّة، وهتك الحرمات، والإساءة إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأهم من ذلك أن هذه الخطبة ألقيت تحت سمع ونظر السلطة الحاكمة، مما يعززمن قوتها، ويزيد أواصر العلاقة بين الأمراء وعلماء البلاد.

ومن الفقهاء المشاورين في عهد الخليفة الناصر الفقيه أحمد بن بشر المعروف بابن الأغبس[٥]، وكان هذا الفقيه يفتي على مذهب الإمام الشافعي، ولم يمنعه ذلك من ضمه

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٩١.

(٢) سورة الحج، آية رقم (١١)

(٣) سورة النساء، آية رقم (٥٩)

(٤) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٩٢، ٩٣.

(٥) هو أحمد بن بشر بن محمد بن إسماعيل التجيبي، كان متقدماً في لسان العرب، والبصر بلغاتها، وسمع من العديد من فقهاء عصره، كان مشاوراً في الأحكام ويميل إلى النظر والحجة، توفي سنة ٣٢٧هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٧).

إلى مجلس الشورى(١).

وحاز الفقيه إسماعيل بن بدر القرطبي(٢)، مكانة عالية عند الخليفة الناصر، فكان كثيراً ما يصطحبه في غزواته، وينادمه ويأنس به رغم أنه كان شافعي المذهب، كما عينه والياً على السوق فقام بما كُلفَ فيه أتم قيام(٣).

ومما يلاحظ على عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر نشاط فقهاء الشافعية وتقريب الناصر له في ظل توجه الحكام الأمويين لتقريب الفقهاء غير المالكية، وانفتاحهم على المذاهب الأخرى، لذا لم يجد بعض أبناء الأسرة حرجاً في الانتساب إليها، فهذا عبدالله بن عبدالرحمن الناصر تمذهب بالمذهب الشافعي، وخالط فقهاء الشافعية واستراح لهم، ولابد أن يكون هذا الابن قد سهل من مهمة التواصل بين والده الخليفة وفقهاء الشافعية، يقول الحميدي(٤)فيه: "كان فقيهاً شافعياً شاعراً إخبارياً متنسكاً".

وبسبب المستوى العلمي المتميز الذي اكتسبه الفقيه قاسم بن أصبغ(٥)، مال إليه الناس، وسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، كما أن الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ممن سمع منه، وكان أساتذة قاسم بن أصبغ من فقهاء الشافعية كبقي بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشني، ومحمد بن وضاح، عينه الخليفة الناصر على منصب المشاور، فكان مشاوراً في الأحكام(٦).

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٧.

(٢) هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، مولى بن أمية، يكنى أبا بكر، من أهل قرطبة، سمع من بقي بن مخلد، والخشني وكلاهما كانا من الشافعية بالإضافة إلى محمد بن وضاح، وغلبت عليه صناعة الشعر، وولي أحكام السوق وحمد أمره فيها، توفي في أول ولاية الحكم المستنصر، سنة ٣٥١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦٤، ٦٥).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦٤، ٦٥، ابن الأبار، الحلة السيراء، ١٩٩/١، ٢٠٠.

(٤)جذوة المقتبس، ص٢٣١، ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠٦/١.

(٥) هو قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف ويعرف بالبياني، يكنى أبا محمد، من أهل قرطبة، رحل لطلب العلم وزار العراق ومكة ومصر، وعاد إلى الأندلس بعلم كبير، وكانت الرحلة في الأندلس إليه، كان بصيراً بالحديث والرجال، توفي سنة ٣٤٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٨٦، ٢٨٧).

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٨٦، ٢٨٧.

ولقد برز كثير من تلامذة الفقيه الشافعي بقي بن مخلد، وأصبح لهم شأن عند حكام بني أمية، واعتمدوا عليهم في بعض المناصب، رغم الاختلاف المذهبي بينهم وبين ما تعتمده السلطة الحاكمة، وتولى بعضهم الشورى وانفردوا بالفتيا في أيام الأمير عبدالله بن محمد والخليفة عبدالرحمن الناصر [١].

وكان لازدهار الفقه الشافعي في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، دافعاً لتحرر فقهاء الشافعية من القيود التي مارسها عليهم أتباع المذهب المالكي في فترة سابقة، لذلك نرى بعضهم يفتي دون تحرز على رأي الشافعي[٢]، ويعتبر هذا الأمر تطوراً إيجابياً لدى حكام الدولة الأموية في الأندلس يعزز من دعمهم للمذهب السني، وانفتاحهم على المذاهب الأخرى للعمل سوياً دون عوائق.

ولما رأى الفقيه الشافعي حسن بن سعد بن إدريس[٣]– في أثناء حضوره لجلسة الشورى – أن الفتيا دائرة على مذهب المالكيين، ترك شهود الشورى ولزم بيته، اعتراضاً منه على ذلك[٤]. واعتراضه يدل على مدى التسامح المذهبي الذي كانت تنتهجه السلطة الحاكمة في وقته، كما يبين أن هناك تطلعاً من أتباع المذاهب الأخرى في إمكانية تعويم الفتيا وعدم قصرها على المذهب المالكي .

وفي عهد الخليفة الأموي الحكم المستنصر ظهر لدى الدولة الأموية بالأندلس تسامحاً فكرياً كبيراً، على الرغم من أن الحكم المستنصر أظهر تأييده التام للمذهب المالكي، ووجوب العلم به[٥]، إلا أننا نراه يحتوي علماء العالم الإسلامي السني في المشرق، أياً كانت مذاهبهم،ويوسععليهم،ويقربهم إليه، ويفسح لهم مجال التأليف والإبداع، فقد كان

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٨٣، ٣٢٠.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٧.

(٣) هو حسن بن سعد بن إدريس الكتامي، يكنى أبا علي، من أهل قرطبة، سمع من بقي، ورحل إلى مكة وصنعاء ومصر وسمع هناك، كان يذهب إلى النظر، وترك التقليد ويميل إلى قول الشافعي، توفي سنة ٣٣٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٩٦، ٩٧).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٩٧.

(٥) ابن سهل، الإعلام، ٨٩٦/٢ –٩٠٠.

من أهل الدين والفضل والورع، معتنياً بالعلم مقتنياً الدفاتر، فقيهاً في المذاهب، جمع أهل العلم من كل مصر[١]. فاستقدم العباس بن عمرو بن هارون[٢]، من القيروان[٣]، وكان هذا العالم بصيراً بالرد على أصحاب المذاهب، عالماً بالكلام، فتوسع له المستنصر بالورق، وأصبح من جملة الوراقين لديه[٤].

كما استقدم الحكم المستنصر الفقيه عبدالله بن عمر القيسي[٥]، وكان هذا الفقيه يميل للمذهب الشافعي، كثير المناظرة فيه، فتوسع له الحكم المستنصر في الجراية، وأنزله منزلاً يليق به، وظل يؤلف للحكم حتى توفي عام ٣٦٠هـ[٦].

ولما وصل الفقيه الشافعي علي بن محمد بن إسماعيل[٧] إلى الأندلس قادماً لها من أنطاكية[٨] فرح به الخليفة الحكم المستنصر، وأنزله منزلة رفيعة، وارتفعت منزلته عند عامة

---

(١) مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢١١.

(٢) هو عباس بن عمرو بن هارون الكناني الوراق، يكنى أبا الفضل، من أهل صقلية، خرج من صقلية إلى القيروان ثم خرج إلى الأندلس، وكان عالماً بالكلام والمناظرة، توفي سنة ٣٧٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٤٠).

(٣) القيروان: هي قاعدة البلاد الإفريقية، وأم مدائنها، وكانت أعظم مدن المغرب، اختصت بلاد إفريقية في عهد الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، على يد القائد عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ، ثم قام باختطاط القيروان بها وهي الآن إحدى المدن الكبرى بتونس (الحميري، الروض المعطار، ص٤٨٦، ٤٨٧).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٤٠.

(٥) هو عبيد الله بن عمر بن أحمد القيسي الشافعي، يقال له عبيد، ويكنى أبا القاسم، من أهل بغداد، قدم إلى الأندلس سنة ٣٤٧هـ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي، عالماً بالأصول والفتوى، توفي سنة ٣٦٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٠٩، ٢١٠).

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٠٩، ٢١٠.

(٧) هو علي بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن بشر، يكنى أبا الحسن، من أهل أنطاكية قدم الأندلس سنة ٣٥٢هـ، كان عالماً بالقراءات، له حظ من الفقه على المذهب الشافعي، ولد في أنطاكية سنة ٢٩٩هـ، وتوفي بقرطبة سنة ٣٧٧هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٥٣).

(٨) أنطاكية: وهي قصبة العواصم من الثغور الشامية، من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة، وطيب الهواء، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه واسعة الخير، بينها وبين حلب مسافة يوم وليلة وتقع إلى الغرب منها على نهر العاص قريباً من مصبه في البحر الأبيض المتوسط، وبينها وبين البحر فرسخين، فتحها الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/٢٦٦ – ٢٦٨).

الناس كذلك[١].

واشتهر الفقيه يوسف بن محمد الهمداني[٢]بالرحلة، حيث أقام في رحلته العلمية عشرة أعوام سمع خلالها على العديد من علماء وفقهاء الأمصار، ونظراً لعنايته الشديدة بكتب أهل العلم ونسخها، أعجب به الخليفة المستنصر، فقربه وأدنى منزلته، ومن أشهر أعماله نسخه لكتاب الشافعي الكبير والذي يحوي عشرين ومائة جزء، وقد صارت نسخته إلى الحكم المستنصر[٣].

أما الفقيه عبدالله بن إبراهيم الأصيلي[٤]مؤلف كتاب"الدلائل على أمهات المسائل"والذي جمع فيه اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة، فقد عينه الحكم المستنصر على منصب المشاور، وسمح له بالتدريس، واستفاد منه بالحجة والنظر، حيث كان عالماً بها[٥]. ويُعدّ تعيين هذا الفقيه على منصب المشاور تطوراً كبيراً في مجال انفتاح أمراء الدولة الأموية في الأندلس على المذاهب الأخرى، فهذا العالم كما نعلم قد درس المذاهب الفقهية ويعرف اختلافها، بالإضافة إلى أنه بصيراً بالحجة والنظر فيستفاد منه في محاورة المذاهب المخالفة، وتبيين فسادها لعامة الناس، لذا قربه الناصر وأدنى منزلته.

ولما وصل الفقيه الشافعي محمد بن أحمد بن أبي بردة[٦]إلى الأندلس سنة

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٥٣.

(٢) هو يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني، يكنى أبا عمر، من أهل شذونة، رحل لطلب العلم في المشرق واستغرقت رحلته عشرة أعوام، كتب كتباً كثيرة وكان مولده سنة ٣٠٤هـ، ووفاته سنة ٣٨٣هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٥٣، ٤٥٤).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٥٣، ٤٥٤.

(٤) هو عبدالله بن إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن جعفر، يكنى بأبي محمد الأصيلي، أصله من شذونة، وقيل من الجزيرة الخضراء، وكان جده من مسالمة الذمة، دخل قرطبة سنة ٣٤٢هـ، وارتفع شأنه في عهد بن أبي عامر، توفي سنة ٣٩٢هـ (عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٤١ – ٢٤٥).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٦) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة الشافعي البغدادي، يكنى أبا الطيب، وصل إلى الأندلس قادماً من مصر سنة ٣٦١هـ نسب إلى الاعتزال وأخرج من الأندلس سنة ٣٧٣هـ فنزل بتاهرت وبها توفي في نفس السنة (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٨٤، ٣٨٥).

٣٦١هـ،أكرمه الخليفة الحكم المستنصر، وأمر بإجراء النزل عليه، وكان هذا الفقيه من أعلم الناس بمذهب الشافعي، وأحسنهم قياماً به، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بالمذهب الشافعي، كما يذكر ذلك ابن الفرضي[1].

كما اصطنع المنصور بن أبي عامر الفقيه محمد بن عمرو البكري[2]وأئمنه على بناء الثغور، وقلده السفارة في عقد السلم بينه وبين ملوك الروم وقواميسهم، والاشتراط له وعليه، وكان يخاطب بالوزير القاضي، وهو أحد الشهود السامعين من هشام المؤيد بالعقد لابن أبي عامر في تجديد الإلفة[3].

ومن خلال ما ذكرنا يتبين أن السلطة الأموية لم تعتمد في سياستها الدينية على المذهب المالكي لوحده، بل شارك فقهاء الشافعية بفعالية كبيرة خصوصاً في عهدي الخليفتين الناصر والمستنصر، كما شارك فقهاء الظاهرية بشكل محدود، ومع محدودية فقهائه إلا أنه كان مؤثراً فقد مثّله وأبرزه الفقيه المشهور المنذر بن سعيد البلوطي.

لقد سيطر المذهب المالكي على الحياة الدينية في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم، ومع وصول الأمير محمد بن عبدالرحمن إلى الحكم سُمح للفقيهين الشافعيين بقي بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشني، بتدريس علوم جديدة كمصنف أبي بكر بن أبي شيبة في الحديث وغيره، وفي فترة الخليفة الأول عبدالرحمن الناصر ظهر الانفتاح المذهبي السني في أبعد صوره، فقد شارك فقهاء الشافعية والظاهرية فقهاء المالكية في المناصب الدينية، ورغم أن الخليفة الثاني الحكم المستنصر كان ملتزماً بالمالكية، إلا أن ذلك لم يمنعه من تكريم فقهاء الشافعية واستقدامهم للأندلس ومساعدتهم له في جميع وتأليف الكتب العلمية.

---

(١) تاريخ علماء الأندلس، ص٣٨٥.

(٢) هو محمد بن عمرو بن محمد بن أيوب البكري، من أهل لبلة، وسكن قرطبة، تولى السفارة في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر (ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ٢٠٤/١).

(٣) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ٢٠٤/١.

المبحث الثالث

الحفاظ على الهوية الإسلامية

استفادت الدولة الأموية بالأندلس من المذاهب الأخرى بما تمثله هذه المذاهب من علماء وفقهاء في محاربة الأفكار الدخيلة على المجتمع وعقيدته الإسلامية، لقد تبنت الدولة الأموية المذهب المالكي ودعمته دعماً كاملاً، وفتحت المجال لفقهاء المالكية كي يجابهوا أي خطر فكري يهدد سلامة المعتقد الديني السني، وبجانب تبنيها للمذهب المالكي، اهتم أيضاً بعض أمراء الدولة الأموية بالمذهب الشافعي(١)، الذي يعتمد بشكل أساسي على الأخذ بمبدأ الحجة والنظر في معالجة أي توجه فكري مخالف، ومنح بعض أمراء البيت الأموي فقهاء الشافعية الحق الكامل بالتدريس والمناظرة وتأليف الكتب، ويكفي تأكيداً لذلك سماح الأمير محمد بن عبدالرحمن للفقيهين الشافعيين بقي بن مخلد ومحمد بن عبدالسلام الخشني بالتدريس والتأليف، ووقف أي معارضة لهما من قبل فقهاء المذهب المالكي(٢)، وقد نشط هذين الفقيهين في محاربة أي فكر مخالف، ومن ذلك ما نسب للمفسر خليل بن عبد الملك بن كليب(٣)، من أنه يقول بالقدر ولا يستتر بذلك، وقد ناظره بقي بن مخلد فقال له: أسألك عن أربع، فقال: ما هي؟ قال: ما تقول في الميزان؟ قال: عدل الله، ونفى أن تكون له كفتان. فقال له ما تقول في الصراط؟ فقال: الطريق، يريد الإسلام فمن استقام عليه نجا. فقال له: ما تقول في القرآن؟ فلجلج و لم يقل شيئاً،

---

(١) انظر إلى اهتمام الأمير محمد بن عبدالرحمن بالفقيه الشافعي قاسم بن محمد بن سيار، وتوليته وثائقه الخاصة (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٨٠). وانظر: إلى اهتمامه ببقي بن مخلد والخشني (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٨٣، ٣٠٥)،وانظر إلى اهتمام الناصر والحكم المستنصر بالشافعية، ص١٠٦-١٠٩.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٤٨- ٢٥٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠٩/٢، ١١٠، الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٧.

(٣) هو خليل بن عبد الملك بن كليب المعروف بخليل الغفلة، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق، وكان يعلن بالاستطاعة، كما كان مشهوراً بالقدر ولا يستتر به (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٢٠).

وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق. فقال له: ما تقول في القدر؟ فقال: أقول أن الخير من عند الله، والشر من عند الرجل. فقال بقي بن مخلد: والله لولا حالك لأشرت بسفك دمك، ولكن قم، فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت(١). إن تهديد بقي بن مخلد لخليل بن عبد الملك بالإبلاغ عنه والإشارة للأمير بسفك دمه، لهو دليل واضح على استعانة الأمير بالفقيه الشافعي بقي بن مخلد، ومنحه صلاحيات كبيرة تصل للحكم بالقتل في سبيل محاربة مثل هذه الأفكار، وتعقب معتنقيها، والمحافظة على هوية الأندلس الإسلامية.

وبجانب مناظرة بقي بن مخلد لخليل بن عبد الملك، قام الفقيه الشافعي الآخر محمد بن وضاح بهجر خليل بعد أن كان صديقاً له(٢). تأكيداً من الجميع على السعي للوقوف صفاً واحداً في وجه الأفكار المخالفة، والمحافظة على الهوية الإسلامية للأندلس.

ولما مات خليل بن عبد الملك، أتى أبو مروان بن أبي عيسى وجماعة من الفقهاء وأخرجوا كتبه، ثم أحرقوها(٣)، ومثل هذه الإجراءات التنفيذية عادة لا تتم إلا بموافقة الأمير الأموي وتوجيهه أيضاً.

وقد منح أمراء البيت الأموي ولاة السوق بالأندلس صلاحيات واسعة، للمعاقبة والتنكيل في حق كل فكر دخيل أو منكر ظاهر، ولم يستطع الأمير الحكم بن هشام الحيلولة دون معاقبة رسول عمه سعيد الخير، والذي عثر عليه ومعه خمرٌ يحمله، فقبض عليه والي السوق أبي قرعوس بن العباس وكسر الشراب في الحال، ثم ضرب حامله ضرباً شديداً، واكتفى الأمير الحكم بالرد على عمه بقوله: هذه قوة لملكنا! ألا استتر رسولك(٤).

ولما أراد الأمير الحكم قطع الخمر من الأندلس، أمر بإراقتها وتشدد في ذلك، وشاور الفقهاء في عزمه على استئصال شجرة العنب من جميع الأندلس، لكن الفقهاء أخبروه أن الخمر تصنع من غير العنب كالتين وغيره، فتوقف عن ذلك(٥).

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٢٠.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٢٠.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٢٠.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٩١.

(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠٣/١.

كما شارك الفقهاء في إخماد أي فتنة أو فكر دخيل يسعى للشقاق وتفريق الصف، وإحداث فتنة داخل الأسرة الأموية، فقد خرج الفقيه يحيى بن يحيى الليثي وصاحبه ابن أبي عامر المعافري(١)، إلى الأمير عبدالله البلنسي عم الأمير الحكم بن هشام، فأجريا عليه الأمان وأخذا عليه العهد بعدم الشقاق والبيعة للأمير الحكم، ثم قدما بابنه إلى دار الحكم، فأكرمه الأمير الحكم(٢).

وقد وقف فقهاء المالكية موقفاً حازماً أمام الفقيه المالكي عبد الأعلى بن وهب(٣)، فقد طالع هذا الفقيه كتب المعتزلة، ونظر في كلام المتكلمين، ورُمي بالقدر، وأنه يقول بموت الأرواح، وكان الفقيه المشهور يحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وإبراهيم بن حسين بن عاصم يطعنون عليه بذلك أشد الطعن، وينكرون عليه هذا الاعتقاد(٤)، ورغم أن جميع هؤلاء الفقهاء ينتمون إلى المذهب المالكي إلا أنهم لم يداهنوا صاحبهم و لم يقفوا من اعتقاده هذا موقف المتفرج.

وفي حادثة تدل على تحرز الحكام الأمويين من أي فكر أو عمل قد يعود بالضرر على الدولة، ويؤدي إلى سقوط هيبتها في أعين المجتمع الأندلسي، منع الأمير عبدالرحمن بن الحكم ابنه المنذر من الخطابة في البلد الذي يتولى ولايته، ومع أن هذا الابن كان خطيباً مفوهاً، إلا أن الأمير منعه بسبب منادمته لزرياب المغني(٥).

ولما ثار أهل طليطلة وجمعوا قوتهم، وراسلوا النصارى وطلبوا مشاركتهم في ثورتهم

---

(١) يبدو من تسلسل عمود نسب الحاجب المنصور بن أبي عامر أن هذا الفقيه هو أبو عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس، وهو أبو جد الحاجب المنصور بن أبي عامر (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤٧٠).

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص١٠٢.

(٣) هو عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى، مولى قريش، يكنى أبا وهب، من أهل قرطبة، سمع من يحيى بن يحيى ورحل إلى المشرق، وسمع من سحنون المالكي بإفريقية، وعين مشاوراً في الأحكام بقرطبة، ومشاركاً بالفتوى مع يحيى بن يحيى وجماعة المفتين الآخرين، توفي سنة ٢٦١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٢٨، ٢٢٩، عياض، ترتيب المدارك، ٤٤٥/١.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٢٢ ، ٢٢٣، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

ضد حكم الدولة الأموية، خرج إليهم الأمير محمد بن عبدالرحمن في أول غزوة يغزوها، واصطحب معه أهل الحسبة، ليكونوا داعمين له ضد هذا البغي والعدوان، وليوضحوا للجيش المشارك بأن هذا الفعل منكر، وهو نتاج لفكر دخيل أدى بأهل طليطلة للاستعانة بالنصارى ضد حاكمهم المسلم، ولما التقى الطرفان وجهاً لوجه خطب فيهم الأمير محمد وقال: "اللهم أيد دينك، وانصر وليّك، وتمم وعدك، واخذل من عاندك وحادّك"[(١)]، و لم يبرح الأمير مكانه حتى تم له النصر، وأرسل البشرى لجميع بلدان الأندلس[(٢)].

ولمّا خرج الأمير عبدالله بن محمد بجيشه لمواجهة المتمرد ابن حفصون[(٣)]، اصطحب معه الفقيه مروان بن عبد الملك[(٤)] يؤمه، ويقضي في عسكره، فانهزم ابن حفصون شر هزيمة، فقام الأمير بالقبض على من هرب من عسكر ابن حفصون وقتلهم، فأنكر الفقيه مروان بن عبد الملك على الأمير هذا الفعل، فلم يزده ذلك عند الأمير إلا تقريباً وإكراماً، واعتذر الأمير عن فعله، وشكر لمروان صحبته ونصحه[(٥)]. ولابد أن هذا الفقيه قد وجه الأمير بضرورة التحلي بالثوابت الشرعية بشأن أسرى الحرب، وأن بعض هؤلاء قد يكونوا مسلمين قد غرر بهم أو دفعوا للحرب دفعاً، وفي النهاية التأكيد على وجوب الحفاظ على صورة الجيش الإسلامي أمام عامة الناس، وأن هدفه الحفاظ على هوية البلد الإسلامية وليس مجرد القتل والتنكيل.

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٩٥-٢٩٧، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٩٧، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) هو عمر بن حفص بن عمر بن جعفر الإسلامي بن كشمسم بن دميان بن فرغلوش بن أفونش، كبير الثوار بالأندلس، أصله من رندة من كورة تاكرنا، وجده جعفر أسلم وانتقل إلى رندة، خرج في جبل ببشتر واستولى على بلاد كثيرة منها غرناطة وإلبيرة، توفي في خلافة الأمير عبدالرحمن الناصر سنة ٣٠٦هـ (لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣٨/٤-٤٢) وللاستزادة عن حركة ابن حفصون، انظر هنا، ص١٩٩-٢٠٥.

(٤) هو مروان بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن خطاب بن نذير بن عبد الجبار بن خطاب، من أهل مرسية، وهو جدّ بني جمرة، رحل إلى قرطبة فلازم عدداً من الفقهاء منهم منذر بن سعيد البلوطي، توفي في قرطبة سنة ٣٥٠هـ (ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، صلة الصلة، تحقيق جلال الأسيوطي، ط١، ص٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م).

(٥) ابن الزبير، صلة الصلة، ص٢٩.

ولما سئل الفقيه أبان بن عيسى بن دينار[١] عمن له غرفة، ويريد أن يفتح لها باباً على المقبرة، قال لا يجوز أن يفتحه على مقبرة المسلمين[٢]، وفي هذا سدٌ لباب البدع، ومراعاة للمصلحة العامة بالمحافظة على مقابر المسلمين.

وفي خضم الثورات والفتن التي عصفت بالأندلس أيام حكم الأمير عبدالله بن محمد، حصل نزاع بين بني غالب وبني حجاج في نفوذ حصن بناه محمد بن غالب[٣]، في شنت طرش[٤] آخر حد إشبيلية من جهة أستجه، فرفع العامل حصين بن محمد[٥] أمرهم إلى الأمير عبدالله بن محمد في قرطبة، واتُهم ابن غالب بالاتصال بالمتمرد ابن حفصون، وغيره من أهل الفتن والثورات ضد الدولة، فعرض الأمير عبدالله بن محمد أقوالهم وبراهينها على أهل العلم عنده، ليعمل بما يفتون به من إنصاف المظلوم وقمع الظالم[٦].

ولما استقرت الأوضاع في الأندلس للخليفة عبدالرحمن الناصر، حملت الخطابات التي كان يرسلها للأمراء والولاة في مختلف الأقاليم، التأكيد على أن الله أكرم الخليفة بإحياء الدين وإماتة البدعة[٧]، وأن عليهم أن يوجهوا علماء الدين أن يجتهدوا في ذلك وأن

---

(١) هو أبان بن عيسى بن دينار بن واقد بن مالك الغافقي، يكنى أبا القاسم، من أهل قرطبة، سمع من أبيه عيسى ورحل فسمع من سحنون وغيره، وكان من العابدين توفي سنة ٢٦٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٧).

(٢) ابن فرحون، الديباج، ص١٦٠، ١٦١.

(٣) هو محمد بن غالب من أهل إستجة، رفع إلى الأمير عبدالله بن محمد عرضاً ببناء حصن في شنت طرش ينزل به وأصحابه، ويضمن له إصلاح الطريق ومنع المفسدين من قطع الطريق، كان شهماً صارماً، قتل غدراً على يد أحد قواد الأمير عبدالله بن محمد سنة ٢٧٦هـ (ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص١٣٨- ١٤١).

(٤) شنت طرش: حصن بعد المرحلة الثالثة في طريق من ست مراحل بين قرطبة وإشبيلية حيث تقع في منتصف الطريق بين المدينتين وعلى مقربة من إستجة، وهي إحدى القرى التابعة لإشبيلية (ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٣٨٥، ٣٨٦، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ٢٣٤).

(٥) هو حسين بن محمد المورى عينه الأمير عبدالله بن محمد على كورة إشبيلية سنة ٢٧٦هـ، بدلاً من عبدالله بن موسى بن العاص، بعد ازدياد الثورات والفتن فيها ثم عزله بعد مدة يسيرة (حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص١٣٨-١٤٠).

(٦) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص١٣٨-١٤١.

(٧) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٠٦-٣١٢.

يحرصوا عليه.

كما استعمل الخليفة عبدالرحمن الناصر القاضي محمد بن عبدالله بن أبي عيسى – الذي كان محل الثقة بالنسبة له – سفيراً له في عدد من الأقاليم التي كانت تتطلب التسكين وإخماد ما يظهر من فتنتهم وثوراتهم، فاستطاع هذا الفقيه أن يصلح كثيراً من الأمور المخالفة، ويأخذ البيعات من عدد من الأمراء، ويصلح بين المتخاصمين(١).

وفي عهده أيضاً كثرت الردود على محمد بن عبدالله بن مسرة(٢)وقد اتُهم هذا الرجل بعدة تهم منها الزندقة، والقول بالاستطاعة، وإنفاذ الوعيد، وتحريف التأويل في كثير من القرآن، والناس فيه مختلفون، فقسم: يبلغ به الإمامة في العلم والزهد، وقسم: يطعن عليه بالبدع(٣)، وكان للفقيه أحمد بن خالد(٤)صحيفة في الرد عليه(٥)، وللنحوي أبي بكر الزبيدي(٦)كتاب في الرد على محمد بن مسرة(٧)، وللقاضي المشهور في قرطبة محمد بن يبقى بن زرب كتاباً حسناً للرد على ابن مسرة قرئ عليه وأخذ عنه(٨)، وغيرهم من

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥٨، ٢٩١، ٣٠٨.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن مسرة بن نجيح، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، سمع من عدد من العلماء في الأندلس، ثم رحل إلى المشرق في آخر أيام الأمير عبدالله بن محمد، وتردد بالمشرق مدة حيث اشتغل بمناظرة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة، ولد سنة ٢٦٩هـ، وتوفي سنة ٣١٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٣، ٣٢٤).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٤.

(٤) هو أحمد بن خالد بن يزيد بن محمد بن سالم بن سليمان، يعرف بابن الجباب، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة، سمع من عدد من العلماء في الأندلس وخارجها، وطلب العلم أيضاً في صنعاء، ولما قدم الأندلس كان إمام وقته في الفقه والحديث والعبادة، توفي سنة ٣٢٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٥، ٣٦).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٤.

(٦) هو محمد بن حسن بن عبدالله بن مذحج الزبيدي، يكنى أبا بكر، من أهل إشبيلية وسكن قرطبة فنال بها جاهاً كبيراً ورياسة، وكان واحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة، واستأدبه المستنصر لابنه هشام، وقدمه إلى أحكام القضاء ثم خطة الشرطة، توفي بإشبيلية سنة ١٣٧٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٦٦، عياض، ترتيب المدارك، ٢٠١/٢).

(٧) عياض، ترتيب المدارك ٢٠١/٢.

(٨) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٧٠، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٥.

العلماء الذين كتبوا في الرد عليه، وقد كان لنشاط هؤلاء العلماء في الذب عن العقيدة وفضح المخالفين للسنة دور كبير في محاربة الأفكار المخالفة، والمحافظة على الهوية الإسلامية والفكرية للأندلس، كما أن إتاحة حكام الدولة الأموية المجال للعلماء والفقهاء للرد والتأليف على مثل هذه الأفكار، دور كبير في دعم المذهب السني وحمايته، ومن ثمَّ تحقيق الوحدة الفكرية في البلاد.

كما نشط القاضي ابن زرب في طلب أصحاب ابن مسرة، والكشف عنهم واستتابة من علم أنه يعتقد مذهبه، وفي سنة ٣٥٠هـ استتاب القاضي ابن زرب عدداً من أتباع ابن مسرة، ثم خرج إلى المسجد الجامع وقعد هناك وأحرق بين يديه ما وجد عندهم من كتبه، وهم ينظرون إليه مع عامة الناس الحاضرين لهذا المشهد[١]، ولابد أن هذا الفعل من القاضي كان بإشراف الخليفة المستنصر وموافقته على ذلك، وفي هذا تأكيد على تمسك الأمويين بالسنة ومحاربة البدعة بكل ما فيها من أفكار مخالفة وخارجة عن مذهب أئمة السنة، وأنهم لا يألون جهدا في المحافظة على الهوية الدينية لبلادهم، وأن العلماء هم المحور الأساسي في كل ذلك.

وكان الخليفة الناصر يشهد الفقهاء على كل كتاب يكتبه في أمور الحرب والسلم، والبيع والشراء، والصدقة والأحباس، والهبات والعتق، ولا تخرج كتبه إلا بعد مراجعة الفقهاء لها وإزالة ما فيها من مخالفات شرعية وعقدية[٢].

واحتاج الخليفة الأموي الحكم المستنصر في أيامه للعلماء ، فاستقدم العديد من علماء العالم الإسلامي، وفسح لهم مجال التأليف والإبداع[٣]، وشجعهم على تأليف جملة من الكتب في مجالات مختلفة، فنشطوا خلال تلك الفترة في إخراج مجموعة من الكتب كانت علامة فارقة في عهد الحكم، استفادت منها السلطة الأموية في دعم المذهب السني عن طريق محاربة البدعة والأفكار الدخيلة[٤]، والمحافظة على هوية الأندلس الدينية والفكرية،

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٥.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٨١/٢.

(٣) مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢١١.

(٤) الخشني، قضاة قرطبة، ص٧، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١١٤.

واستمر الخليفة المستنصر في استقطاب علماء وفقهاء العالم الإسلامي للرد والتأليف، وكان منهم الفقيه العباس بن عمرو بن هارون[١] من القيروان، فقد كان هذا الفقيه عالماً بالرد على أصحاب المذاهب، وزوده بالورق ليقوم بهذه المهمة، ثم ضمه بعد ذلك لجملة الوراقين لديه[٢].

وكان الحكم المستنصر كثيراً ما يرسل القضاة والفقهاء لمطالعة أحوال الناس، وتحذيرهم من أي فكر دخيل، خصوصاً البلدان التي تقع في أطراف الدولة، والتي تكون مظنة التلوث بالأفكار التي تدعو إلى الفتنة والخروج على السلطة[٣]، ففي سنة ٣٦٢هـ أرسل الخليفة الحكم المستنصر صاحب الشرطة الوسطى والمواريث وقاضي إشبيلية ووكيل الأمير هشام المؤيد، محمد بن أبي عامر، وصاحب الشرطة قاضي الثغر الأعلى محمد بن علي بن أبي حسن[٤]، إلى مدينة أصيلا [٥] بالعدوة المغربية، أمناء وممتحنين للقواد، وأوعز إليهم بأمور سرية يقومون بها[٦].

ومن أجل مراقبة العمال ومطالعة أحوالهم وتحري عدلهم وجورهم، ومدى تأثر عامة

---

(١) هو العباس بن عمرو بن هارون الكناني الوراق، يكنى أبا الفضل، من أهل صقلية، خرج من صقلية إلى القيروان ثم خرج إلى الأندلس، وكان عالماً بالكلام والمناظرة، توفي سنة ٣٧٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٤٠).

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٤٠.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٩١، ١٠٦.

(٤) هو محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، رحل فسمع في مصر وفي الرملة، وكان ضابطاً لكتبه، بصيراً بالنحو واللغة، ولاه الخليفة الحكم المستنصر هو وأخوه قضاء كور الثغر الأعلى، توفي سنة ٣٧٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٦٠).

(٥) أصيلا: تسمى أصيلة وأزيلة بالزاي وهي بلدة بقرب طنجة المغربية، كبيرة قديمة وهي عامرة آهلة كثيرة الخير والخصب، وقد كانت مسرحاً للحرب بين النورمان الذين يسميهم أهل الأندلس بالمجوس وبين أهلها من البربر، ولذا خربت وتدمرت، وأصيلة أول مدن العدوة من الغرب في سهل من الأرض والبحر عليها، ولها خمسة أبواب، وإليها ينتسب كل من يسمى بالأصيلي، وهي من ثغور المغرب(الحميري، الروض المعطار، ص٤٢).

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٠٦.

الناس بالأفكار الدخيلة وتساهل الولاة في ذلك بعث الحكم المستنصر قاضي إلبيرة[1]، وقاضي مرسية[2]، ومعهم بعض ثقاته، لتفقد أحوال الرعية بجميع البلاد، وقال لهم: إن لم تنصحوا فأنا المباشر لها بنفسي، فأنا المسؤول عنهم، فما العذر بين يدي السائل؟ ثم بكى، وكان من نتائج تلك البعثات، أن نكل الحكم المستنصر بالعمال وأوقع بهم، وأخذهم بجورهم وظلمهم، وكتب بتعنيفهم كتاباً، وفيه:"وقد علمتهم عنايتنا بالمسلمين، وحفظهم حفظنا بالعباد"، وقد أمرهم بالتوبة والعدل بين المسلمين[3].

وبعد تولي الحاجب المنصور بن أبي عامر أمر الأمير هشام المؤيد بالله، عمد إلى خزائن أبيه الحكم المستنصر الجامعة للكتب المختلفة، وكان ذلك بحضور خواص أهل العلم بالدين وموافقتهم، وأمر بإخراج ما فيها من كتب العلوم القديمة في المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من كتب الأوائل، غير الطب والحساب وأمر بإحراقها وإفسادها، فأُحرق بعضها، وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة[4]، وقد يكون فعل ابن أبي عامر لذلك نتيجة للضغوط التي مارسها عليه بعض العلماء والفقهاء، والذين لم يكونوا يتجرؤون على قول ذلك للحكم المستنصر، كما أن ابن أبي عامر أراد أن يظهر بمظهر الحامي والمدافع عن المذهب السني؛ عن طريق إزالة وإبعاد أي فكر مخالف ودخيل

---

(١) إلبيرة: مدينة من مدن الأندلس، وهي أول مدينة ساحلية نزلها الأمير عبدالرحمن الداخل بعد عبوره إلى الأندلس، نزلها جند دمشق وكثير من موالي الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل، وهو الذي أسكنها مواليه ثم خالطهم العرب بعد ذلك، بينها وبين غرناطة ستة أميال، وقد خربت بعد الفتنة، ونزح أهلها إلى مدينة غرناطة، وموقعها بين القبلة والشرق من قرطبة (الحميري، الروض المعطار، ص٢٨، ٢٩).

(٢) مرسية: مدينة بالأندلس، وهي قاعدة تدمير بناها الأمير عبدالرحمن بن الحكم على مستوى من الأرض على النهر الأبيض فهي على ضفة النهر، واتخذت دار العمال وقرار القواد وكان ذلك في عام ٢١٦هـ، بينها وبين بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل، وهي مدينة كثيرة الفواكه، وهي اليوم من المدن الكبرى في إسبانيا (الحميري، الروض المعطار، ص٥٣٩، ٥٤٠، محمد إبراهيم أباالخيل، جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، ط١، ص ٨٠، دار أصداء المجتمع، بريدة، ١٩٩٨م).

(٣) مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢١٤.

(٤) صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق الأب لويس، شيخو اليسوعي، ص٦٦، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م.

عليه.

ولما وقعت الفتنة في الأندلس في بداية القرن الخامس، وتنازع بني أمية على الملك، انخلع الفقيه عمر بن عبدالله بن ذكوان إلى سليمان بن الحكم المستعين بالله، وخرج معه وأيده ضد محمد بن هشام المهدي، وحث الناس للانضمام معه، وقد يكون فعله هذا رغبة منه في تسكين الفتنة، خصوصاً أن المهدي استعان بالفرنج ضد سليمان بن الحكم(١)، ونتيجة لهذا التأييد عين المستعين بالله ابن ذكوان على خطة الوزارة(٢).

ولما رأى الفقيه هشام بن غالب الغافقي أنه لا يستطيع فعل شيء أمام الفتنة الواقعة بقرطبة، تركها وغادر فراراً بدينه، وكان هذا الفقيه يميل للمذهب الظاهري، ولا يظهر ذلك(٣).

وقد ينقلب الدفاع عن الأفكار الدخيلة والهدامة إلى دفاع غير محمود، وتعصب لمذهب ضد آخر، ومحاربة أي علم لا يتماشى مع ما يعتقده الآخر، حتى لو كان صحيحاً وله تسويغه، وفي قصة الفقيه بقي بن مخلد خير مثال على هذا الدفاع غير المحمود والمتعصب في آن واحد، فعندما دخل بقي بن مخلد بمصنف أبي شيبة عارضه فقهاء الأندلس نتيجة لما ما فيه من الخلاف وتباين الأقوال، وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته، ويعبر عن هذا المنع الفقيه قاسم بن أصبغ، فقد كان يدعو على الفقيه أصبغ بن خليل ويقول:"هو الذي حرمني أن أسمع من بقي بن مخلد، كان يحض أبي على نهيي عن الاختلاف إليه وكان لنا جاراً"(٤).

وقد وصل التعصب بأصبغ بن خليل بأن قال:"لإن يكون في تابوتي رأس خنزير أحب إلي من أن يكون فيه مسند ابن أبي شيبة"(٥).

---

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٢، ٢٣، ابن الأبار، التكملة، ٥٨/٣.

(٢) ابن الأبار، التكملة، ٥٨/٣.

(٣) ابن بشكوال، الصلة، ٢٥٦/٢.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٧٣، الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٧.

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٧٣.

وقد وضع الفقيه يوسف بن يحيى المغامي[١] كتاباً في الرد على الشافعي، مكون من عشرة أجزاء، ويوصف هذا الفقيه بأنه شديد على الشافعية[٢].

ولكن تبقى الحالات السابقة حالات فردية ليست عامة، ولذا نستطيع القول إن المذاهب الإسلامية السنية تعايشت إلى جانب بعضها في الأندلس، واستفاد منها أمراء البيت الأموي في دعم الوحدة الفكرية، والحفاظ على هوية الأندلس الإسلامية، ومحاربة أي فكر دخيل على المذهب السني، ولا أدل على ذلك من قلة الجرائم والجنايات في عهد الأمويين بالأندلس، وقد يكون ذلك بسبب تأصل العقيدة الإسلامية ومبادئها القويمة، وحثها على التسامح وحسن المعاملة[٣]، ومن غير المستغرب قولنا أن تعايش الفقهاء في مختلف المذاهب السنية السائدة في تلك الفترة، وقلة تصارعهم، وحرصهم على توجيه المجتمع الأندلسي للعقيدة الصحيحة، كان عاملاً أساسياً فعالاً في عزوف المجتمع المسلم في الأندلس عن ارتكاب أي فعل مخالف ينطوي على مخالفة للعقيدة الإسلامية ومبادئها.

*****

لقد كان للعلاقة المتينة التي ربطت علماء الأندلس وفقهاءهم بعامة الناس، زيادة احترام السلطة الحاكمة لهم، فاستعانوا بهم لتوجيه الرأي العام نحو المحافظة على وحدة الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، كما استعانوا بهم لتحفيز الناس على صد الأعداء والمشاركة مع الأمراء في الغزو متى ظهرت الحاجة لهم، وكان الفقهاء على أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يسند إليهم والدعوة إليه ، وفي سبيل المحافظة على مكانة العلماء والفقهاء عالية في نفوس العامة لاستعمالهم في توجيه الرأي العام، لجأ الأمراء الأمويون إلى طرق كثيرة لإظهار مزيد من الاحترام لهم، كمرافقتهم في الطرقات ، والسلام عليهم في مجالس علمهم

---

(١) هو يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي، المعروف بالمغامي، من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر، وأصله من طليطلة، سمع بمصر وصنعاء ثم رجع إلى الأندلس كان حافظاً للفقه، فصيحاً بصيراً باللغة العربية، كان عالماً بالذب عن مذهب مالك، توفي بالقيروان سنة ٢٨٨هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٤٨، ٤٤٩).

(٢) أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الأمم، تحقيق إحسان عباس، ط١، ص١٦٣، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠م.

(٣) محمد خلاف، وثائق في أحكام القضاء الجنائي، ص٣٨، ٣٩.

وبين طلابهم، وطلب الدعاء منهم، وزيارتهم في بيوتهم والسؤال عنهم.

ورغم سيطرة المالكية على الحياة الدينية في الأندلس بشكل كبير أيام بني أمية، إلا أن أمراء بني أمية أظهروا انفتاحاً كبيراً على المذاهب السنية الأخرى، رغم الجفوة التي يبديها فقهاء المالكية ضد المذاهب السنية الأخرى، فقد لعب أمراء بني أمية دوراً كبيراً في المحافظة على التعدد المذهبي السني في الأندلس، واستعانوا بهم في مناصب كثيرة دينيةٍ وإداريةٍ، وتكرر تعيين فقهاء المذاهب السنية كالشافعية والأوزاعية والظاهرية، وبرز منهم فقهاء وعلماء كبار حازوا مكانة كبيرة في الأندلس.

وبلغ الخليفة الحكم المستنصر مبلغاً كبيراً في استقدام العلماء من مختلف الأقطار، و لم يقتصر استقطابه لفقهاء المالكية فقط، رغم التزامه بالمذهب المالكي، فاستقطب عدداً من فقهاء الشافعية وقربهم ووصلهم وأدنى منزلتهم، واستفادت الدولة الأموية منهم في مجال محاربة الأفكار الدخيلة على المجتمع وعقيدته الإسلامية ووحدته الفكرية، لأن المذهب الشافعي يعتمد بشكل أساسي على الأخذ بمبدأ الحجة والنظر في معالجة التوجهات الفكرية المخالفة.

وقد شاركت المذاهب السنية الموجودة في الأندلس بدعم وتوجيه من أمراء بني أمية،على الوقوف في وجه الأفكار المخالفة والانفصالية، وكثيراً ما خرج الفقهاء لتسكين الثورات ورد المخالفين، كما وقفوا في وجه كل من يحاول أن ينشر فكراً مخالفاً، ورافق الفقهاء والعلماء أمراء بني أمية في غزواتهم الداخلية والخارجية، وقد أدى التعايش المذهبي السني داخل الأندلس إلى توحيد الجهود لتوجيه المجتمع الأندلسي للعقيد الصحيحة، والمحافظة على الهوية الإسلامية، ونبذ الأفكار المخالفة، وكان ذلك عاملاً أساسياً في عزوف المجتمع الأندلسي عن ارتكاب أي فعل مخالف ينطوي على مخالفة للعقيدة الإسلامية ومبادئها، وقلة أتباع من يدعوا للمذاهب الباطلة والهدامة .

لقد أسهمت الوحدة المذهبية في الأندلس المتمثلة بدعم السلطة الحاكمة للمذهب السني على تبوء الفقهاء مكانة متميزة في المجتمع، و لم تنزلق الأندلس في الصراع المذهبي كبقية بلدان العالم الإسلامي حولها، ساعد في ذلك ما حظي به الفقهاء من مكانة مرموقة ورئاسية من قبل المجتمع والسلطة الحاكمة، أفرز كل ذلك احترام السلطة للفقهاء والعلماء

وتقريبهم والأخذ برأيهم ودعمهم على اختلاف توجهاتهم المذهبية، بالإضافة إلى القبول من عامة الناس لكل ما يصدر عنهم من توجيهات وملاحظات، جعلت الفقهاء والعلماء المحور الأساسي لتوجيه الرأي العام نحو وحدة الصف، والوقوف مع السلطة الحاكمة صفاً واحداً في مواجهة سيل الفتن التي كانت تعصف في كثير من بلدان العالم الإسلامي في تلك الفترة.

الفصـــل الثالث

مواجهة حكام بني أمية للفكر الشيعي

المبحث الأول : مواجهة حركات التشيع داخل الأندلس.

المبحث الثاني : إعلان الخلافة السنية في الأندلس وإجبار العلويين في المغرب على الطاعة.

المبحث الثالث : دعم العلماء والقادة المناهضين للدولة العبيدية في أنحاء العالم الإسلامي.

المبحث الرابع : التحالف مع الدول والقبائل المجاورة ضد الدولة العبيدية.

يعتبر الفكر الشيعي من أشهر الأفكار التي واجهها حكام بني أمية في الأندلس، سواءً كان فكراً تتبناه بعض الحركات المعارضة داخل الأندلس، أو فكراً تتبناه دولاً وجماعات تحاول تغيير التركيبة المذهبية للأندلس وجارتها المغرب، لذا قاوم الأمويون هذا التوجه بشتى الطرق، ووقفوا موقفاً صارماً تجاه الفكر الشيعي، وحافظوا على الاتجاه السني لدولتهم منذ بدايتها وحتى نهايتها، وكان إعلانُ الخليفة عبدالرحمن الناصر نفسه خليفة للمسلمين حدثاً كبيراً، قصد به مواجهة تنامي الخلافة الشيعية في المغرب، ومحاولة إيجاد بديل سني لسكان المغرب والأندلس السنة، ونجح الأمويون في إجبار العلويين في المغرب على الطاعة، ومن ثم عزلهم عن النفوذ الشيعي في المغرب، كما قام الأمويون بدعم العلماء والثوار المناهضين للدولة العبيدية الشيعية، في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، ثم وصلهم بالأموال، واستقبالهم كذلك في الأندلس، وتكوين جبهة موحدة بمشاركتهم لتوحيد الجهود الفكرية والعسكرية ضد الفكر الشيعي العبيدي ودولتهم في المغرب، ولتحقيق أكبر قدر من محاصرة هذا الفكر تحالف الأمويون مع قبائل المغرب ضد الدولة العبيدية الشيعية، ووصلت رُسل الأمويين إلى أوربا للمساعدة في ذلك، وسنستعرض ذلك عن طريق المباحث التالية:

المبحث الأول

مواجهة حركات التشيع داخل الأندلس

حافظ الأمويون في الأندلس على الاتجاه السني لدولتهم منذ بدايتها وحتى نهايتها، ووقفوا موقفاً صارماً تجاه أي انحرافات فكرية تتعارض مع اتجاه البلد السني، وكان الفكر الشيعي من أشد الأفكار التي واجهها الأمويون في الأندلس، وقاوموا تغلغلها بشتى الطرق، فصدرت الفتاوى بتحريم هذا المذهب ومن يعتنقه منذ وقت مبكر من عمر الدولة، فقد أصدر عبدالملك بن حبيب الفقيه المشاور في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم فتوى تقول:"من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدباً شديداً، ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد، ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت"[١]. وتأكيداً للتوجه السني عند أمراء بني أمية ومحاربة جميع الأفكار بما فيها الفكر الشيعي، قول الأمير عبدالرحمن بن الحكم:"فإننا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم، وما نرى أن الله رفع مُلكنا، وجمع في هذه الجزيرة فلَّنا، وأعلى فيها ذكرنا، حتى صرنا شجى في حلق عدونا، إلا بإقامة حدوده، وإعزاز دينه، وجهاد عدوه، مع مجانبة الأهواء المضلة والبدع المردية"[٢]، ولذا من الواضح أن الأندلس منذ أن فتحت كانت أموية الهوى، سنية المذهب، ولذا بدأ التشيع فيها ضعيفاً، وطوال الفترة التي قضاها الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل في إدارة الدولة الأموية بالأندلس، نجح في إخماد الثورات التي قامت ضده وبشكل خاص كل دعوة هاشمية، عباسية كانت أم علوية[٣]، إلا أنه رغم ذلك وجد للتشيع في الدولة الأموية مركزان كانا مصدراً للثورات والقلاقل، الأول: البيوت العربية

---

(١) عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق عبده علي كوشك، ط١، ص٨٧٨، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم وحدة البحوث والدراسات، دبي،٢٠١٣م.

(٢) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٧.

(٣) من أشهر هذه الثورات ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي وعبدالرحمن الفهري وشقنا البربري وكيف واجهها الأمير عبدالرحمن الداخل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٥١/٢، ٥٤- ٥٥، ٥٦.

التي دخلت الأندلس وكانت تدين بنصرة آل علي من قبل فظلت فيها هذه النزعة، والثاني: بين قبائل البربر[1] والتي تتأثر بكل دعوة تنتسب لآل البيت.

أما عن كيفية دخول التشيع إلى الأندلس، فيذكر محمود مكي[2] طريقين لذلك:

الأول: الأندلسيون الذين رحلوا إلى المشرق وأخذوا بقليلٍ أو كثيرٍ من الثقافة الشيعية، لاسيما في العراق ومصر والمغرب.

الثاني: بعض المشارقة[3] الذين باشروا نشاطا دعائياً في الأندلس، أو قاموا بدور التجسس لمصلحة مواليهم الشيعة.

أما عن أول حركة ظهرت فيها نزعة التشيع في الأندلس، فهي ثورة عبدالله بن سعد بن عمار بن ياسر[4]، وقد استعان به يوسف الفهري[5] ضد الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل، وكان عبدالله بن سعد في تلك الفترة أميراً على اليمانية من جند الشام، ويعود السبب في اختيار يوسف الفهري له، الخلاف الذي كان بين بني عمار بن ياسر وبني أميه،

---

(١) محمود علي مكي، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، ط١، ص٧، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٢) التشيع في الأندلس، ص١٦.

(٣) المشارقة: المقصود بهم الدولة العبيدية (الفاطمية) وأتباعها الذين دخلوا إلى إفريقية، وأسقطوا الدولة الأغلبية وسموا بهذا الاسم نسبة إلى أن أهل المغرب أطلقوا على أبي عبدالله الشيعي الداعي المشرقي لأنه قدم من المشرق (عبد العزيز المجلوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم علي الشابي، ص ١٦٧، ١٨٤ ـ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٥م.

(٤) هو عبدالله بن سعد بن عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قدحج، وكان عبدالله بن سعد أول من دخل إلى الأندلس من ولد عمار بن ياسر وكان أميراً على اليمانية من جند دمشق (ابن سعد، الطبقات، ٢٤٦/٣، المقري، نفح الطيب، ٣٣٠/٢).

(٥) هو يوسف عبدالرحمن بن أبي عبيدة بن نافع الفهري من بني الحارث بن فهر وجده عقبة بن نافع صاحب الفتوح بإفريقية وهو أحد زعماء العرب بالأندلس اجتمع عليه أهل الأندلس من أجل أنه قرشي فدانت له الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر وكان آخر الأمراء بها وهزمه عبدالرحمن الداخل بها سنة ١٣٨هـ في معركة المصارة، واستمرت المعركة بينه وبين الداخل حتى قتل سنة ١٤٢هـ بطليطلة على يد مملوكين له (ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ٣٣٩/٤، ٣٤٠، المقري، نفح الطيب، ٢٩١/١).

فقد استشهد عمار بن ياسر رضي الله عنه في مواجهة مع جيش معاوية رضي الله عنه، فقد كان عمار من شيعة علي رضي الله عنهم أجمعين[(١)]، و لم يكتب لهذه الثورة النجاح بل قضي عليها في مهدها.

أما أخطر حركة شيعية في الأندلس، فهي ثورة رجل يسمى شقنا البربري بن عبد الواحد المكناسي، وهو معلم صبيان ادعى أنه من آل البيت، وأنه من ولد فاطمة بنت الرسول ﷺ، وتسمى بعبدالله بن محمد، وعرف بالدعي الفاطمي، وقد تصدى له الأمير عبدالرحمن الداخل وحاربه، وكان كلما أحسّ بهزيمته لجأ إلى الجبال، وقد اشتد أمره وعبثه فأفسد في البلاد، واستمرت ثورته عشر سنوات، من سنة ١٥٠هـ حتى سنة ١٦٠هـ، ثم قتله اثنان من أتباعه ولحقا بعد عبدالرحمن الداخل[(٢)]، ولعل هذه الحركة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي، كما كشفت هذه التجربة عما يمكن للدعوات الشيعية أن تصيبه من النجاح في أوساط القبائل البربرية[(٣)].

كما ثار على الأمير عبدالرحمن الداخل رجل ينسب إلى علي بن أبي طالب، ثار في الهواريين[(٤)] بجانب جيان[(٥)]، ولكن لم يتمكن من تحقيق شيئاً يذكر إذ انتصر عليه عبدالرحمن الداخل[(٦)].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٣٣٠/٢، ٦١/٣.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٢٠٠/٥-٢٣٧، ابن عذاري، البيان المغربي، ٥٤/٢.

(٣) محمود مكي، التشيع في الأندلس، ص١٠.

(٤) الهواريون: من هوارة بطن من بطون البرانس باتفاق النسابة العرب والبربر، من ولد هوار بن أوريغ بن برنس وبطون هوارة كثيراً وأكثرهم بنو نية وأوريغ (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٨٢/٦-١٨٣).

(٥) جيان: مدينة بالأندلس، تحدها قرطبة من الغرب وطليطلة من الشمال وتدمير من الشرق وإلبيرة من الجنوب بينها وبين بياسة عشرون ميلاً، كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم والعسل وعلى ميل منها نهر بلون وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة جداً وبها مسجد جامع وعلماء جلة، وجيان في سفح جبل ومشهورة بالحرير، وحاضرتها اليوم تعد عاصمة إحدى المحافظات التي تتألف منها مقاطعة الأندلس جنوبي إسبانيا (الحميري، الروض المعطار، ص١٨٣، محمد أبالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص٦٣).

(٦) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص٥٤.

وفي عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن دخل الأندلس الأديب أبو اليسر الرياضي[١]، وكان هذا الأديب ممن تأثر بأفكار الشيعة، وجال في البلاد شرقاً وغرباً من خراسان إلى الأندلس، وقد اخترع كتاباً على لسان أهل الشام في الدعوة للدولة الأموية والخطبة لها في الشام، وعلم الأمير محمد بن عبدالرحمن أن هذا الكتاب منتحل غير صحيح لكنه لم يفصح لأبي اليسر بذلك، بل وصله وأنزله ووسع له، ولم يسمح له فيما يبدو بممارسة أي نشاط دعائي مما اضطر إلى مغادرة الأندلس[٢]، وقد اتهم هذا الأديب بأنه جاسوس محتال[٣]، ويتتبع سيرته بعد ذلك، نراه يرحل إلى مصر ثم ينتقل إلى إفريقية، ويعمل كاتباً لآخر أمراء الأغالبة، ثم عمل كاتباً لعبيد الله المهدي أول حكام الدولة العبيدية حتى وفاته سنة ٢٩٨هـ، فقد يكون هذا الأديب من دعاة الدولة العبيدية الذين نشطوا في المغرب قبل قيامها، ولم يستطع أن يحقق مطلوبه في الأندلس فغادرها[٤].

ويعلق محمود مكي[٥] على مهمة أبواليسر الرياضي في الأندلس فيقول:"إذا كان لم ينجح كل النجاح في مهمته السياسية في الأندلس، فلا ريب أنه استطاع أن ينقل إلى هذه البلاد بعض الثقافة الأدبية الشيعية، فقد أدخل إلى الأندلس شعر أبي تمام[٦]، وكذلك شعر دعبل الخزاعي[٧]، الذي كان من أهم ألسنة الشيعة في المشرق، إلى جانب كثير من رسائل

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد الشيباني، يكنى أبا اليسر، ويعرف بالرياضي، من أهل بغداد وسكن القيروان، سمع ببغداد، وعاصر كثيراً من الشعراء والأدباء كالجاحظ والمبرد وثعلب والبحتري ودعبل وغيرهم، له مؤلفات كثيرة في الأدب والشعر، توفي في أول ولاية عبيد الله الشيعي سنة ٢٩٨هـ (ابن الأبار، التكملة، ١٢٣/١).

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٢/١، ١٦٣، المقري، نفح الطيب، ١٣٤/٣.

(٣) محمود مكي، التشيع في الأندلس، ص ٢٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٢/١، ١٦٣، المقري، نفح الطيب، ١٣٥/٣.

(٥) التشيع في الأندلس، ص٢٦.

(٦) هو حبيب بن أوس أبو تمام الطائي الشاعر، شامي الأصل، كان بمصر في حداثته يسقي الماء في الجامع ثم جالس الأدباء، وتعلم منهم، وكان يحب الشعر حتى ذاع صيته وبلغ المعتصم، فحمل إليه، فعمل أبو تمام فيه قصائد عدة، وأجازه المعتصم، وقدمه على شعراء وقته، توفي بالموصل سنة ٢٣٢هـ (الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ بغداد، ط١، ١٥٧/٩ - ١٦٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١م).

(٧) هو دعبل بن علي بن رزين بن عثمان، يكنى أبا علي الخزاعي، شاعر أصله من الكوفة، ويقال من قرقيسيا، كان يتنقل بالبلاد، وأقام ببغداد مدة ثم خرج منها هارباً من المعتصم لما هجاه، وعاد إليها بعد ذلك، كان خبيث اللسان، قبيح الهجاء، ولد سنة ١٤٨هـ وتوفي سنة ٢٤٦هـ (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٦٠/٩-٣٦٤).

الكتّاب العباسيين المحدثين، وكان له مؤلفات ذاع صيتها في الأندلس، منها مؤلف في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه، ولا نستبعد أن يكون اتجه فيه اتجاهاً يلائم الدعوة التي كان ينتسب إليها.

وفي فترة القلاقل والضعف التي عاشتها الدولة الأموية بالأندلس بعد الأمير محمد بن عبدالرحمن وحتى إمارة الأمير عبدالرحمن الناصر، وبالتحديد في عهد الأمير عبدالله بن محمد، دخل إلى الأندلس أحد دعاة الشيعة وهو أبو جعفر أحمد أو محمد حسب اختلاف الروايات(١) بن هارون البغدادي(٢)، ويبدو أنه دخل على هيئة طالب علم وهو في الحقيقة جاسوسٌ يعمل لصالح الدعوة الشيعية في المغرب وتردد أعواماً على الأندلس(٣).

ونظراً لأوضاع الأندلس والدولة الأموية أيام الأمير عبدالله بن محمد، فقد زادت الثورات في الأندلس، وتقلصت مساحة الدولة الأموية، لم ينتبه المعنيون بالشأن الأموي لهذا الداعية الجاسوس، فقد دخل الأندلس بهدوء وخروج منها بهدوء أيضاً، مع يقيننا التام بأنه لم يوفق نهائياً في نشر المذهب الشيعي والدعاية له في الأندلس، ليقظة الفقهاء ووقوفهم ضد أي فكر مخالف، حتى لو كان سنياً فكيف بالمذهب الشيعي، ويعلق محمود مكي(٤) على نشاطه في الأندلس فيقول:"لا نعرف بالتفصيل مدى توفيقه في دعايته السياسة والمذهبية، وإن كان فيما يبدو أفاد مواليه العبيديين بمعلومات على جانب كبير

---

(١) عند ابن الفرض اسمه أحمد، تاريخ علماء الأندلس ص٦٠، وعند ابن الأبار وابن عذاري اسمه محمد، انظر: ابن الابار التكملة، ١٣٤/٢، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٣/١.

(٢) هو أحمد بن محمد بن هارون البغدادي، يكنى أبا جعفر، أدخل الأندلس بعض كتب ابن قتيبة وبعض كتب الجاحظ انصرف إلى المشرق بعدما تردد في الأندلس أعواماً واستقر بعد ذلك هناك، ودخل الأندلس متجسساً، واستكتبه بعد ذلك عبيدالله المهدي بعد أبي اليسر الرياضي وقربه، فولاة الكتابة وديوان البريد، واستعان به على أمر الدعوة الشيعية، وانتفع به نفعاً عظيماً، وظل هذا الداعية مقرباً من عبيد الله المهدي حتى وفاة عبيد الله، ولمّا تولى ابنه أبو القاسم والملقب بالقائم بأمر الله بعده سنة ٣٢٢هـ، أقر أبا جعفر البغدادي على البريد والكتابة، وفوّض إليه كثيراً من أمور مملكته (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦٠، ص٦١، ابن الأبار، التكملة، ١٣٤/٢، ابن عذاري، البيان المغرب، ١/ ١٦٣).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦١.

(٤) التشيع بالأندلس، ص٢٦، ٢٧.

من الأهمية فيما يتعلق بأوضاع الأندلس الاجتماعية والدينية، بدليل أنهم عهدوا إليه بأكبر مناصب دولتهم".

وممن اتهم بالتجسس لصالح الدولة العبيدية في داخل الأندلس، الرحالة المعروف بابن حوقل[١]، فقد اتهمه بعض الباحثين[٢] بأنه كان جاسوساً للعبيديين، دخل الأندلس على هيئة تاجر ليستطلع أحوال الأندلس، ولدراستها لمصلحة مواليه العبيديين، ولدعمهم في توجيه ضربة إليها، وعللوا ذلك باهتمام ابن حوقل بصفة خاصة بتسجيل دخل الدولة ومواردها الاقتصادية، وتعداد خيراتها، ووصف طرقها ومسالكها وأحوالها من الناحية العسكرية، ومحاولته إقناع العبيديين بضرورة فتح الأندلس لكثرة خيراتها من ناحية، ولضعف أهلها في الدفاع عنها من ناحية أخرى[٣]، إلا أن الدولة الأموية لم تهتم بهذا الرحالة، بالإضافة إلى أن دعوته لم تجد آذانا صاغية من قبل مواليه العبيديين .

وفي سنة ٣٣٣هـ ظهر بأشبونة[٤]، رجل يزعم أنه من ولد عبدالمطلب، وأن أمه مريم ابنة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وادعى مع النسب أنه نبي، وأن جبريل ينزل عليه، وسن لأتباعه سنناً وشرع لهم شرائع، منها حلق الرأس وغير ذلك مما لا يعقل، ثم وقع عليه البحث فخفي أثره[٥]، ورغم أن هذا المدعي قد اتخذ من انتسابه لآل البيت وإظهار تشيعه ستاراً يخفي خلفه مذهبه المنحرف، إلا أنه فيما يبدو لم يجد من الأتباع ما

---

(١) هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، يكنى أبا القاسم رحالة من علماء البلدان، كان تاجراً، رحل من بغداد سنة ٣٣١هـ ودخل المغرب وصقلية، وجاب الأندلس وغيرها، ويقال أنه كان عيناً للعبيديين توفي بعد سنة ٣٦٧هـ (خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، ط١٥، ١١١/٦، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م).

(٢) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١٣٠،١٢/٢، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٨١،١٨٢ ، محمود مكي، التشيع في الأندلس، ص٢٨.

(٣) ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، ص١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، دار مكتبة الحياة بيروت، ١٩٩٢م .

(٤) أشبونه: مدينة قديمة ساحلية غرب الأندلس، من كور باجة، ومنها خرج ما يسمى برحلة الفتية المغرورين إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وهي حالياً عاصمة جمهورية البرتغال (الحميري، الروض المعطار، ص٦١، محمد أبا الخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص٣١).

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢١١/٢.

يكفي للقيام بثورة ضد الدولة الأموية، فسرعان ما اختفى، ولا تزودنا المصادر عن عدد أتباعه أو مصيرهم بعد هروبه، كما تبرز تلك الحادثة سرعة الدولة الأموية في القضاء على أي توجه شيعي في الأندلس ومحاولة وأده في مهده.

ومن أشهر حركات التمرد التي واجهها الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر، حركة المتمرد عمر بن حفصون، وقد استفاد هذا المتمرد من الخلاف المذهبي بين الأمويين السنة والعبيديين الشيعة، فقام في سنة ٣٠١هـ بمبايعة إمام العبيديين عبيد الله المهدي، وكتب له بذلك، فبعث له عبيد الله المهدي بعهده على جميع الأندلس، كما بعث إليه بهدية وثياب خز، وكتب إليه بمذهبه في الأذان والصلاة والخطبة، وإقامة ذلك في الأندلس[١]، ويذكر ابن الخطيب[٢]: أن عبيد الله المهدي وجه إلى ابن حفصون برجلين من الدعاة العبيديين، فبينوا له كيفية التزام الطاعة وتطبيق المذهب، كما شاركوا في بعض حروبه مع الأمويين، ثم أرجعهم إلى عبيد الله بعد مدة من الزمن مع هدايا ثمينة وجهها إلى عبيدالله المهدي، ويعلل محمود مكي[٣] اتجاه ابن حفصون للعبيديين وإيمانه بدعوتهم؛ رغبته باتخاذ المذهب الشيعي مطية لتنفيذ أغراضه، بالإضافة إلى أنه يكايد به الأمويين في قرطبة متى شاء، بدليل أنه لم يكن مخلصاً للدعوة العبيدية خلال أيام ثورته.

وقد تمكن الخليفة عبدالرحمن الناصر من توجيه ضربات متتالية لابن حفصون وأبنائه من بعد، حتى استسلموا في النهاية، فدخل إلى معقلهم مدينة ببشتر[٤] سنة ٣١٦هـ، وضبطها وأمر بهدم المسجد الجامع الذي اتخذه ابن حفصون أول ثورته خدعة لمن كان معه من المسلمين فسوي بالأرض، وأحرق منبره الذي كان يدعو فيه لإمام العبيديين

---

(١) مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢٠٠، ٢٠١.

(٢) لسان الدين ابن الخطيب السلماني، أعمال الأعلام، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، ط٢، ص٣٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.

(٣) التشيع في الأندلس، ص١٣.

(٤) ببشتر أو بباشتر، حصن من أعمال ريّه، يقع بين رندة ومالقة، وموقعه الآن شمال نهر ريوجوردو في سلسلة جبال الملك بالقرب جدا من ضيعة أوطة (ياقوت، معجم البلدان، ٣٣٣/١. ابن سعيد : علي بن موسى بن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، ٥٣/١، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٩م، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص٤٤).

عبيدالله المهدي، وقد كتب الناصر كتاباً للعمال في جميع الأندلس يخبرهم فيه بكل ما كان من فتح وتدمير لمخلفات ابن حفصون ليكون عبرة لغيره[١].

وفي مواجهة الناصر لابن حفصون وأبنائه من بعده طوال ست عشرة سنة من حكمه، ثم قيامه بهدم جامعه ومنبره الذي كان يخطب عليه للشيعة، دليل على عدم تهاون الأمويين في الأندلس مع معتنقي المذهب الشيعي، وإزالة كل ما يمكن أن يكون وسيلة في يوم من الأيام للدعاية لهذا المذهب، وتوجيه الرسائل بذلك لجميع الأندلس، ليُعلم أن هذا مصير كل من يفكر باعتناق هذا المذهب والدعوة إليه.

وكانت الكتب تقرأ في جوامع قرطبة والزهراء وأنحاء مختلفة من الأندلس، تبشر الناس بالانتصارات التي تتحقق على الشيعة في المغرب، بل أن أكواماً من الرؤوس كانت ترسل من المغرب للأندلس لقتلى الشيعة هناك، يتم الاستعراض بها في قرطبة[٢]، وقد ترسل إلى أماكن مختلفة من الأندلس إذا دعت الحاجة لذلك، وكان الهدف من ذلك طمأنة الجبهة الداخلية في الأندلس، وإخبارها أن الأمويين لا يتهاونون مع هذا المذهب، وتوجيه رسالة لكل من تسول له نفسه مناصرة هذا المذهب أو اعتناقه في الأندلس.

وتأكيداً على ما سبق أمر الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس، وأنفذ كتبه بذلك إلى سائر العمال بجميع الأقطار التابعة له[٣].

وفي عهد الخليفة الأموي الثاني الحكم المستنصر، نشط في تتبع كل من ينتحل مذهب الشيعة ويتقرب إلى المشارقة في إفريقية ومصر، فقد قام التاجر محمد بن سليمان المعروف بابن نقورة[٤] بالقبض على عبدالملك بن سميت المعروف بخنوص[٥]، وكان هذا الرجل قد

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٥-٢٢١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢١٧، ٢١٨.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٢٠.

(٤) هو محمد بن سليمان يعرف بابن نقورة، فيما يبدو أنه كان تاجراً يتحول ما بين المغرب والأندلس وله صلات بالأمويين في الأندلس (ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٨٦-٨٨).

(٥) هو عبد الملك بن سميت يعرف بخنوص، كان يعمل في حاشية الأمير الحكم المستنصر ثم خرج إلى المغرب والتحق بالشيعي محمد بن المنصور إسماعيل في مصر، فقبض عليه في طريق رجوعه إلى الأندلس، وأودع =

ترك مذهب السنة وتشيع، ثم خرج إلى الشيعي معد بن إسماعيل[١]، وتم القبض عليه في أثناء رجوعه إلى الأندلس، فأُرسل مأسوراً إلى قرطبة وأودع سجن الزهراء، وأغدق الخليفة الحكم المستنصر على من قبض عليه الهدايا والخلع، وفي سجنه بالزهراء التقى خنوص بسجين أخر اتهم بالتشريق[٢] لقرابة تربطه بأمراء المشارقة في إفريقية ومصر[٣].

وبإيعاز من الخليفة الحكم المستنصر تم طرد الشاعر ابن هاني الأندلسي[٤] من الأندلس، وكان هذا الشاعر قد قضى فترة شبابه بالأندلس، لكنه أظهر تأثره بدعوة العبيديين، وقد يكون سبب طرده الخوف من تأثيره على أفكار شباب الأندلس، نظراً لأنه شاعر وشاب أيضاً، وبخروجه من الأندلس سنة ٣٦٢هـ التحق بخدمة المعز لدين الله العبيدي معد بن إسماعيل، وأصبح شاعراً للدعوة الشيعية العبيدية[٥].

وتأكيداً لسياسة والده الخليفة عبدالرحمن الناصر قام الحكم المستنصر برفع رأس أحد الزعماء المغاربة[٦] المتحالفين مع الشيعة على باب السدة الكبير[٧]، ليشاهده الناس فيلعنونه

=

سجن الزهراء سنة ٣٦١هـ (ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٨٧، ٨٨).

(١) هو أبو تميم معد بن إسماعيل المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي، يلقب بالمعز لدين الله العبيدي، بويع بولاية العهد في عهد والده إسماعيل ثم تولى الحكم سنة ٣٤١هـ وفي عهده انتقلت الدولة العبيدية إلى مصر بمساعدة قائده المشهور جوهر الصقلي، توفي سنة ٣٦٥هـ وخلفه ابنه تميم (ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط١، ٥/٢٢٤، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م).

(٢) التشريق: المقصود به اعتناق مذهب الشيعة العبيديين في إفريقية ومصر.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٨٦-٨٨.

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور قيل أنه من ولد يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبي صفرة، ولد بالأندلس بمدينة إشبيلية كان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم التحق بالمعز لدين الله العبيدي ولكنه اغتيل في برقة سنة ٣٦٢هـ.(ابن خلكان، وفيات الأعيان/٤/٤٢١/٤٢٢).

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤/٤٢١/٤٢٢).

(٦) هذا الزعيم هو: محمد بن عبدالسلام خال أشهر أمراء الأدارسة محمد بن قنون الإدريسي،وقدكان ظهيراً له ومدبراً لشأنه، لايقدم أمراً، ولا يؤخره إلا عن رأيه ومشورته (ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٤١.

(٧) أحد أبواب مدينة قرطبة.

والجميع من تذهب مذهبه من أهل التشريق والبدع المضلة، كما أمر بمكافأة كل من شارك بهذا العمل[١]، كما قرئت الكتب التي أرسلت من الخليفة الحكم المستنصر إلى القادة والعمال بأقطار الأندلس في عموم جوامع الأندلس، وفيها كيف منّ الله على الخليفة بدحر الشيعة من المغرب، وتخليصها من الزيغ والإلحاد، ومبايعة جميع ملوك الصقع في المغرب للخليفة[٢].

ومما سبق يتضح أن الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر حملوا على عاتقهم مهمة المحافظة على الأندلس خالية من أي رسوم شيعية، فنجحوا في القضاء على جميع الثورات التي صبغت بأي لون شيعي في الأندلس، كما نجحوا في ملاحقة الأفراد الذين انضموا إلى الشيعة العبيديين، والقبض عليهم وسجنهم، وشاركهم الشعب على مختلف توجهاته في الإبلاغ عنهم والقبض عليهم، فحازوا بذلك المكافآت والخلع الثمينة، وعليه تمكن الأمويون من الإبقاء على الأندلس سنية المذهب أموية السياسة، كما استطاعوا أن يوصلوا في نفوس شعبهم كراهية التشيع طوال الفترة التي تمتعت بها الأندلس بقوة حكامها الأمويين، ولذا كان نجاح الدعوة الشيعية وبالأخص العبيدية في اجتذاب أنصار لها في الأندلس ضعيف جداً،و لم يرتقِ لمرحلة التأثير على سنية الأندلس وأمويته.

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٤١-١٤٣.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٧٨.

المبحث الثاني

إعلان الخلافة السنية في الأندلس وإجبار العلويين في المغرب على الطاعة

لم يتخذ الأمراء الأمويون في الأندلس سمة الخلافة، و لم يتلقب بهذا اللقب أحد من أمراء البيت الأموي الأوائل، بل حرصوا على أن يتلقبوا بلقب الأمير أو السلطان، وفي بعض الأحيان كانوا يسمون بأبناء الخلائف[١]، وحين نعود إلى مؤسس الدولة الأموية في الأندلس الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل (١٣٨-١٧٢) هـ نجد أنه قام بإيقاف الدعاء للخليفة العباسي على منابر الأندلس، وفي أيامه استمرت الخصومة السياسية بينه وبين العباسين، ولا ننسى أنه سليل أسرة تولت الخلافة لما يقارب التسعين عاماً، ورغم ذلك لم يتخذ لقب الخليفة، وقد يعود السبب في ذلك إلى شعوره بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد، وأن الخروج عنها عصيان ديني أخذاً بالحديث الشريف المروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"[٢]، كما أن الخليفة الشرعي لابد أن يكون حامي الحرمين الشريفين، ومسيطراً على الحجاز مكة والمدينة، وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو من يحميها ويسيطر عليها، وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته:[٣]"وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين، وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق،المواطن التي هي ديار العرب، ومركز الدولة وأصل الملة ... وتجافى بنو أمية عن ذلك ... وأما بالأندلس فتقليداً لسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن الخلافة التي استأثر بها بنو العباس، ثم بالعجز عن ملك الحجاز، أصل العرب والملة".

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٣٠٢، ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٨/٢، ٤٩، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٦٩.

(٢) الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، كتاب الإمارة، الباب ١٥، رقم الحديث ١٨٥٣، ١٤٨٠/٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

(٣) المقدمة، ٣٨٣/١، ٣٨٤.

ولكن في أواخر القرن الثالث الهجري تغير هذا المفهوم بعد أن تعددت أشكال وألوان الخلافة، فقامت الخلافة العبيدية في بلاد المغرب سنة ٢٩٧هـ، وأصبحت منافساً خطيراً للدولة الأموية في الأندلس(١)، بالإضافة إلى ما آل إليه حال الخلافة العباسية في ذلك الوقت من الضعف والتفكك(٢)، ومع هذه التغيرات في الظروف السياسية حتم ذلك الخروج على الأصل النظري في منع وجود خليفتين في وقت واحد وشرط استيلائه على الحجاز، إلى وضع هذا الأصل النظري محل الاجتهاد، ومن ثمَّ أجاز أهل السنة لأنفسهم تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقتضي ذلك، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد، على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين(٣)، وفي ذلك يقول الماوردي(٤)"وإذا عقدت الإمامة لإمامين في بلدين لم تنعقد إمامتهما، لأنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامين في وقت واحد، وإن شذ قوم فجوزوه".

وقد دفع أهل الأندلس بهذا الاتجاه، فهم الذين طلبوا من الأمير عبدالرحمن بن محمد أن يكون خليفة وبايعوه على ذلك، وحملوه على حمل هذين الاسمين: أمير المؤمنين والناصر لدين الله، وصاروا يخاطبونه باسم الخليفة قبل إعلانه رسمياً، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الحلل الموشية:"وربما كان بعض أولي التحصيل والتأمل من الناس سموه بهذا الاسم قبل أن يتسمى به هو، وخاطبه كثير من خاصتهم في كتبهم وأشعارهم فكثر ذلك عليه، ووافاه من كل ثنية وجاءه من كل ناحية، حتى اضطره إلى حمله، وحاجوه في أن يكون باخساً لنفسه في رفضه، وهونوا عليه مخالفة آبائه في اقتصارهم على سواه، واستشهدوا عليه بما فهمه الله سليمان في الحكمة دون والده عليهما الصلاة والسلام"(٥)

---

(١) محمد بن علي بن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، ص٣٥-٤١، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠١هـ.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٧/٢.

(٣) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٦٩.

(٤) الأحكام السلطانية، ص٣٧.

(٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط١، ص٣٠، ٣١، دار الرشاد، الدار البيضاء، ١٩٧٩م .

ومما سبق يتضح مدى التعبئة التي كانت عليها الأندلس قيادة ورعية ضد المد الشيعي في المغرب، وكيف أن أهل الأندلس على اختلاف توجهاتهم واهتماماتهم يشعرون بأهمية مواجهة المد الفكري الشيعي، وأحقية أن تكون القيادة السنية في الأندلس هي مركز الإسلام السني على الأقل في المغرب والأندلس، ولا يتم ذلك إلا بإعلان الخلافة والقفز على كل العقبات التي تحول بين الأمير عبدالرحمن الناصر وبين إعلان نفسه خليفة للمسلمين، ومن هذه العقبات عدم تلقب آبائه وأجداده بهذا اللقب، واحترامهم للخلافة السنية الوحيدة في المشرق والمتمثلة بالدولة العباسية، وتذكير الأمير عبدالرحمن بأنه هو أحق بهذا اللقب من غيره، خصوصاً بعد النجاحات التي حققها في سنوات حكمة الأولى، وقضائه على كثير من الثورات وإعادة الأمن والاستقرار لأقاليم كثيرة بالأندلس[١].

وفي سنة ٣١٦هـ أدرك الأمير عبدالرحمن الناصر أن الأمور قد استتبت له بالأندلس، فأقدم على إعلان الخلافة، وقرر أن تكون الدعوة له في جميع ما يجري ذكره فيه بأمير المؤمنين، وإنفاذ كتبه إلى جميع أقطار الأندلس، وأمر عماله فيها بذلك، ويعود السبب في ذلك كما يذكر ابن حيان:[٢]"بأنه المستحق لها دون غيره، فهو أمير ابن أمراء المؤمنين، وسلالة الهداة الفاضلين، والأئمة المتقين القائمين بالحق"، أما المنشور العام الذي أمر بقراءته في جوامع الأندلس، فقد قال فيه:"بسم الله الرحمن الرحيم"صلى الله على نبيه الكريم، أما بعد: فإن أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه، فنحن للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطانه إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أساد في الأفاق من ذكرنا وأعلى في البلاد من أمرنا... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك، إذا كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لايستحقه منه، وعملنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر في مخاطباتك لنا عليه إن شاء الله"[٣].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٥٧ – ٢٠٤.

(٢) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤١.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤١، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٩٨، ١٩٩.

وكانت أول دعوة أقيمت له على منبره في المسجد الجامع بقرطبة، حيث عهد إلى صاحب الصلاة بقرطبة الفقيه القاضي أحمد بن بقي بن مخلد بالدعاء له في خطبة الجمعة، وتلاوة بيان الخليفة في أول ذي الحجة من سنة ٣١٦هـ، فاستمرت التسمية حتى انقرضت دولتهم[١].

وفي خطاب الخليفة الناصر يتضح مدى ثقته بنفسه، واعتبار أن تلقبه بلقب الخلافة أمر واجب عليه، وأنه حق له ولمن قبله ولكن تم إضاعته وإسقاطه، ولم ينس في خطابه أن يعرج على خلافة العبيديين، فقد بين في خطابه أن تسميهم بهذا اللقب إنما هو انتحال وسرقة، وأنهم دخلاء عليه، بالإضافة إلى عدم استحقاقهم له، وهذا يثبت ما أورده بعض المؤرخين أن سبب تلقبه بهذا اللقب يعود بالدرجة الأولى إلى تلقب بني عبيد بهذا اللقب، بالإضافة إلى ضعف الخلافة العباسية في تلك الفترة[٢]، لذا لم يغب عن ذهن الخليفة الناصر الأثر الذي سيتركه قيام خلافة شيعية فتية معادية بالمغرب، وأن عدم مواجهتها بنفس الفكر سيخلق مشاكل له ولمن بعده بالأندلس، وعليه أصبح الخليفة عبدالرحمن الناصر أول أمير في الأندلس يتلقب بأمير المؤمنين، فضربت السكة باسمه، ونقشت عليها ألقاب الخلافة[٣]، وأقيمت الدعوة له على منابر الأندلس والمغرب الأقصى، يقول المقري[٤]:"كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام استقر بها سرير الخلافة المروانية".

وقد شجع إعلان الخلافة من قبل الأمويين في الأندلس، أهل المغرب لتأييدها احتماء بها من التدخل الشيعي في المغرب، فقد جاءت وفود المغرب تعلن طاعتها للخليفة عبدالرحمن الناصر، وتنضوي تحت لوائه[٥]، يقول ابن الخطيب[٦]:"وتوالت عليه بعد ذلك

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤١، ٢٤٢، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٨/٢.

(٢) الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٨، مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤٣، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٨/٢.

(٤) نفح الطيب، ١٥٣/١.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥٥-٢٥٧، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٣٧.

(٦) أعمال الأعلام، ص٣٧.

المنوح، وأذعنت الأعداء، وقدمت عليه رسل الملوك بالعدوة المغربية من زناته[١]، والأدارسة[٢]، والقيروان، وجزائر بني مزغناي[٣]، مبايعة طائعة له".

وقد اعتبر العبيديون في إفريقية هذا الفعل من قبل الأمويين في الأندلس تعدياً على حق من حقوقهم، وأن هذا اللقب خاص بأئمتهم لا يشاركهم فيه أحد، لذا حرص المعز لدين الله العبيدي على إنكار هذا الفعل، وأرسل تهديده لأهل الأندلس قيادة وشعباً قال فيه:"وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما يتسمى دون من سلف من آبائه وإمام الأئمة بدعواه وانتحاله، ونحن نقول إنا أهل ذلك دونه ودون من سواه، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الأصلية، والبغضة في الإسلام والجاهلية"[٤].

وبموجب هذا العداء الشديد بين الطرفين، حرص كل طرف على استمالة أمراء الأدارسة في المغرب لصفه، وتمكن العبيديون من إجبار أمير الأدارسة يحيى بن إدريس[٥]،

---

(١) زناته: يقال لهم زناتة باسم أبيهم وهم بطن من البربر ببلاد المغرب، وقد اتفق أغلب المؤرخين على أنهم من العرب، وأكثرهم في بلاد المغرب (أحمد القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، ص ٢٧٣، ٢٧٤ ، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م).

(٢) الأدارسة: بطن من بني الحسن سبط علي ابن أبي طالب رضي الله عنه من بني هاشم من العدنانية، وهم بنو إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان لهم ملك بالمغرب الأقصى حكموا بلاد المغرب سنة ١٧٣هـ حتى قضى على حكمهم المنصور بن أبي عامر بعد ضمه المغرب للأندلس (القلقشندي، نهاية الأرب، ص١٦٧).

(٣) جزائر مزغناي: جمع جزيرة وهي اسم علم لمدينة على ضفة البحر بين المغرب وإفريقية بينها وبين بجاية أربعة أيام وهي من خواص بلاد بني حماد بن زيري وتعرف بجزائر بني مزغناي وهي مدينة قديمة تعاقبت عليها أمم عديدة (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٣٢/٢)، وهي في وقتنا هذا مدينة الجزائر عاصمة دولة الجزائر حالياً.

(٤) القاضي النعمان بن محمد، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، ط١، ص١٦٨، دار المنتصر، بيروت، ١٩٩٦م.

(٥) هو يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الحسني العلوي من أعاظم ملوك الأدارسة في المغرب الأقصى، ولي الأمير بعد مقتل يحيى بن القاسم سنة ٢٩٢هـ وبايعه أهل فاس، مات طريداً شريداً بالمهدية سنة ٣٣٢هـ (السلاوي : أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ٢٣٨/١، ٢٣٩، دارالكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، الزركلي، الأعلام، ١٣٧/٨).

على بيعة عبيدالله المهدي في البداية، فأعلن ولاءه لهم في عـام ٣٠٥هـ[١]، كما استجاب لدعوة العبيـديين أكثر أمـراء الأدارسـة مـن بعـده[٢]، إلا أن ابـن عمهـم إدريـس إبـراهيم السلماني كَاتَبَ الخليفة عبدالرحمن الناصر عـام ٣١٦هـ، وأبلغـه أنـه خـارج على جميع الحسينيين الذين بايعوا عبيدالله المهدي، كما أبلغه بولائه له وللدولـة الأمويـة في الأنـدلس، وكرهه لعبيد الله المهدي، وأنه لم يجب له دعوة، ولم يرفع له رايـة، ولم يـتم ذكـر اسمـه في منبر ولا مسجد في أي أرض تابعة له، كما بث شكواه للخليفة من تحالف عدد مـن أبنـاء عمه مع عبيدالله المهدي، وذكرهم بأسمائهم[٣].

وفي عام ٣١٧هـ أرسل القاسم بن إبراهيم الحسني كتاباً إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر يعلن ولاءه له، فأحسن الخليفة تقبل كتابه، وأوسع المكافأة له، وقربه في حاشيته[٤].

ومن أمراء الأدراسة في المغرب الذين انحازوا إلى الدولة الأموية بالأندلس الحسـن بـن عيسى الحسني، فقد كاتب الخليفة عبدالرحمن الناصر عام ٣١٨هـ، خاطباً مودتـه، معترفاً بطاعته، وكان مع كتابه هدية جليلة ثمينة أرسلها للخليفة يقول ابن حيـان[٥]فيهـا: "لم يـك في هدايا الملوك بالمغرب قبل مثل هديتـه، فأرضـاه الناصـر لـدين الله بالتوسـع لـه بالمكافـأة عليها بما استغرق مقدارها، وقبل فيئته وعقـد ولايتـه، فلحـق بأهـل طاعتـه"، ولمـا عـبرت جيوش الخليفة عبدالرحمن الناصر إلى المغرب لضم سبتة[٦]من أرض العـدوة عـام ٣١٩هـ، حاول بعض أمراء الأدارسة في المغرب منع سـقوطها بيـد الدولـة الأمويـة في الأنـدلس، إلا أنهم لم يفلحوا، فأرسل إبراهيم بن محمد الحسني ومن معه من ولد أبيـه محمـد بـن إدريـس الحسني إلى الخليفة الناصر يعتذرون منه، ويعلنون طاعتهم لـه، ومبـايعتهم للخليفـة، فـأظهر

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٠، ٢١١.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٦٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٦٢-٢٦٤.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٦٥.

(٥) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٦٥.

(٦) سبتة مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط تقابل الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، مطلة على مضيق جبل طارق شمالي المغرب الأقصى(الحميري، الروض المعطار، ص٣٠٣).

تصديقهم وقبول معذرتهم ورغب في استصلاحهم وتسكين فتنتهم، ثم أرسل إليهم مبعوثه الخاص القاضي محمد بن عبدالله بن أبي عيسى فأخذ منهم البيعة[١].

وكانت البيعة السابقة من آل محمد الحسني للخليفة الناصر دافعاً لبني عمهم آل عمر إدريس الحسني للمسارعة للبيعة، فقد تقدم عدد من كبارهم ورؤسائهم مثل إبراهيم وعيسى وأبو العيش بنو إدريس بن عمر بن إدريس للخليفة الناصر لدين الله بالبيعة والطاعة، فقبل منهم الناصر بيعتهم، وأحمد أمرهم، وألف ما بينهم وبين بني عمهم، فسكنت الثائرة بينهم[٢].

وبعد تمكن الدولة العبيدية مرة أخرى من المغرب الأقصى عام ٣٢٣هـ، أرسل إبراهيم وأبو العيش بن إدريس بن عمر كتاباً إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر مجددين عهد ولايته، وجاء في كتابهم إليه الدعاء له بأن يطيل الله بقاءه لهدم الشيعة الرافضة القادحة في الشريعة، المحرفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإخبار الخليفة أن ما وصله من كونهم هادنوا الشيعة بعد ظهور أمرهم في المغرب إنما كان تقية ومداراة لهم، واستشهدوا بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم من مداراة المشركين والمنافقين، كما طلبوا من الخليفة إرسال جيش لدحر الشيعة في المغرب وتطهيرها منهم[٣].

ونتيجة لورود كتب القائد موسى بن أبي العافية[٤]على الخليفة الناصر، وما كان من المشارقة فيها، ونقض أمراء الأدراسة لبيعتهم للخليفة، أرسل الإدريسي إبراهيم بن محمد الحسني كتاباً إلى الخليفة الأموي يعتذر فيه مما نقم عليهم من موالاة الشيعة، ويبرر ذلك

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٩٠-٢٩٤.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٧٤، ٣٧٥.

(٤) هو موسى بن أبي العافية بن أبي بسالالمكناسي، مؤسس الإمارة المكناسية بمراكش إمارة آل أبي العافية، كان حاكماً لبلدة مكناسة، ثم أقره عبيد الله المهدي على ما تحت يده من أملاك بما فيها فاس سنة ٣٠٣هـ، وقاتل الأدراسة وأجلاهم عن بلادهم وملك تلمسان ثم نقض دعوته للعبيديين وبايع الأمويين بالأندلس وأصبح قائداً وواليا لهم في المغرب وتوالت الحروب بينه وبين العبيديين حتى وفاته سنة ٣٢٦هـ (ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٠٧-٤٢٧، الزركلي، الأعلام، ٣٢٣/٧-٣٢٤)

بأنه ضرورة شديدة دفعتهم لمداراة ومداهنة الشيعة، وهي الخوف من بطشهم ومكروههم على حرمهم ونعمتهم، وأنهم يجددون بيعتهم للخليفة، فقبل منهم الناصر ذلك وأجابهم إليه(١).

وفي عام ٣٣٧هـ تولى حكم الأدارسة في المغرب أبو العيش أحمد بن القاسم كنون بن محمد(٢)، فبايعه كافة أهل المغرب إلى سجلماسة(٣)، وبدروه قطع أبو العيش دعوته للعبيديين التي استمر العمل بها في عهد والده القاسم، وبايع الخليفة عبدالرحمن الناصر وتمت الخطبة له على جميع منابر عمله في المغرب، واقترح عليه الخليفة عبدالرحمن الناصر أن يتنازل له عن مدينة طنجة(٤)، ليضيفها الخليفة إلى مدينة سبتة التي كانت تحت حكمه، فامتنع أبو العيش، فاستخدم الناصر القوة معه، ولما رأى أنه لا طاقة له بمواجهة الأمويين بالأندلس تنازل لهم عن طنجة، وبقي يحكم هو وأخوته وبني عمه ما يليه من أعمال المغرب تحت كنف الخلافة الأموية بالأندلس، ولما رأى أبو العيش غلبة الناصر لدين الله على حكم بلاده هانت عليه الرئاسة، فأرسل إلى الخليفة بقرطبة يستأذنه في الجهاد، فأذن له الناصر، وأمر أن يبني له في كل منزل ينزله قصراً من الجزيرة الخضراء(٥) إلى

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٩٠.

(٢) هو أبو العيش أحمد بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس الحسني، تولى الحكم سنة ٣٣٧هـ، بعد والده، كان فقيهاً نساباً يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل كان مائلاً للأمويين في الأندلس قتل في الثغر الأندلسي سنة ٣٤٨هـ (السلاوي، الاستقصا، ٢٥١/١-٢٥٢).

(٣) سجلماسه: مدينة بالمغرب على طرف الصحراء بينها وبين غانة في الصحراء مسيرة شهرين في جبال ورمال غير عامرة قليلة الماء بنيت سنة ١٤٠هـ، أسسها مدرار بن عبدالله، وهي عاصمة دولة بني مدرار بالمغرب الأقصى(الحميري، الروض المعطار، ص٣٠٥، ٣٠٦).

(٤) طنجة: مدينة بالمغرب على ساحل البحر الشمالي لمضيق جبل طارق، تعاقب على حكمها ملوك الروم حيث كانت حاضرة بلادهم ثم افتتحها عقبة بن نافع، بينها وبين سبتة ثلاثون ميلاً وهي آخر حدود إفريقية من المغرب بينها وبين القيروان مسافة ألف ميل(الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥، ٥٩٦).

(٥) الجزيرة الخضراء: يقال لها جزيرة أم حكيم وهي المكان الذي نزل به طارق بن زياد بعد عبوره إلى الأندلس، وتتكون من عدة مدن وهي على ساحل البحر المتوسط من جهة الأندلس، وسميت بجزيرة أم حكيم نسبة لزوجة طارق التي تركها فيها عند الفتح(الحميري، الروض المعطار، ٢٢٣).

الثغر(١)،ومات أبو العيش شهيداً في الجهاد سنة ٣٤٨هـ بعد أن استخلف أخاه الحسن بن قنون(٢) على المغرب، فأعلن الحسن بدوره ولاءه للأمويين في الأندلس وقام بالدعوة لهم(٣).

ومما سبق يتضح الضعف الذي كان عليه أمراء الأدارسة، وأن وقوعهم بين قوتين كبيرتين الأمويين في الأندلس والعبيديين في إفريقية، أدى بهم إلى موالاة هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى، وأنهم مع من غلب، وهذا ما يظهر في مراسلاتهم التي كانوا يعتذرون بها للخليفة الناصر من انحيازهم أحياناً للشيعة في المغرب(٤).

وقد انتهج الحسن بن قنون آخر أمراء الأدارسة في المغرب هذه الطريقة، فقد تأرجح في موالاته للأمويين والعبيديين، فإن كانت الغلبة للأمويين على المغرب أصبح مبايعاً لهم، وإذا مالت الكفة للعبيديين مال معهم(٥)، ولما ضيق الخليفة الثاني في الدولة الأموية بالأندلس الحكم المستنصر على أمير الأدراسة الحسن بن قنون الخناق، وشدد عليه الحصار سنة ٣٦٣هـ، اضطر الحسن بن قنون لطلب الصلح والأمان، وفي ذلك يقول ابن عذاري(٦):"وفيها ورد الخبر السار على المستنصر بالله بإذعان الحسن بن قنون الحسني ودخوله في طاعته".

لكن الحكم المستنصر هذه المرة اشترط قدوم الحسن بن قنون ومعه أقرباؤه الأدارسة إلى قرطبة، والبقاء تحت سمع وبصر الخليفة فيها(٧).

---

(١) الثغر: هي ولاية الحدود الشمالية للدولة الإسلامية في الأندلس ويمثل اليوم في إسبانيا ولاية أرغون (محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، هامش ص٢٥).

(٢) هو القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس يلقب بالحسن بن قنون وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب، قتل في أيام الخليفة هشام المؤيد حيث أمر الحاجب المنصور بن أبي عامر بذلك سنة ٣٧٥هـ (السلاوي، الاستقصا، ٢٥٣/١-٢٦٠).

(٣) السلاوي، الاستقصا، ٢٥٣/١.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٩٠.

(٥) السلاوي، الاستقصا، ٢٥٦/١، ٢٥٧.

(٦) البيان المغرب، ٢٤٨/٢.

(٧) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي،ص١٥١-١٥٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤٨/٢.

استمر الحسن بن قنون وذووه في قرطبة حتى عام ٣٦٥هـ، فقام الخليفة الحكم المستنصر بإخراجهم من الأندلس وإجلائهم إلى المشرق، فرحلوا إلى مصر ونزلوا في ضيافة الخليفة العبيدي العزيز بالله[١].

وحاول الحسن بن قنون استرجاع المغرب لسيادة الأدارسة تحت طاعة العبيديين، إلا أنه واجه مقاومة قوية من الجيوش الأموية في المغرب، وانتهى به الأمر إلى طلب الصلح وتسليم نفسه، فأمر الحاجب المنصور بن أبي عامر بقتله عام ٣٧٥هـ، وتفرقت بعد ذلك دولة الأدارسة في المغرب حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس[٢].

---

(١) السلاوي، الاستقصا، ١/٢٥٩.

(٢) السلاوي، الاستقصا، ١/٢٥٩، ٢٦٠.

المبحث الثالث

دعم العلماء والقادة المناهضين للدولة العبيدية في أنحاء العالم الإسلامي

في سبيل مواجهة المذهب الشيعي المتمثل بالدولة العبيدية في المغرب، قام الخليفة عبدالرحمن الناصر بتكثيف الجهود للدعاية للمذهب السني في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي، وبالأخص بلاد المغرب التي سيطر عليها العبيديون، وقد وجد الناصر بغيته في علماء وفقهاء المذهب المالكي الذين اظهروا كرههم وعداوتهم للمذهب الشيعي، ومن ذلك ما يحكى عن الفقيه المالكي جبلة بن حمود الصدفي[١] الذي سئل عن سبب تركه للرباط على ثغر أفريقيه من جهة البحر ورجوعه إلى القيروان، فقال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر يقصد الروم من جهة البحر، وأقبلنا على حراسة هذا الذي حل بساحتنا – يقصد عبيدالله المهدي–،لأنه أشد علينا من الروم[٢].

ولم يجد الفقهاء المالكيون حرجاً في مشاركة القائد الخارجي[٣]أبي يزيد بن مخلد[٤]ضد عبيدالله المهدي، مما يعكس حجم الكره والعداوة التي يضمرها علماء وفقهاء

---

(١) هو جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن مسلمة الصدفي، يكنى أبا يوسف ولد سنة ٢١٠هـ كان مرابطاً بقصر الطوب جهة البحر ثم يعود إلى القيروان فيسمع الناس منه ثم يرجع، درس على يد عدد من علماء المالكية بإفريقية كسحنون بن سعيد وغيره توفي سنة ٢٩٧هـ بالقيروان (المالكي : عبدالله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، ط٢، ٢٧،٢٨/٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.

(٢) المالكي، رياض النفوس، ٣٧/٢.

(٣) يرى علماء المالكية أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي متعين لأنه من أهل القبلة، أما العدو عبيد الله المهدي الباطني فهو كافر، كما قالوا أنا إذا ظفرنا بهم أي أتباع عبيد الله المهدي لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، والله يسلط عليه إماماً عادلاً يخرجه عنا (عياض، ترتيب المدارك، ٣٠/٢).

(٤) هو مخلد بن كيداد بن سعد الله الزناتي، يكنى بأبي يزيد، وعرف بالأعرج صاحب الحمار، ينتمي إلى قبيلة زناتة البربرية من بني يفرن، كان يغلب الزهد ويلبس جبة صوف، ولد ونشأ في مدينة قسطيلة، وينتمي إلى مذهب الصفرية من الخوارج، توفي من جراح أصيب بها في صراعة مع العبيديين سنة ٣٣٦هـ (عياض، ترتيب المدارك، ٢٩/٢، ٣٠، الزركلي، الأعلام، ١٩٤/٧).

المالكية للعبيديين الشيعة، وعليه قام الخليفة عبدالرحمن الناصر بدعم هذه الثورة، وباركها وأيد العلماء المشاركين فيها[١].

وقد شارك جمع كبير من أهل السنة في هذه الثورة معظمهم من المالكية، وكانوا عماد الوفد الذي ذهب إلى قرطبة لمقابلة الخليفة عبدالرحمن الناصر طلباً للدعم والمؤازرة[٢].

وقد قام عبيدالله المهدي بمنع علماء السنة من الإفتاء والتدريس في إفريقية، وضيق عليهم وعذب كثيراً منهم، كما قتل بعضهم[٣]، فمدَّ الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه من بعده الحكم المستنصر أيديهم لهؤلاء العلماء، واتصلوا بهم ودعموهم بالمال، واستقبلوهم كضيوف في الأندلس، منهم الفقيه أحمد بن الفتح المليلي[٤]، الذي قدم على الناصر سنة ٣٢٥هـ خشية من عساكر العبيديين، فأجاره ونصبه قاضياً على ناحيته، وظل موالياً للأمويين حتى وفاته سنة ٣٣٢هـ[٥]، كما اتصل الناصر بكبير المالكية في مصر الفقيه أبي إسحاق محمد بن القاسم المعروف بابن القرطي[٦]، وكان هذا الفقيه شديد الذم للعبيديين، وكان يدعو على نفسه بالموت قبل مجيء دولتهم[٧]، فبعث إليه بالناصر بعشرة آلاف دينار ليفرقها على العلماء، ولما توفي الخليفة الناصر استمر ابنه الخليفة الحكم المستنصر بدعم هذا الفقيه، فكان يبعث إليه المال من قرطبة[٨].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢١٢، ٢١٣.

(٢) عياض، ترتيب بالمدارك، ٢/٢٩، ٣٠.

(٣) المالكي، رياض النفوس، ٢/٤٨، ٤٩.

(٤) هو أحمد بن الفتح المليلي، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن الخزاز، كان قاضياً بمليلة، بارعاً في الرواية والشعر وحفظ الأخبار، وكانت وفاته سنة ٣٣٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦١).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٦١.

(٦) هو محمد بن القاسم بن شعبان، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن القرطي، كان رأس الفقهاء المالكيين بمصر، حافظاً لمذهب مالك، إليه انتهت رئاسة المالكيين، ببلده توفي سنة ٣٣٥هـ، (عياض، ترتيب المدارك، ٢/١٣، ١٤.

(٧) عياض، ترتيب المدارك، ٢/١٤.

(٨) ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٠١.

وقد تردد الفقيه حكم بن محمد القيرواني[١] بين القيروان وقرطبة، ونال إكرام الخليفة المستنصر، وفي المرة الأخيرة هرب هذا الفقيه من القيروان بعد أن امتحنه عبيد الله المهدي وسجنه من أجل صلابته في السنة وإنكاره للبدع التي كان عليها العبيديون، ولما وصل إلى قرطبة أجرى عليه الحكم المستنصر العطاء، وجعله في ديوان قريش حتى وفاته[٢].

وقبض العبيديون على الفقيه ابن الأزرق الأموي[٣] بعد خروجه من مصر ومروره بالقيروان، فحبس بالمهدية[٤]، وقد شك العبيديون بكونه جاسوساً أموياً، ثم هرب من السجن ووصل إلى قرطبة، فتلقاه الحكم المستنصر بالترحاب ووسع عليه، وظل في ضيافته حتى وفاته[٥].

كما امتحن العبيديون المحدث محمد بن أحمد الفارسي[٦] لشدة تمسكه بالسنة، فوفد على الحكم المستنصر فرحب به، وبقي في الأندلس ينشر علمه حتى وفاته[٧].

أما الفقيه إسماعيل بن عبدالرحمن القرشي[٨] فقد رحل من مصر إلى الأندلس أثناء

---

(١) هو حكم بن محمد بن هشام القرشي، يكنى أبا القاسم، من أهل القيروان رحل إلى مصر والعراق لطلب العلم، وكان مهتماً بالقراءات توفي سنة ٣٧٠هـ وعمره ٨٢ عاماً (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٠٦،١٠٥).

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٠٥، ١٠٦.

(٣) هو محمد أحمد بن محمد، ويرجع نسبه إلى بني أميه يعرف بالحصني، كما يعرف بابن الأزرق، له عناية بالحديث، وكان أديباً شاعراً، ولد سنه ٣١٩هـ، وتوفي بقرطبة سنة ٣٨٥هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٨٦، ٣٨٧).

(٤) المهدية: مدينة بقرب القيروان اختطها عبيد الله المهدي سنة ٣٠٠هـ وكان المهدي قد بناها على موضع يشبه الجزيرة متصل بالبر وحصنها بسور عال وأبواب حديد، وبنى بها قصراً عالياً(القزويني : زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٧٦، دار صادر، بيروت، ب، ت).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٨٦، ٣٨٧.

(٦) هو محمد بن أحمد بن محمد الفارسي، يكنى أبا عبدالله ويعرف بابن الحراز، من أهل القيروان، سكن قرطبة والقيروان، ولما قدم الأندلس تجول بين مدنها ينشر العلم توفي سنة ٣٥٩هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٨٣).

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٨٣.

(٨) هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن علي القرشي، من ذرية عبدالله بن زمعة أخو أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، رحل إلى الأندلس سنة ٣٦٠هـ (المقري، نفح الطيب، ٦٩/٣).

خلافة الحكم المستنصر هرباً من العبيديين، فاستقبله الخليفة ورحب به، وحل عنده على الرحب والسعة[١].

وهكذا أصبحت الأندلس في أيام الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر مأوى ومقصد علماء السنة للهروب من بطش وتسلط الشيعة، وفساد مذهبهم، واعتداءات عبيدالله المهدي وأبنائه من بعده عليهم.

وبجانب النجاحات التي حققها الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر باجتذاب العديد من علماء العالم الإسلامي ضد النفوذ الشيعي، نجح أيضاً باجتذاب عدداً من قادة بلاد المغرب (الأدنى والأوسط والأقصى) إلى صفة، وكان من بين أولئك أبناء سعيد بن صالح[٢]، أمراء نكور[٣]، الذين تغلب عليهم العبيديون ودخلوا عاصمتهم سنة ٣٠٥هـ وقتلوا أميرهم سعيد بن صالح، فلجأ أولاده الثلاثة، صالح والمعتصم وإدريس إلى الأندلس، ونزلوا في مدينة مالقة، وقد رحب الخليفة الناصر لدين الله بهم وأمر بإكرامهم، وأغدق عليهم العطايا، وخيرهم بين البقاء في مالقه أو العاصمة قرطبة، ففضلوا البقاء في مالقه لقربها من ممتلكاتهم، وليتسنى لهم مراقبة التطورات في بلادهم واغتنام الفرصة لإعادة ملكهم وانتزاعه من أيدي العبيديين، وقد تمكن أبناء سعيد بن صالح من إعادة ملكهم بعد معارك خاضوها مع العبيديين، فكتب صالح إلى الخليفة الناصر يخبره

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٦٩/٣.

(٢) تنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يمني من قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميري، استقر في هذه المنطقة ودفن فيها، وقبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح، ومن ثم خلفه أبناؤه في حكم هذه المنطقة (أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ص٩١-٩٤. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ب.ت، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٧٦/١-١٨٠، العبادي، في تاريخ المغرب الأندلسي، ص١٩٠.

(٣) نكور، مدينة كبيرة بالمغرب بقرب مليلة بينها وبين البحر المتوسط عشرة أميال وتقابل مالقة من الأندلس وهي بين جبال ورواب، افتتحها بني صالح أمراء نكور وقد لعبت هذه المدينة دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من قبائل البربر، كما قاومت تيار الخوارج والشيعة (البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٩١، الحميري، الروض المعطار، ص٥٧٦، ٥٧٧، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩٠.

بما تم له من نصر على أعداءه، فأمر الناصر بقراءة الخبر على منبر المسجد الجامع بقرطبة، وأرسلت نسخ منه إلى كافة أقاليم الأندلس، كما أمر الخليفة بإرسال الهدايا والتحف والألبسة وأنواع الأسلحة والأسرجة والطبول إلى صالح بن نكور، لتعويضهم عما خسروه في حربهم ضد العبيديين[١].

وقد عمل الخليفة الناصر على تأييد وتشجيع الثورات المعادية للعبيديين، ومن أشهرها الثورة التي قامت على يد الخارجي مخلد بن كيداد والملقب بأبي يزيد الخارجي، وقد شغلت هذه الثورة عهد العبيدي محمد القائم وجزءاً من عهد ولده إسماعيل المنصور، ولم يتردد الناصر لدين الله في تأييد هذه الثورة رغم التباين المذهبي بينهما، فدارت المراسلات بينهما، وأرسل أبو يزيد الخارجي وفداً إلى الناصر لدين الله يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة[٢]وما جاورها وهزيمته لجند الشيعة، ويظهر فيها خضوعه للخليفة الناصر واعترافه بولايته، وفي السنة التالية ٣٣٤هـ أرسل أبو يزيد سفارة ثانية إلى الناصر مكونة من بعض علماء القيروان، تلتها سفارة ثالثة سنة ٣٣٥هـ برئاسة ولده أيوب، فأكرمه الناصر، وأنزله في قصر الرصافة[٣]وأمده بمبلغ كبير من المال، لتعزيز مركز والده في إفريقية[٤].

وفي سنة ٣٢٨هـ قدم وفد من أهل جزائر بني مزغناي، وكانت هذه المنطقة من أعمال الشيعة، فتوجهوا بكتبهم إلى الخليفة الناصر يخطبون ولايته ويسألون الدخول في

---

(١) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ٩٥-٩٨، ابن عذاري، البيان المغرب، ١/١٧٥، ١٨٠.

(٢) رقادة: مدينة قرب القيروان تبعد عنها حوالي أربعة أميال بناها القائد الأغلبي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وأصبحت عاصمة ملكهم، ولما دخلها عبيد الله المهدي هرب منها آخر أمراء الأغالبة المسمى زيادة الله، وفيها بويع لعبيد الله المهدي بالخلافة ثم خربت هذه المدينة بعد ترك العبيديين لها، وانتقل الناس منها ولم يبق لها أثر ولا عين (البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٢٧، الحميري، الروض المعطار ص٢٧١).

(٣) قصر الرصافة: منتزه الخلفاء المروانية، بناه الأمير الأموي عبدالرحمن بن معاوية الداخل في قرطبة، ونقل إليه غرائب الغروس، وأكارم الشجر من كل ناحية، وسماه باسم الرصافة في الشام مكان قصر جده هشام بن عبد الملك هناك (المقري، نفح الطيب، ١/٤٦٦، ٤٦٧).

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢١٢-٢١٤، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩١.

طاعته، ويتبرؤون من دعوة الشيعي ويرفضون طاعتـه، ويطلبـون مـن الناصـر إنفـاذ عامـل إليهم، فقبل منهم الناصر ذلك وأسعفهم إليه[1].

ووصلت كتب الخليفة الناصر لدين الله إلى صقلية[2] في محاولة من الناصر للضغط على العبيديين في إفريقية، ودارت مراسلات بين الناصر لدين الله والقائد ابن قرهـب الأغلبي[3] عامل عبيد الله المهدي على صقلية، فأمده الناصر بما يقويه، وكـان كثيراً مـا يستخبر عـن حالته ويجيبه على كتبه ويشحذ من همته وعزيمته لمواجهة عبيدالله المهدي[4].

ونجح الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٠هـ في استمالة يحيى وجعفر أبنـاء علـى بـن حمدون المعروف بالأندلسي[5]، فنزعوا طاعة الشيعي معد بـن إسماعيـل صـاحب إفريقيـة، وانضموا للحكم المستنصر، وكانت الهدية التي بعثوها إلى الحكم هي رأس زيري بـن منـاد الصنهاجي[6] عامل الشيعة على بلاد المغرب، ثم لحق يحيى وجعفـر أبنـاء علـى بـن حمـدون

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٤٦٠، ٤٦١.

(٢) صقلية: جزيرة صقلية قطعة من البحر الشامي (البحر المتوسط) بينها وبين مالطة ثمانون ميلاً، افتتحها المسلمون بقيادة أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ في عهد الأغالبة وكانـت قبـل ذلـك تابعـة للبيزنطيين، واستمرت تحت حكم المسلمين حتى سنة ٤٥٣هـ عندما تغلب عليها النصارى وهي بيدهم إلى الآن(الحميري، الروض المعطار، ص ٣٦٦).

(٣) هو أحمد بن زيادة الله بن قرهب، ألح عليه أهل صقلية أن يكون والياً عليهم سنة ٣٠٠ هـ بعد عزلهم عامل عبيد الله المهدي، فأعلن بيعته للخليفة العباسي المقتدر بالله، وانتهى أمره بـالقبض عليـه وإرسـاله إلى عبيـد الله المهدي فقتله سنة ٣٠٤ هـ (ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٨/١ – ١٧٤).

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ١٠١.

(٥) جعفر ويحيى أبناء علي بن حمدون المعروف بالأندلسي، جدهما الأكبر عبد الحميد الداخل إلى الأنـدلس قادمـا من الشام، فسكن إلبيرة، ثم انتقل حمدون حفيد عبد الحميد إلى بجاية بـالجزائر فمـال إلى الدعوة العبيدية، وكان ابنه علي هو من بنى مدينة المسيلة وكانت تعرف بالمحمدية وتولى حكمها، ولما توفي تـولى ابنـه جعفر حكمها (ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، هـامش ٢ ص ٣٣، ابـن عـذاري، البيـان المغـرب، ٢٤٢/٢، ٢٤٣).

(٦) هو الأمير زيري بن مناد الصنهاجي جد المعز بن باديس، وهو أول ملك في أسرته بنى مدينة آشير وحصنها ضد أبي يزيد الخارجي، وكانت مدة حكمه ست وعشرين سنة، وقتل على يد جعفر بـن حمـدون الأندلسـي سنة ٣٦٠ هـ (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣٤٣/٢).

الأندلسي برأس زيري وعبروا إلى الأندلس، فاستقبلهم الحكم المستنصر استقبالاً ضخماً حضره جميع طبقات الجند والحرس، وتم رفع رأس زيري ومعه مائة رأس من الشيعة أمامهم، وأسكنهم الحكم المستنصر مساكن في قرطبة، وأجريت عليهم الأموال والأطعمة، وقيلت الأشعار في ذلك[١].

وكانت الأخبار تأتي تباعاً للخليفة الحكم المستنصر بشأن المعارك الدائرة في العدوة المغربية بين أهل السنة والشيعة، وكان كاتب القائد جعفر بن حمدون الأندلسي هو حلقة الوصل بينه وبين الخليفة[٢]، ولأجل تحفيز هؤلاء القادة أرسل إليه الحكم المستنصر الكسى الفخمة، والسروج[٣]، واللجم المحلاة[٤]، لتوزيعها على رؤساء العدوة المغربية تقديراً منه لدورهم في مجاهدة الشيعة[٥].

وقد كان الحكم لمستنصر حريصاً على إزالة أي مظاهر للشيعة في المغرب، خصوصاً ما كان قريباً للأندلس كالعدوة المغربية وما حولها؛ إذ أنه أرسل وزيره محمد بن قاسم بن طملس[٦] إلى سبتة بالعدوة المغربية ليقضي على بعض الثورات هناك، وأوصاه بإقامة كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، ومحوا آثار الشيعة، وإعلاء سنة الأئمة الخلفاء الراشدين، حتى ينالهم من بركة ذلك وحلاوته ما نال الجماعة من رعية أمير المؤمنين بحول الله وقدرته[٧]،

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص ٣٢، ٤١ — ٥٤.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ٢٧.

(٣) السروج: جمع سَرْجٌ وهو رحل الدابة، و أسرجها إسراجاً وضع عليها السرج (ابن منظور، لسان العرب، ٢٩٧/٢).

(٤) اللجم: جمع لجام وهو لجام الدابة، ولجمة الدابة موقع اللجام من وجهها، وهو حبل أو عصا تدخل في فم الدابة وتلزق إلى قفاه (ابن منظور، لسان العرب، ٥٣٤/١٢).

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص ١١٦.

(٦) هو محمد بن القاسم بن محمد بن طملس، جده محمد كان قائداً للأمير عبدالله بن محمد، ووالده القاسم بن طملس قائداً للخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله، وتولى هو منصب الوزير وناظر الحشم في عهد الخليفة الحكم المستنصر (ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ٧٩، ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ٢٩٠/٦، الزركلي، الأعلام، ١٥/٧).

(٧) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ٧٩، ٨٠.

كما قام نفس القائد باقتلاع منبر جامع مدينة أصيلا المغربية، وكان قد سمي باسم الشيعي معد بن إسماعيل، ونقش اسمه عليه، فأمر هذا القائد بإضرام النار به، وأرسله مع كتاب إلى الخليفة في الأندلس[1]، وعليه قام وزير الخليفة المستنصر بأخذ البيعة من أمراء العدوة بضرورة العمل بالسنة على مذهب مالك بن أنس، وإقامة النافلة بشهر رمضان[2]، والتوقف عن العمل بضلالات الشيعة، وتمت مكاتبة الحكم المستنصر بذلك وإعلامه أن أمراء العدوة تقبلوا ما أمروا بالتزامه من جميع ذلك، وأنهم بعثوا رهائن منهم تأكيداً على وفائهم بما تعهدوا به[3].

والتزاماً بهذا التعهد أرسل قادة المغرب ومن معهم من الجماعة هناك كتاباً إلى الخليفة الحكم المستنصر فيه البراءة من مذهب الشيعة وأهلها، وتعهدوا في هذا الكتاب بأن لا يراسلوا الشيعة سراً أو علناً، تقاربوا منهم أو تباعدوا عنهم، وأنهم مستمسكون بطاعة الخليفة ديانة لا خوفاً[4].

وقد استمر الأمويون في الأندلس في إخماد أي محاولة انقلابية في العدوة المغربية ضد النفوذ الأموي لإرجاع النفوذ الشيعي إليها، طوال عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر وخلال عهد الوصاية العامرية[5].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ٩١.

(٢) كما هو مشهور عند الشيعة لا يرون صلاة التراويح في رمضان جماعة في المسجد ويعتبرون فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدعة لا تصح، لذا كانت أوامر الخليفة الحكم المستنصر واضحة بضرورة مخالفة الشيعة وإقامة صلاة التراويح في المسجد جماعة (علي بن محمد الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة العبيدية، ط١، ص ١٤٤، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٨م).

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٧٤.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٧٥.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ٨٩ — ٩١.

المبحث الرابع

التحالف مع القبائل والدول المجاورة ضد الدولة العبيدية

لما أعلن الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله خلافته عام ٣١٦هـ[١]، حاول نقل معركته مع العبيديين إلى عمق أراضيهم ليحتفظ ببلاده بعيداً عن التطاحن الحربي، فعمد إلى التحالف مع قبائل البربر في المغرب، ويعتبر هذا التحالف من أهم الخطوات السياسية الإيجابية للخليفة الناصر وللدولة الأموية في مواجهة نفوذ التشيع بعيداً عن الأراضي الأندلسية.

وفي ذلك يقول ابن حيان[٢]"وامتدت همة الخليفة الناصر لدين الله إلى استدعاء أكابر أمراء البربر بالعدوة إلى ولايته، وثنيه لهم عن ولاية الدعي عبيد الله الشيعي المنتزي على بلد إفريقية، المضلل للناس بما شرعه من بدعته الغالية".

ثم يتابع ابن حيان[٣]حديثه عن الناصر ويقول:"فارهف العزم وألطف الحيلة، وابتدأ ففتح ذلك بمخاطبة من تقدمت له بأسلافه ملوك بني أمية من أمراء تلك البلاد وصلة، أو ائتلفت بينهم آصرة، يستشير وصائلهم، ويصل أحبلهم، ويستدعي ولايتهم، ويسبب ذلك بإسناء مهاداتهم، وإكرام أسبابهم، وقضاء حوائجهم".

فكانت النتيجة كما يذكر ابن حيان[٤]:"فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير من زعمائهم بين مصحح في ولايته، مستجيب لدعوته، مغتنم لعطيته، مستعين بقوته على مدافعة من قد هدّ ركنه من بني عبيد الله إمام الشيعة".

وقد أثمرت تلك السياسة التي انتهجها الخليفة الناصر لدين الله ما أورده ابن

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٧/٢.

(٢) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٥.

(٣) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٦.

(٤) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٦.

حيان[١] بقوله: "فاستوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته، ورفعوا فوق أعلامه، وغاظوا عبيد الله الشيعي صاحب إفريقية مضطهداً بدعوته، وقلبوا مجانهم إليه، ونصبوا الحرب لرجالهم، فكفكفوهم عن الإيغال في بلدهم من قاصية المغرب...، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البرابر وحماة رجالهم إلى حضرته، استعان بهم في حروبه".

وأول من كاتبه الخليفة الناصر لدين لله من أمراء البربر عظيم أمراء زناته في المغرب محمد بن خزر[٢] عام ٣١٧هـ، فأرسل محمد بن خزر رده على كتاب الخليفة بالاعتراف بحقه بإمرة المؤمنين ومبايعته بذلك، وأنه لم يفعل ذلك إلا ديانة لله تعالى، واعترف محمد بن خزر في رسالته بأن الخليفة الناصر لدين الله هو أحق شخص بها، لا ينازعه فيها إلا من دفع الحق وعصى رسول الله ﷺ، كما أبلغ الناصر بأنه سيكون أداة الخلافة في حرب المشارقة الشيعة، وأنه سيحمل لواء الجهاد ضدهم[٣].

واستمرت الكتب تتردد بين الناصر وبين أمير زناته محمد بن خزر ومعها أيضاً الهدايا النفيسة التي كان يبعثها ابن خزر للناصر، ويرد الناصر بأحسن منها، وكان الناصر يحث ابن خزر في كتبه التي كان يرسلها إليه على محاربة الشيعة، كما كان ابن خزر يشرح له ما يدور بينه وبينهم من حروب، فكان الناصر يحسن مجاوبته، ويشدّ في ولاية، ويغريه بالجد في حرب الملحد الشيعي وأصحابه[٤].

وفي معرض المكاتبات التي كانت تتردد بين الناصر وأمير زناته ابن خزر، أبلغ الخليفة بأن عبيد الله المهدي طلب منه في رسالة بعثها إليه أن يدعو له على منابر الجمع، وأن

---

(١) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) هو محمد بن خزر بن صيلات الزناتي المغراوي، أمير زناته في وقته، بايع عبيد الله الشيعي في أول وقته ثم أعلن بيعته للناصر بعد تلقبه بلقب الخلافة، ودخل في حروب متواصلة مع الشيعة، ثم ترك الأمويين وبايع العبيديين حتى توفي سنة ٣٤٨هـ (ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٥/١، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥٨/٤، ٥٩).

(٣) ابن حيان المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٧، ٢٦٩.

(٤) ابن حيان المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٨-٢٦١.

يسك العملة باسمه، وأنه يعد ابن خزر بالأماني الكثيرة والجزيلة، ويقول ابن خزر: فجاوبته بما نحن عليه من بينة في أمرنا، وإننا مبايعين للخليفة الناصر لدين الله، وإننا تعلم كفركم وكيدكم ونقضكم للعهود، وختم حديثه بالدعاء بقطع دابر الشيعة وقوتهم من أرض المغرب(١).

وتأكيداً لهذه العلاقة عين الخليفة الناصر لدين الله القاضي محمد بن أبي عيسى سفيراً بينه وبين محمد بن خزر، يشافهه بما يجب من توطيد الدولة بأرض المغرب، وجهاد الشيعة الضلال(٢)، وبدوره كان ابن خزر يطمئن الناصر بأن الأمور مضبوطة، وأن أمراء المغرب كلهم منقادون له ضد الشيعة(٣).

كما استطاع الناصر لدين الله كسب زعيم قبلي آخر هو موسى بن أبي العافية زعيم قبيلة مكناسة(٤)،فقد كان موسى من أكبر قادة العبيديين، خاطبه الناصر لدين الله للقيام بدعوته، وبذل له أموالاً كثيرةً فأجابه إلى ذلك ونقض طاعة العبيديين، وخطب للناصر لدين الله على منابره(٥).

وقد جرت المكاتبات بعد ذلك بين الناصر لدين الله وبين موسى بن أبي العافية، وفي إحداها طلب موسى المدد والعون من الناصر نتيجة لهجوم العبيديين على المغرب الأقصى بسبب انتشار الدعوة الأموية بها، فأجابه الناصر إلى ما سأله، وأرسل قائده قاسم بن طملس في جيش كثيف وعدة تامة إلى سبتة، كما أنفذ الكتب إلى قبائل البربر بالعدوة المبايعين للخليفة بضرورة الاحتشاء إلى موسى والمحاماة معه عن الدولة(٦).

---

(١) ابن حيان المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٣٠٠-٣٠٥.

(٢) ابن حيان المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٥٨

(٣) ابن حيان المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٣٠٠، ٣٠٥.

(٤) مكناسة مدينة بالمغرب بينها وبين فاس أربعون ميلاً جهة المغرب وهي أربع مدن وقرى كثيرة متصلة الحصون، سميت باسم مكناس البربري، ولمكناسة بطون كثيرة منها صولات وبوحاب وغيرها من البطون، موطنهم على وادي ملوية من أعلى سجلماسة إلى مصب البحر وما بينها من نواحي تازا وتسول (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٦/١٧٠، الحميري، الروض المعطار، ص٥٤٤).

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٦١، ابن عذاري، البيان المغرب، ٤/٢٠٤).

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٣٢٦، ٣٢٧.

ولم تغب كتب موسى بن أبي العافية عن الخليفة الناصر لدين الله، يخبره فيها عن كل ما يدور في أرض العدوة المغربية، وما يحصل من الأمراء الذين ينكثون ببيعة الخليفة كأمراء الأدارسة، وأصبح هذا الزعيم عيناً للخليفة في بلاد المغرب وحارساً لها، وكان من نتيجة ذلك أن خاف أمراء الأدراسة من إيصال خبرهم إلى الناصر لدين الله، فكتبوا معتذرين للخليفة مما وصله، وأن ما حدث أمر أملته عليهم الضرورة، وأنهم متمسكون ببيعة الأمويين في الأندلس[1]، وتوالت البشائر من موسى إلى الخليفة بشأن الفتوحات التي يحققها على الشيعة، وصد قواتهم عن مدن المغرب، وعن الكره الذي أبداه الناس لدعاة الشيعة في فاس وما حولها، فأعجب ذلك الخليفة الناصر لدين الله، فبعث بهداياه الثمينة لموسى شكراً له وتثميناً لجهوده[2].

وفي سبيل محاربة الشيعة المغرب بعث الخليفة الناصر عمالاً مختصين بالبناء مع أدواتهم وآلاتهم لبناء حصن يقاوم هجمات العبيديين وقوادهم، وكان ذلك بطلب من موسى بن أبي العافية[3].

ولما توفي موسى بن أبي العافية أثبت الناصر ابنه مدين بن موسى مكانه، وتوالت الكتب بعد ذلك بينهما بكل ما يدور في المغرب، فقد حل هذا الابن مكان والده في هذه المهمة[4].

ولما ساءت العلاقة بين القائدين محمد بن خزر أمير زناته وموسى بن أبي العافية أمير مكناسة تصدى الناصر لدين الله لذلك، وحسم الخلاف بينهم وأصلحه، وأخرج ثقته محمد بن أبي عيسى لحل ذلك الخلاف[5]، وفعل الناصر نفس الشيء مع أبناء هذين القائدين الخير بن محمد بن خزر ومدين بن موسى بن أبي العافية، فقد ساءت بينهما العلاقة وتنافرا، فأرسل قاضيه المشهور منذر بن سعيد البلوطي إلى العدوة فتوسط

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٣٠٠، ٣٠٢، ٣١٠، ٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا ، ص ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا ، ص٣٨٧، ٣٨٨.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا ، ص٤٢٧.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا ، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

لذلك،ونجح في التوفيق بينهما[1]، وبهذا تمكن الناصر بذكائه وفطنته من إبقاء الجبهة الداخلية في المغرب موحدة، ونجح في التوفيق بين القادة المغاربة ليقفوا جميعاً في وجه المد العبيدي الذي يحاول بكل ما أوتي من قوة انتزاع تلك البقعة من النفوذ الأموي.

ومن الذين خاطبهم الناصر لدين الله من أمراء البربر بالعدوة المغربية منصور بن سنان، فاظهر البراءة من دعوة الشيعة، وانقاد للدعوة الأموية وخلافتهم السنية، وقام بإرسال هدية ثمينة للناصر عبارة عن خيل وإبل وأنعام وغزلان استحسنها الناصر لغرابتها، فاضعف الناصر له المكافأة وألحقه بأهل ولايته، فاستمر بقية عمره على العهد والطاعة[2].

وفي سنة ٣٢٨هـ استعان الناصر لدين الله بالقائد البربري علي بن حميد المكناسي[3]، وتمت المكاتبات بينهما لتوحيد الجهود ضد العبيديين في العدوة المغربية، وكان علي المكناسي قائداً للعبيديين قبل أن يخلع بيعتهم ويبايع الأمويين، وأظهر للناصر الطاعة وأعلن تبرؤه من الشيعة مستغفراً الله مما كان منه قبل، فأجابه الناصر وقبل بيعته وتابعه بالهدايا والكتب[4].

ولما تولى الخليفة الحكم المستنصر قيادة الدولة الأموية بالأندلس خلفاً لوالده الناصر لدين الله، أغدق على قبائل البربر في المغرب الأموال والعطايا رغبة منه في اجتذابهم لحرب العبيديين والوقوف في صفة، فأثمرت هذه السياسة مبايعة عدد كبير من قبائل ووجوه البربر للأمويين، وأقبلت وفود البربر إلى الأندلس معلنة الطاعة والولاء، وكان الحكم المستنصر قد خاطب وزيره وقائده الأعلى غالب بن عبدالرحمن عام ٣٦٢هـ وبعث إليه بعشرة

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا ، ص٤٦٠.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا ، ص٢٦١.

(٣) هو علي بن حميد بن مصالة بن حبوس المكناسي، ويذكر ابن خلدون أن اسمه حميد بن مصالة بن حبوس، وكان والده مصالة من أكبر قواد الشيعة في المغرب ولاه عبيد الله الشيعي تاهرت وافتتح المغرب وفاس وسجلماسة، ولما ترك حميد دعوة الشيعة وإنحاز للأمويين في الأندلس ولاه الناصر وابنه الحكم المستنصر الولايات مثل تلمسان، ولما توفي استعان الحكم والعامريين بابنه وأخوته وابن عمه في الولايات (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٧١/٦).

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٥٩، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٧١/٦.

آلاف دينار لتوزيعها على وجوه قبائل البربر الذين انحرفوا عن دعوة العبيديين وولاتهم في المغرب، كما بعث إليه بكسوة فاخرة من الديباج[١] والخز[٢] والمطارف[٣]، والسيوف المحلاة لتفريقها عليهم[٤].

ونتيجة لهذه العطايا أقبلت وفود البربر إلى قرطبة معلنة الطاعة ونبذ الدعوة العبيدية، ففي شهر شعبان من عام ٣٦٢هـ وصل عدد كبير من قبائل البربر معلنين طاعتهم للخليفة منحرفين عن الشيعة ومن والاهم، مستعدين لحربهم وقتالهم، فقبل منهم الحكم المستنصر ذلك ورضي عنهم وصب المال في أطنابهم صبا[٥].

وفي شهر رمضان من عام ٣٦٢هـ حضر إلى مجلس الخلافة وفد كبير من البربر، على رأسهم الزعيم أبي العيش أيوب بن بلال رئيس كتامة[٦]، فدفعت إليه خرائط المال، وأعداد من صنوف الخلع الرفيعة، وحمل على فرس رائع، كما خلع على ابنه خلع فاخرة، وخرجا وبين أيديهما خرائط المال ومناديل الخلع، ثم دعي بمن معه من رؤساء البربر أولاً فأول، فسلمت إليهم صلاتهم وخلعهم، وعلى أصحابهم وأعوانهم حسب مقاديرهم، كما دفع إلى أبي العيش رئيس كتامة سجله المعقود على قومه من كتامة الذين عاهدوه على طاعة أمير المؤمنين، وفي هذه السجل التفويض بالإمارة على قبائل كتامة، وتطبيق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإخراج الزكاة، والرفق بالرعية، ومجاهدة الكفار والخارجين

---

(١) الديباج: ضرب من الثياب بالكسر والفتح وهي الثياب المتخذة من الإبْرِيْسَم والطيلسان المدبج وهو الذي زينت أطرافه بالديباج (ابن منظور، لسان العرب، ٢٦٢/٢).

(٢) الخز: ثياب تنسج من صوف وإبريسم (ابن منظور، لسان العرب، ٣٤٥/٥).

(٣) المطارف: جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام قال الفراء: المطرف من الثياب هو الذي جعل في طرفيه علمان (الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، ٨٣/٢٨، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٨٧م.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٠٨، ١١٨.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١١٥.

(٦) كتامة قبيلة من البربر البرانس تسكن في المنطقة بين تاهرت والقيروان في مدينة سطيف الكبيرة الحصينة ولها كورة تشمل قرى كثيرة وعمارة متصلة يتوزع فيها الكتاميين وبينهم ظهر الداعي الشيعي أبا عبدالله الشيعي (الأصطخري: إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، ص٣٩، ٤٤، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م).

من الشيعة وغيرهم[١].

كما دخل إلى قرطبة جمع من قبيلة مصمودة[٢] البربرية من أهل العدوة مبايعين الخليفة الحكم المستنصر، فقبل بيعتهم ووسع عليهم[٣].

وبفضل هذه السياسة استطاع الحكم المستنصر أن يحكم سيطرته على بلاد المغرب الأقصى، خصوصاً بعد رحيل الدولة العبيدية إلى المشرق إبان تلك الفترة[٤]، وفي كتاب بعثه الحكم المستنصر لعماله على الأندلس يشرح لهم ما قام به من إرجاع السنة للمغرب ودحر الشيعة فيها، ويطلب منهم قراءة ما في كتابه على عموم الناس، دليل على نجاحه في هذه المهمة، وفي هذا الكتاب أكد الحكم المستنصر على تسخير الله له بأن دفعه لمواجهة من زاغت قلوبهم عن الحق، وتمكنه من إجبار كبارهم على الطاعة بتوفيق الله، وقيامه بإرسال الجيوش لقتال كل من أيد أو وقف مع العبيديين الشيعة، وأن جميع أمراء المغرب قد أذعنوا للخليفة وأطاعوه وتم أخذ البيعة منهم[٥].

وفي إطار محاصرة العبيديين وإبعاد خطرهم اتجه الأمويون إلى الاتصال بأعداء العبيديين في الخارج، فقد أبرم الخليفة الناصر لدين الله عدة تحالفات مع ملوك الدول المعادية للعبيديين، أشهرهم ملك ايطاليا هوج دي بروفانس (hugues de provenc)، فقد كان هذا الملك ناقماً على العبيديين لتخريبهم ميناء جنوة[٦]، وكان يريد الانتقام منهم[٧].

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١١٠-١١٥.

(٢) مصمودة: إحدى قبائل البربر المغربية تنتشر مساكنهم في المغرب الأقصى (الإدريسي : محمد بن محمد بن إدريس الحسني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢٢٢/١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢ م).

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١١٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٢٨/١.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٧١-١٨٢.

(٦) جنوة: مدينة في بلاد الروم على ساحل بحر الشام قديمة البناء حسنة الجهات كثيرة المزارع والقرى والعمارات، وأهلها مياسير(الحميري، الروض المعطار، ص١٧٣) .

(٧) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣١٥، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢١٣،٢١٥/٢، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٨٩-٩٣، المقري، نفح الطيب، ٣٦٤/١، ٣٧١).

كما تحالف الناصر لدين الله مع قسطنطين السابع إمبراطور البيزنطيين (٣٠١هـ - ٣٤٨هـ)، وكان هدف قسطنطين من هذا التحالف استعادة جزيرة صقلية من العبيديين، وقد استعرضت المصادر الأندلسية[1] الاحتفالات الفخمة والحفاوة البالغة التي استقبل بها الناصر لدين الله رسل الإمبراطور قسطنطين بين سنتين (٣٣٤هـ-٣٣٨هـ)، كما أشارت المصادر العبيدية صراحة إلى هذا التحالف، وأكدت أن الهدف منه تطويق الدولة العبيدية من الغرب والشرق، وفي ذلك يقول القاضي النعمان[2]:"كتب الناصر إلى طاغية الروم يسأله النصرة وأهدى إليه هدايا، وأرسل إليه رسلاً من قبله، فأجابه إلى ذلك، وجاءت أساطيل الروم من القسطنطية، ومراكب بني أميه من الأندلس".

ونتيجة لهذه التحالفات سواء مع أمراء البربر أو ملوك الدول المجاورة تمكن الأمويون من إبعاد الخطر الشيعي عن الأندلس وبلاد المغرب، واحتفظ هذان الإقليمان بالمذهب السني، ولأجل ذلك لم يجد العبيديون بداً من مغادرة هذه البلاد متوجهين شرقاً نحو مصر وبلاد المشرق الإسلامي، وإخلاء ساحة المغرب والأندلس للأمويين.

* * * * *

لقد حافظ الأمويون طوال فترة حكمهم للأندلس على الاتجاه السني لدولتهم، ووقفوا موقفاً صارماً تجاه أي فكر مخالف، وفي مقدمتها الاتجاه والفكر الشيعي، وكانت مواجهة الأمويين هذا الفكر بقوة وشدة، فقاوموا محاولة تغلغله بشتى الطرق، وصدرت الفتاوى بتحريم هذا المذهب وتجريمه من قبل كبار فقهاء الأندلس، وأمر أمراء بني أمية بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة، وقراءة الكتب التي كانت ترسل للتبشير بالانتصارات عليهم في المغرب من فوق منابر الجمعة، والاستعراض أحياناً برؤوس كبارهم ممن قتل في ساحات المعارك في أنحاء الأندلس على أبواب قرطبة، لذا بدأ الاتجاه الشيعي في الأندلس ضعيفاً

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢١٣، ٢١٥، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٨٩، العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب، ص ١٩٢، ليلى أحمد نجار، العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر، ص٢٠٧- ٢١٤، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٣م.

(٢) المجالس والمسايرات، ص١٦٦.

جداً ، ولم يستطع أن يكون لنفسه موطئ قدم فيها، ويعود السبب في ذلك إلى الصرامة والقوة التي تعامل بها بنو أمية مع هذا التوجه، فقد تم القضاء على جميع الثورات ذات التوجه الشيعي والعلوي داخل الأندلس ، ونشط أمراء بني أمية وبمساعدة من فقهاء المالكية والمذاهب السنية الأخرى في التصدي للثورات والأفكار الشيعية التي تحاول الظهور والبروز في الأندلس، وكان من ثمار ذلك ضعف التوجه الشيعي في الأندلس وانعدام أفكاره وقلة فرص نشر مذهبهم بين عوام الناس ، فقد كان الطرد أو الاعتقال نصيب كل من يشك في ولائه أو انتمائه لهذا المذهب .

وكإجراء وقائي أقدم الأمير عبدالرحمن بن محمد على إعلان نفسه خليفة للمسلمين وتقلب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، رداً على إعلان الخلافة الشيعية العبيدية بالمغرب بقيادة عبيدالله المهدي العبيدي، وكان من ثمار ذلك وفود أهل المغرب التي قدمت إلى الأندلس مبايعة له بالخلافة.

وقد نشط الخليفة الناصر لدين الله في الدعوة للمذهب السني في بلاد المغرب لقطع الطريق على الدعاية الشيعية العبيدية، وتواصل هو وابنه الحكم المستنصر مع العلماء والقادة المناهضين للدولة العبيدية في أنحاء العالم الإسلامي، واستقدموا كثيراً من العلماء الذين وقفوا بقوة ضد الدعوة الشيعية العبيدية، حتى أصبحت الأندلس في أيامهم مأوى ومقصد علماء السنة للهروب من بطش وتسلط الشيعة ، كما نجحوا في اجتذاب كثير من قادة بلاد المغرب لصفهم ضد الشيعة ، والترحيب بهم ومدهم بالأموال والسلاح والرجال للوقوف في وجه المخططات الشيعية في بلاد المغرب .

ولتضييق الخناق على الشيعة العبيديين بالمغرب أقدم الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر على التحالف مع القبائل والدول المجاورة ضد الدعوة الشيعية، وكانت قبائل البربر خير معين لبني أمية ضد أطماع الشيعة العبيديين، كما أبرم الخليفة الناصر لدين الله تحالفات مع بعض ملوك الدول المجاورة المعادية للعبيديين كملك إيطاليا وإمبراطور البيزنطيين، ونتيجة لهذه الأعمال التي قام بها أمراء بني أمية على جميع الأصعدة تمكنوا من إبعاد الخطر الشيعي عن الأندلس وبلاد المغرب، واحتفظ هذان الإقليمان بالمذهب السني، وهو ما دفع العبيديين الشيعة للتعجيل بالرحيل إلى مصر وترك المغرب للأمويين .

الفصـــل الرابع

مواجهة حكام بني أمية للأفكار والحركات المنحرفة الأخرى

المبحث الأول : مواجهة حركات الاعتزال.

المبحث الثاني : مواجهة أهل البدع والفلسفة.

المبحث الثالث : مواجهة أفكار الخوارج.

المبحث الرابع : مواجهة حركات الإلحاد والزندقة.

تأثرت الأندلس كما غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى بداية من القرن الثالث الهجري، بكثير من الأفكار والاتجاهات المخالفة للمذهب السني، نظراً لانتقال كثير من الكتب في فنون العلوم المختلفة إليها من المشرق، والتي جلبها بعض العلماء معهم، أو اقتناها بعض أمراء الدولة الأموية، كما كان للأفكار التي حملها بعض العلماء الوافدين على الأندلس، أو من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ورجع بهذه الأفكار، دور كبير في دخولها إلى الأندلس واعتناق بعض الأندلسيين لها، فظهر الفكر الاعتزالي والفلسفي وحركات الإلحاد والزندقة في بعض مناطق الأندلس، كما تسلل الفكر الخارجي إلى الأندلس عن طريق المغرب الذي كان يموج بهذا الفكر.

ولإدراك الدولة الأموية خطورة هذه الاتجاهات والأفكار والحركات على كيان ووحدة الدولة الفكرية، حرصوا على وقاية النظام السياسي والديني والإجتماعي في الدولة، ومحاسبة كل من ينتهج هذا النهج وتخليص الدولة من شروره وأفكاره. وسنستعرض ذلك عن طريق المباحث التالية :

المبحث الأول

مواجهة حركات الاعتزال

بدأت الاتجاهات الفكرية المخالفة للاتجاه السني بالتسلل إلى الأندلس في وقت مبكر من عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم (٢٠٦هـ-٢٣٨هـ)، وابنه الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨هـ-٢٧٣هـ)(١)، وكان الاتجاه الاعتزالي أو من يسمونهم بالمعتزلة(٢) أحد الاتجاهات الفكرية التي دخلت إلى الأندلس إبان تلك الفترة، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى الرحلة العلمية التي قام بها عدد من طلاب العلم إلى المشرق وبالتحديد العراق، فعاد بعضهم محملين بأفكار مختلفة، وأدخلوا كتباً تتبنى هذا الاتجاه، كما أن الانفتاح العلمي الذي شهدته الأندلس في تلك الفترة، وتشجيع الأمير عبدالرحمن بن الحكم وابنه للعلماء وتقريبهم وتمكينهم من تقلد كثير من المناصب(٣)، له دور كبير في تشجيع كثير منهم على الرحلة وطلب العلم، يضاف لذلك الدور الذي اضطلع به الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر في الحث على التأليف وجمع الكتب والاهتمام بها، والذي كان سبباً كبيراً في ازدهار الحركة الفكرية، وعاملاً مهماً في تشجيع الاتجاهات الفكرية(٤).

وفي ذلك يقول صاعد عن الحكم المستنصر:"واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من

---

(١) صاعد، طبقات الأمم، ص٦٤.

(٢) المعتزلة: هم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد سموا بذلك لما اعتزلوا مجلس الحسن البصري، وقيل غير ذلك، عندهم أنه لا يسمى مؤمناً إلا من أدى الواجبات واجتنب الكبائر، ويقولون أن الدين قول وعمل واعتقاد، ولكنه لا يزيد ولا ينقص، فمن أتى كبيرة صار في منزلة بين المنزلتين خرج من الإيمان ولم يدخل الكفر هذا حكمه عندهم في الدنيا، وحكمه في الآخرة خالد مخلد في النار (سعيد بن علي بن وهف القحطاني، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية في ضوء الكتاب والسنة، ص٣٦، مطبعة سفير، الرياض، ١٤٠٧هـ).

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٣١، ٤٣٢، ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٩٨، النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٢٢٦.

(٤) صاعد، طبقات الأمم، ص٦٤، ٦٦، ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/٢٠٠-٢٠٢.

ديار المشرق عيون التواليف الجليلة، والمصنفات الغريبة، في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها في بقية أيام أبيه، ثم في مدة ملكه من بعده، ما كاد يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة... فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل، وتعلم مذاهبهم"[١].

ومن الوسائل التي ساعدت على ظهور الاتجاه الاعتزالي في الأندلس، انتشاره بصورة كبيرة في بلاد المغرب، فقد تبني معظم الفقهاء الأحناف في دولة الأغالبة هذا الاتجاه، كما أن دولة الأدارسة تعتبر أقرب للاتجاه الاعتزالي من غيره، بالإضافة إلى انتشار هذا الفكر عند بعض قبائل البربر في المغرب[٢]، ولا شك أن وجود هذا الاتجاه في المغرب يسهل من وصوله إلى الأندلس، باعتبار الارتباط الوثيق الحاصل بين المغرب والأندلس في عدة مجالات.

ومما لا شك فيه أن تعصب جمهور الأندلسيين بوجه عام للمذهب المالكي، وحرص أمراء الدولة الأموية على الوحدة الفكرية للأندلس، جعل الجميع ينظرون لغيره من المذاهب نظرة ريبة ونفور، ولا أدل على ذلك من كلام المقدسي[٣] فيهم فيقول: "وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، فإن ظهروا على شافعي أو حنفي نفوه، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه". وإن كنا لا نجزم بصحة كلامه بشكل دقيق، إنما نستفيد من ذلك شدة تعصب المالكية في الأندلس لمالكيتهم على ما عداها من المذاهب الأخرى.

وقد اختلف أهل السنة في مدى كفر المعتزلة وغيرهم من المتأولة وأهل الهوى والبدعة، إلا أنهم لم يختلفوا في قتالهم إذا فارقوا أهل السنة وامتنعوا بشوكة، والمشهور عن مالك، أنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، ومنه رأي مالك بمن قال بخلق القرآن من المعتزلة:"هذا زنديق فاقتلوه"، أما عبد الملك بن حبيب كبير فقهاء المالكية في عهد الأمير

---

(١) صاعد، طبقات الأمم، ص٦٦.

(٢) محمد أحمد عبد المولي، القوي السنية في المغرب، ط١، ص٩٥، ٩٦، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

(٣)المقدسي: محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، ص٢٣٦، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

عبدالرحمن بن الحكم فكان يرى تكفير القدرية المعتزلة وتكفير أمثالهم[١].

وكانت هذه الفتاوى والآراء من قبل المالكية وفقهائهم في الأندلس، عاملاً مؤثراً في مواجهة مثل هذا الاتجاه والضغط عليه وعلى من يتبناه، وكان يكفي توجيه الاتهام لأي عالم بسلوك هذه الاتجاه ليتم التحذير منه ورفع أمره إلى الأمير ليرى رأيه فيه[٢].

لقد وجه الاتهام بتبني بعض أفكار المعتزلة للفقيه المالكي عبد الأعلى بن وهب القرطبي، فقد كان ينسب إلى القدر[٣]، كما أُثبت عليه مطالعة كتب المعتزلة والنظر في كلام المتكلمين، ويقال أنه يذهب إلى أن الأرواح تموت، وعلى الرغم من أن هذا الفقيه قد حظي بمنصب المشاور في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم، إلا أن فقهاء المالكية كيحيى بن يحيى، وعبدالملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، يطعنون عليه بذلك، كما أن صاحبه أبا لبابه ينكر عليه ذلك[٤]، وقد استجاب الأمير لهذه التحذيرات والطعون من فقهاء المالكية ضد ابن وهب، فوجه إلى هذا الفقيه كلاماً جارحاً بقوله: "وأما أنت يا عبد الأعلى، فقد كان يحيى بن يحي يشهد عليك بالزندقة، ومن كانت هذه حاله فحري ألا تسمع فتواه"[٥].

وهنا يظهر الأمير عبدالرحمن بن الحكم محامياً عن المنهج السني الصحيح، ويقرر إبعاد ابن وهب عن الفتيا، أو على الأقل التحذير من فتواه باعتبار أن لديه خلل في المنهج يلزم تعديله وتصحيحه.

---

(١) عياض، الشفاء، ص٨٣٤-٨٣٧.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٨٣، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١١٠.

(٣) ظهر الكلام في القدر في عهد عبد الملك بن مروان وكان ذلك في آخر عصر الصحابة وأول من تكلم في القدر معبد الجهني، وأصل بدعتهم هي عدم الإيمان بقضاء الله وقدره وأن كل شيء مقدر ومكتوب، ثم أحدثت المعتزلة القول بالقدر على أن الله عالم بأفعال عباده قبل أن تقع، ولكن أفعال الشر ليست بمشيئته وخلقه، وإنما هي من أفعال العباد (سعيد بن ناصر القحطاني، حقيقة البدعة وأحكامها، ١/١٠٥-١٠٧، مكتبة الرشد، الرياض).

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٢٩، عياض، ترتيب المدارك، ١/٤٤٥.

(٥) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٨.

وفترة حكم الأمير محمد بن عبدالرحمن، ظهر الفقيه خليل بن عبد الملك بن كليب المسمى خليل الفضلة، فقد كان هذا الفقيه معاصراً لبقي بن مخلد، ورحل إلى المشرق ودرس على يد عدد من العلماء هناك، وكان ممن يقول بالقدر[١].

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بآرائه دون تستر، وكان صديقاً في أول أمره للفقيه محمد بن وضاح فلما تبين له أمره عنفه وهجره، وحدث أن قابله الفقيه بقي بن مخلد فسأله عن أربعة أشياء،قال:"ما تقول في الصراط؟ قال: الطريق يقصد الإسلام فمن استقام عليه نجا، قال: فما تقول في القرآن ؟ فلجلج و لم يقل شيئاً، وكأنه يذهب إلى القول بأنه مخلوق، قال: فما تقول في القدر؟ قال: أقول أن الخير من عند الله والشر من عند الرجال، فقال بقي: لولا حالتك لأشرت بسفك دمك، قم فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت"[٢].

ورغم أن هذا الفقيه كان صريحاً بآرائه الاعتزالية التي لا يتستر منها، إلا أنه لما عرض للمناظرة والسؤال لإثباتها عليه، أمسك عن بعضها و لم يصرح بها، وهذا ما جعل الفقيه بقي بن مخلد لا يشير بقتله وسفك دمه، والذي يظهر أنه لم يتعرض للأذى في حياته، إنما تعرض للهجر والمقاطعة من الفقهاء وأصدقاءه نظراً لآرائه الاعتزالية، ولكن بعد وفاته تعرضت كتبه للحرق والتدمير، فقد قام جماعة من فقهاء المالكية بإخراج كتبه من بيته وإحراقها، إلا ما كان فيها من كتب المسائل الفقهية[٣].

أما الشخصية الأكثر جدلاً فهي شخصية محمد بن عبدالله بن مسرة، فقد طالع هذا العالم الكتب ودرس على يد عدد من العلماء منهم والده، ورحل إلى المشرق واشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة كما يذكر ذلك ابن الفرضي[٤].

و لم يكن هذا العالم معتزلياً خالصاً، فقد كان يقول ببعض قول المعتزلة كالاستطاعة وإنفاذ الوعيد والتأويل في كثير من القرآن[٥].

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٠.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٠.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٠.

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ص ٣٢٤

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٤.

ويذكر ابن حزم[1]: أن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر، وكان يقول إن علم الله وقدرته محدثتان مخلوقتان، وأن لله تعالى علمين، أحدهما: أحدثه جملة وهو علم الكتاب وهو علم الغيب، كعلمه أنه سيكون كفار ومؤمنون، والقيامة والجزاء، ونحو ذلك، والثاني: علم الجزيئات وهو علم الشهادة، وهو كفر زيد وإيمان عمر ونحو ذلك، فإنه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئاً حتى يكون.

وسيأتي الحديث عن محمد بن عبدالله بن مسرة ومواجهة الدولة وعلمائها له في المبحث التالي[2].

وفي سنة ٣٦٨هـ أُكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية، وكان من بين المتهمين في هذه القضية عبد الملك بن القاضي المشهور منذر بن سعيد البلوطي، فحكم عليه بالقتل حرابة نتيجة اتهامه بالزندقة والاعتزال[3]، كما اتهم بأنه ضم إخوته إلى مذهب ابن مسرة، وأنهم أخذوا يبثونه في قرطبة، وساعدهم في ذلك نظام الخلوة التي أقامها ابن مسرة بعيداً عن العاصمة في جبل قرطبة، وتكوين مقر آخر لأتباع المذهب في مدينة بجانة[4]، وكان أخوه حكم ممن يتهم بأنه رأس المعتزلة وكبيرهم وناسكهم ومتكلمهم بالأندلس[5].

والحقيقة أن تهمة الاعتزال لم تكن هي الدافع الحقيقي لقتلة وصلبة، إنما هي تغطية على السبب الرئيسي، وهو محاولة الخروج على الخليفة هشام بن الحكم المستنصر وتولية عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن، ولكن الحاجب والوزير الأول المنصور محمد بن أبي عامر اكتشف هذه المؤامرة وقضى عليها في مهدها[6].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١٥١/٤، مكتبة الخانقي، القاهرة، ب.ت.

(٢) انظر هنا، ص ١٧٢-١٧٩.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء ٢٧٩/١.

(٤) بجانة: من المدن الجنوبية في كورة إلبيرة بينها وبين غرناطة مئة ميل، ولا تبعد عن البحر المتوسط سوى ستة أميال، وهي الآن بليدة صغيرة في شمالي ميناء المرية على بعد عشرة كيلو مترات (ياقوت، معجم البلدان، ٣٣٩/١، محمد أبا الخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص٢٠٩).

(٥) ابن حزم : علي بن أحمد الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، ط٢، ص١٥٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.

(٦) ابن حزم، طوق الحمامة، ص١٥٧.

كما نسب القول بالاعتزال إلى أحد الوافدين على الأندلس من المشرق، وهو أبو الطيب محمد بن أحمد بن أبي بردة الشافعي البغدادي، وقد وفد هذا الفقيه إلى الأندلس أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله فأكرم وفادته، وأمر بإجراء النزل عليه، يقول ابن الفرضي[١]: "كان من أعلم الناس بالمذهب الشافعي وأحسنهم قياماً به، لم يصل إلى الأندلس أفهم منه بالمذهب، ولم تكن له كتب، ذكر أنها ذهبت له مع مال جسيم في المغرب، وكان ينسب إلى الاعتزال، ورفع ذلك إلى السلطان فأمر بإخراجه من البلد سنة ٣٧٣هـ".ويبدو أن هذا الفقيه تم إبعاده عن الأندلس أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر، فغادرها إلى تيهرت في المغرب، وأقام عند بنت له هناك حتى وفاته[٢].

يقول أحمد بدر[٣] عن الاعتزال في الأندلس: يلاحظ أن أراء المعتزلة لا تعدو أن تكون مبادئ اعتزالية بسيطة إذا ما قورنت بالمذاهب الاعتزالية في المشرق، ومدى التطور فيها.

وبهذا يتبين أن حكام وعلماء الأندلس انتهجوا أسلوباً ومساراً ثابتاً في مقاومة المعتزلة، يبدأ بتوجيه التهمة إليهم أولاً، ثم هجرهم وعدم مجالستهم والاستماع إليهم، ثم التحذير منهم ورفع أمرهم إلى السلطان، وينتهي ذلك بحرق كتبهم وقتلهم إذا لزم الأمر وتهيأت الظروف لذلك.

---

(١) تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٨٥.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٨٥.

(٣) دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ط٢، ١/١٩٣، دمشق، ١٩٧٢م.

المبحث الثاني

مواجهة أهل البدع والفلسفة

حظي الأمير عبدالرحمن بن الحكم بتعليم خاص منذ صغره، فقد اهتم به والده الحكم بن هشام وعني بتعليمه وتثقيفه، فطالع كتب الأدب، كما عُني عناية خاصة بكتب الأوائل،وكانت له رغبة في الاستزادة من كثير منها، ففي عهد والده وجه الأمير عبدالرحمن الأديب عباس بن ناصح الجزيري إلى العراق ليلتمس له الكتب القديمة، وجهزه بالأموال، فآتاه بكتب الزيج والقانون والموسيقى وسائر كتب الفلسفة والحكمة، فكان الأمير عبدالرحمن بن الحكم هو أول من أدخلها إلى الأندلس حسب رواية ابن حيان[١].

وصحب الأمير عبدالرحمن مجموعة من الأدباء ممن كان لهم اهتمام بالأدب والشعر والتنجيم والفلسفة والمنطق، من أشهرهم عبدالله بن الشمر بن نمير[٢]، والذي كان خاصاً بالأمير قبل ولايته وبعدها، وقد أدنى منزلته ووسع عليه، ونادمه وسامره[٣].

وبتولي الأمير عبدالرحمن بن الحكم، الحُكم في الدولة الأموية في الأندلس (٢٠٦هـ-٢٣٨هـ)، شهدت الأندلس انفتاحاً فكرياً كبيراً، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى الاستقرار الذي شهدته الأندلس في عهده، بالإضافة إلى الحراك الثقافي والجدلي الذي شهده العالم الإسلامي في تلك الفترة، ولا نغفل مع هذا كله شخصية الأمير عبدالرحمن المنفتحة على العلوم المختلفة واهتمامه العلمي الكبير[٤].

---

(١) المقتبس، السفر الثاني، ص٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) هو عبدالله بن الشمر بن نمير القرطبي، منجم الأمير عبدالرحمن بن الحكم ونديمه كان أديباً شاعراً، صحب الأمير عبدالرحمن أيام والده الحكم ولما صار أميراً أكرمه وأدنى منزلته، توفي في أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم سنة ٢٣٥هـ (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٣٣٦-٣٤٣، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٢٤/١).

(٣) ابن حيان، المتقبس، السفر الثاني، ص٣٣٦، ٣٣٧.

(٤) ابن حيان، المتقبس، السفر الثاني، ص٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨١، الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٧،١٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٠/٢، ٩١.

ولقد كتب الخليفة الحكم المستنصر في هذا وقال:"ولد جدنا الأمير عبدالرحمن بن الحكم لسبعة أشهر، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، يحفظ ثلاثة آلاف حديث من حديث النبي ﷺ، وكان يشارك مع ذلك في أكثر العلوم الإسلامية والجاهلية، ويشارك في دقائق علوم الفلسفة والبصر في التعديل، والعلم بالأفلاك والوقوف على الآثار العلوية"(١).

من هنا بدأت تتسرب علوم الفلسفة وغيرها من العلوم العقلية إلى الأندلس تحت حماية هذا الأمير ورغبته، ولكن من اللافت أن تحرك أفراد من المجتمع الأندلسي نحو هذه العلوم ودراستها لم تجعلهم حريصين على إظهار ذلك، بل إنهم كما يذكر صاعد(٢)، لم يتمكنوا من إظهار أفكارهم، وما يحملونه من توجهات فلسفية، نتيجة لقوة التيار المالكي خلال عصري الأمير عبدالرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد.

وأول ظهور واضح للاتجاه الفلسفي كان على يد محمد بن عبدالله بن مسرة، الذي حاول أن ينشر بعض أفكاره الفلسفية مثل القول بعدم حقيقة عذاب النار(٣)، إلا أنه وجد عاصفة من المعارضين والمنكرين، والذين اتهموه صراحة بالزندقة، ففر هارباً من الأندلس إلى المشرق في أيام الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥هـ-٣٠٠هـ) (٤).

اشتهر محمد بن مسرة بآرائه الفلسفية التي استقاها من الفلاسفة اليونانيين(٥)، ومن أبرزها نظرية تقول: بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية، كما يذكر ذلك بالنثيا(٦).

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٧٩.

(٢) صاعد، طبقات بالأمم، ص٦٤.

(٣) Cristobal Cuevas, El Pensamiento Del Islam, Madrid,1972, p.224.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٥) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ٣/٥٢٠، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م.

(٦) تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص٣٢٩، ٣٣٠، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.

ويقول ليفي بروفنسال[1]: أنه أراد بناء منهج فلسفي يقوم على مبدأ وحدة الوجود، وأن أصالة فلسفة ابن مسرة تكمن في الاستفادة من هذه الفكرة، وأنه بنى على هذا المذهب فكرته عن كونية العالم، وعقيدته في الإرادة الحرة، والعلم الإلهي السابق، وعدم تطهير الروح إلا بعد عودتها للعالم الروحاني.

ويرى جولد زيهر[2]:أنه تأثر بالنظرية الأفلاطونية الحديثة التي كانت منتشرة بالمشرق في ذلك الوقت، وكون مدرسته تدعو إلى حرية الفكر.

وبعد جولة قام بها ابن مسرة في المشرق رجع إلى الأندلس أثناء خلافة الأمير عبدالرحمن الناصر، وأظهر النسك والورع، واختلف الناس إليه وسمعوا منه، واستطاع أن يجتذب إليه مجموعة من التلاميذ عاش معهم في عزلة بجبل في قرطبة، وكان ذو قدرة ساحرة مؤثرة في النفوس، وخلال تلك الفترة التي قضاها في معتكفه ألف بعض الكتب التي وضح خلالها مذهبه، ككتاب التبصرة[3]، ويذكر ابن الأبار[4]: أنه لم يكن يخرج كتاباً إلا بعد أن يتعقبه حولاً كاملاً، ويذكر ابن حزم[5]: أن بعض كتبه معروفه في الأندلس ورأى بعضها.

وكان ابن مسرة خلال تلك الفترة التي قضاها في الأندلس بعد رجوعه إليها وقبل وفاته، حريصاً على عدم اطلاع أحد على كتبه حتى المقربين إليه، ويقال أنه لما ألف كتاب التبصرة احتال صاحبه حي بن عبد الملك[6]والذي كان معه في خلوته بالجبل ليأخذ هذا الكتاب وينسخه، ولما رأى ابن مسرة ذلك قال: لا نفعك الله به، ولم يخرج هذا

---

(١) الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط١، ص١٧١-٢٨٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٢) بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا، ص١٧٩.

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٤، ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٠، ٢١، ابن الأبار، التكملة، ١/١٩٧، ٢٤٧.

(٤) التكملة، ١/١٩٧.

(٥) الفصل في الملل والأهواء، ٤/١٥١.

(٦) هو حي بن عبد الملك من أهل قرطبة صحب ابن مسرة وسكن معه في متعبده في الجبل، وكان يجلس عنده فترة ويرجع إلى قرطبة (ابن الآبار، التكملة، ١/١٩٧).

الكتاب بعد ذلك لأحد[١].

وهذا يوضح بجلاء ما كان عليه أهل البدع والفلسفة من الخوف من فشو أمرهم وظهور ما يثبت عليه مذاهبهم، ورفع أمرهم إلى الحاكم، والذي لا يتردد في الحكم عليهم والتشهير بهم.

وفي ذلك يقول ابن حيان[٢] عن ابن مسرة:"ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان إلا من الثقات الوثاق العُقْدة، فاكتتم بذلك شأنه إلى أن غافصته منيته صدر دولة الناصر لدين الله".

لقد كان لحسن تصرف ابن مسرة في بث تعاليمه وحذره ويقظته، دور كبير في عدم تحرك السلطة السياسية ضده، بحيث أن الإثارة التي أنتهجها في دعوته وتعاليمه لم تكن قوية، وقد مضت أعوام طويله حتى بعد وفاته قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين، ولم يصدر أي قرار من السلطة العليا لتحريم أعماله وتعاليمه خلال تلك الفترة التي عاش فيها بعد رجوعه إلى الأندلس، وحتى بعد عشرين سنة من وفاته التي كانت في عام ٣١٩هـ[٣].

ويصور ابن حيان[٤] ما حدث بعد وفاة ابن مسرة فيقول:"ولم يلبث دعاته مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده، بما أوعزهم من مكنون علمه، وأخذ عليهم من بثه... وافشوا مذهبه، وغبطوا من فاء إليه واعتقده، فانتشر بقرطبة... فكثر القول في شأنهم، وشيّم الخلاف من تلقائه، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة، وتوقعوا منه البلية، وفزع فقهاؤهم وكبارهم بهمة إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا عليه".

ونتيجة لهذه التحذيرات من الفقهاء وكبار رجال الدولة، استجاب لناصر

---

(١) ابن الآبار، التكملة، ١/١٩٧.

(٢)المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢١ .

(٣) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٤، ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٠-٢٤، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/٤٣٢.

(٤) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢١ ، ٢٢.

لشكواهم، وتبنى مهمة القضاء على هذه الفرقة، وكتب كتاباً قرئ على الناس يوم الجمعة يقول ابن حيان[1]:"وفي يوم الجمعة لتسع خلون من ذي الحجة سنة أربعين وثلاث مائة قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين قرطبة والزهراء كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبدالله بن بدر، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون، وشذ فيه الخارجون عن رأي الجماعة، المنتمون إلى صحبة محمد بن عبدالله بن مسرة الجبلي، وانتحلوه في الديانة، فاختدعوا العوام بما أظهروه من التقشف في الزي، والشظف في المعيشة، واستتروا لبدعتهم بسكنى الأطراف البعيدة، حتى استمالوا بفعلهم عصابة ظلت بضلالتهم، وفرقة فتنت بمذاهبهم، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ففحص عنه وعلم صحته فتعاظمه واستوحش من اجتراء تلك الطائفة الخبيثة عليه... وأسلكه في سبيل سلفه الطيب -رضوان الله عليهم- المشهورة منهم في إنكار البدع وسلوك الجادة سبيل الجماعة، وإتباع مذهب أهل المدينة عش الإيمان ودار الهجرة... فأوعز إلى وزيره متولي أحكام مدينته بتتبع هذه الطائفة والتحري لها، وإخافتها والبسط عليها، والقبض على من عثر عليها منها، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين مشروحاً ليأتي من نظرة في شؤونهم حسب ما يوجبه الحق، ويوفقه الله لاتباعه، فنظر الوزير عبدالله بن بدر الأعذار إلى هؤلاء العُصب المارقة، والوعيد إن لم يفيئوا إلى الفلاح ويلوذوا بالتوبة"، ففي هذا المرسوم يتجلى موضوع الوحدة الفكرية في الأندلس، ومواجهة الأفكار والحركات المنحرفة عند الخليفة الناصر ومن سبقه من أمراء بني أمية، فهو يركز على أن فعل ابن مسرة ومن تابعه هو من قبيل الانتحال في الدين، والاستتار بالبدعة، وأن هدفهم التغرير بالناس، ولذا تابعهم بعض من فتن بهم، ثم عرج على أن بني أمية من بداية حكمهم إلى أيامه التي يحكم بها يقاومون تلك البدع، وينكرون على من يقوم بها، فهم اتباع مذهب أهل المدينة مذهب مالك بن أنس، وهدفهم جمع المسلمين تحت سلطان الجماعة، ويختم هذا المرسوم بضرورة تتبع هذه الفرقة، والقبض على أفرادها، ورفع أمرهم إليه ليرى رأيه فيهم.

وتأكيداً من الخليفة الناصر لدين الله في التحذير من مذهب ابن مسرة وفرقته، أنفذ كتاباً طويلاً إلى جميع آفاق ملكه بشأن هؤلاء المبتدعة وما أحدثوه، ومما جاء فيه:أن الله

(١) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٤، ٢٥.

سبحانه وتعالى "نظم زمام الأمة، وجمع وجوه السعادة العاجلة والنجاة الآجلة في تأليف الجماعة واجتناب نزعات الفرقة...فخوف وحذر ونهى عن تفرق الكلمة"[١] ففي هذا الكتاب ينبه الخليفة الناصر عامةالناس في كل أقطار الأندلس إلى أن هدي الإسلام يحث على الاجتماع والتوحد وعدم الفرقة، ثم يشرح كيف خرجت هذه الفرقة فيقول:"ولمّا استوسعت الطاعة، وشملت النعمة، وعمّ الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً، ولا تأتمر رشداً،...ظنوا أنهم فهموا ما جهلوا، وتفقهوا بما لم يدركوا، واستولى عليهم الخذلان، وأحل عليهم بخيله ورجله الشيطان، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم، فقالوا بخلق القرآن، واستيأسوا وآيسوا من روح الله،﴿**إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾[٢]، وأكثروا الجدال في آيات الله، وحرفوا التأويل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبرئت منهم الذمة...يحثها لازم الضلالة، وداعية الهلكة، والشذوذ عن مذهب الجماعة،...وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا أزره"[٣]،فالخليفة هنا يبين لعموم أهل الأندلس ماهي معتقدات هذه الفرقة المسرية التي ضلت، وأنها لا تبتغي رشداً ولا خيراً، وأنها أظهرت كتباً ضالة، وسعت في تفريق الجماعة والديانة، وأن هذه الفرقة برئت منهم الذمة لّما شذوا عن مذهب الجماعة، واعتنقوا بعض الأفكار الضالة، فهو يوصل لعموم الناس رسالة مفادها أن هذه الأفكار المنحرفة سبب في الفرقة وإفساد الجماعة، وأنه لما وصل خبرهم لأمير المؤمنين أغلظ بالأخذ فوق أيديهم، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد، كما أعلن أنه بعث بهذا الأمر لسائر الأقطار والكور، وفي البدو والحضر، وأنه بعث بهذا الأمر لسائر قواده وعماله، كي يقوموا بمطاردة هذه الطغمة الخبيثة التي تجرأت على تبديل السنة، والاعتداء على القرآن الكريم، وحديث رسول الله ﷺ، ففي هذا الخطاب يبرز الخليفة نفسه بأنه هو الحامي والمدافع عن السنة، وأنه يسعى لوحدة الأندلس الفكرية، ولن يتحقق هذا الأمر إلا بمحاربة هذه الأفكار والحركات المنحرفة، فيقول في كتابه"واتصل بأمير

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٦.

(٢) سورة يوسف، آية رقم (٨٧).

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٦-٢٨.

المؤمنين من قدحهم في الديانة، وصدوفهم عن الجادة ما شغل نفسه، وأقصر مضجعه، وأسهر ليله، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم، وأوعز إيعازاً شديداً، وأنذر إنذاراً فظيعاً، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً"(١)، ثم يطالب عماله في البلدان ببث العيون، وتتبع أولئك المارقين وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم وأسماء الشهود عليهم، حتى يحملوا إلى باب سدته، وينكلوا بحضرته(٢)، ويختم كتابه بالتشديد على عماله إذا تهاونوا في أداء واجبهم فيقول:"وإياك أن تداهن في أهل الريبة، وتتخطاهم إلى ذوي السلامة والأحوال الصالحة، فإن فرطت في أحد الأمرين أو كليهما فقد برئ الله منك وأحل دمك"(٣)

وبهذا يتضح أن الخليفة الناصر لدين الله أعلن الحرب على هذه الفرقة، وأمر بتتبع مؤيديها في أنحاء البلاد، وأنه ماضٍ في محاربة الأفكار المنحرفة سعياً لتحقيق الوحدة الفكرية، ولتحقيق هذا الأمر استمر الطلب لهذه الفرقة المسرية وإخافتهم، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله، كما يذكر ذلك ابن حيان(٤).

واستمرت ملاحقة أتباع ابن مسرة في عهد الخليفة الحكم المستنصر وعهد ابنه هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وحمل راية مقاومة أتباع ابن مسرة مجموعة من الفقهاء، أشهرهم قاضي الجماعة محمد بن يبقي بن زرب، فقد اعتنى هذا القاضي بإتباع ابن مسرة وبالكشف عنهم، واستتابة من علم أنه يعتقد مذهبهم، كما ألف كتاباً في الرد على ابن مسرة، قرأه على طلابه عدة مرات، وأخذه طلابه عنه، وكان من بين الذين استتابهم هذا القاضي، أحمد بن وليد الأنصاري(٥).

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٨.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥-٢٩.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٩.

(٤) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٠.

(٥) هو أحمد بن وليد بن عبد الحميد بن عوسجة الأنصاري، يكنى أبا عمر، ويعرف بابن أخت ابن عبدون، من أهل بجانة، له رحلة إلى المشرق، كان ينسب إلى اعتقاد مذهب بن مسرة، وهو أحد الذين استتابهم القاضي محمد بن يبقي بن زرب، توفي عام ٣٧٦هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ..، ص٤٥).

كما استتاب جملة من أتباع ابن مسرة، وخرج بهم إلى جانب المسجد الجامع الشرقي، وقعد هناك وأحضرت كتبهم بين يديه فأمر بإحراقها، وهم واقفون ينظرون إليه[١].

واستجابة لنداء الخليفة نشط علماء المالكية في الرد على أتباع ابن مسرة وتعرية منهجهم، فقد ذكر ابن الفرضي[٢]:أن"لأحمد بن خالد في الرد عليه صحيفة" أي أنه صنف رسالة في الرد على منهج ابن مسرة وتعرية فكره.

كما أن النحوي المعروف بأبي بكر الزبيدي[٣] ألف كتاباً في الرد على محمد بن مسرة[٤]، وألف أبو عمر الطلمنكي[٥]، أيضاً كتاباً في الرد على ابن مسرة[٦].

ولعبدالله بن محمد بن أبيض[٧] كتاباً رد فيه على محمد بن مسرة، أكثر فيه من الحديث والشواهد وهو كتاب حفيل كبير[٨]. ويعتبر منهج التأليف في الرد على المخالفين، من أهم الطرق التي تساعد في التحذير من أصحاب المناهج المنحرفة، فهو يساعد في تشكيل رأي عام موحد من عامة الناس وطلبة العلم، ويسهم في توحدهم ضد هذه

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٢٤، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٥.

(٢)تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٢٤.

(٣) هو محمد بن حسن بن عبدالله بن مذحج الزبيدي، من أهل إشبيلية، سكن قرطبة، وتوفي بإشبيلية، كان فقيهاً أديباً شاعراً، كان مؤدباً لهشام بن الحكم، وقاضياً لإشبيلية، وقائداً للشرطة في عهد هشام بن الحكم، توفي سنة ٣٧٩هـ (عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٠١،٢٠٢).

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٠١.

(٥) هو أحمد بن محمد بن عبدالله أبي عيسى الطلمنكي المعافري، أصله من طلمنكه بثغر الأندلس الشرقي، وقد نشأ بقرطبة، له مؤلفات نافعة وغلب عليه القرآن والحديث، توفي في بلدة طلمنكه سنة ٤٢٩هـ (عياض، ترتيب المدارك،، ٢/٣١٢).

(٦) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٣١٢.

(٧) هو عبدالله بن محمد بن نصر بن أبيض الأموي، يكنى أبا محمد، من أهل طليطلة وسكن قرطبة، روى عن عدد من العلماء، وعني بالحديث وضبطه، كان أديباً حافظاً، ومولده سنة ٣٢٩هـ توفي سنة ٣٩٩هـ وقيل ٤٠٠هـ (ابن بشكوال، الصلة، ١/٢٢٠، ٢٢١).

(٨) ابن بشكوال، الصلة، ١/٢٢٠.

الأفكار، نتيجة لتداول هذه الكتب فيما بينهم، فيسعون جميعاً لنبذ الأفكار المخالفة، والالتفاف حول سلطتهم الحاكمة في وجه أي فكر مخالف.

وظهرت عناية الحاجب المنصور بن أبي عامر بملاحقة أتباع محمد بن مسرة بشكل واضح، فقد كان شديداً على من عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد، والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها، والاستخفاف في شيء من أمور الشريعة، حتى أنه أحرق ما كان في خزائن الخليفة الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بحضور كبار العلماء، منهم الأصيلي والزبيدي وابن ذكوان، وقد قام بذلك بنفسه[١].

لقد كان لجهود حكام الدولة الأموية بالأندلس ودعم علمائهم لهم وبالأخص فقهاء المالكية، دور كبير في حماية الاتجاه السني في الأندلس والوصول بها إلى الوحدة الفكرية، وحمايتها من اختراق الاتجاهات الفكرية التي تحاول زرع بذور الخلاف والتفرق داخل المجتمع الأندلسي تحت ذريعة تعدد الأفكار والاتجاهات.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٩٣،٢٩٢.

المبحث الثالث

مواجهة أفكار الخوارج

من المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية(١)، والصفرية(٢)، قد وجد له مجالاً واسعاً في بلاد المغرب، كما وجد أتباع الخوارج في المغرب مجالاً خصباً لبث أفكارهم وتشريعاتهم بعيداً عن الخلافة الأموية في المشرق(٣)، فأقبل كثير من البربر عل مذهب الخوارج وأصبحوا هم المكون الرئيسي له في المغرب، وكان لدى هؤلاء البربر ميول تدفعهم لاعتناق هذا الفكر ودعمه، يقول ابن خلدون(٤):"ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدنوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها، من الإباضية والصفرية...واعتنق كثير من قبائل البربر مذهب الخوارج بشقيه

---

(١) الإباضية: هي أحدى فرق الخوارج، وتنسب إلى مؤسسها عبدالله بن إباض التميمي الذي خرج في أيام مروان بن محمد، ويدعي أصحابها أنهم ليسوا خوارج وينفون عن أنفسهم هذه النسبة، والحقيقة أنهم ليسوا من غلاة الخوارج كالأزارقة، لكنهم يتفقون مع الخوارج في مسائل عديدة منها أن عبدالله بن إباض يعتبر نفسه امتداداً للمحكمة الأولى من الخوارج، كما يتفقون مع الخوارج في تعطيل الصفات والقول بخلق القرآن، وتجويز الخروج على أئمة الجور (الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق أحمد فهمي محمد، ط٢، ١٣٢/١، ١٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٤، ٨٥/١، دار الندوة العالمة للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ).

(٢) الصفرية: هم أصحاب زياد بن الأصفر، وقيل سمو بذلك نظراً لاصفرار وجوههم نتيجة لكثرة العبادة، ومبادئهم بالجملة كمبادئ الأزارقة في أن مرتكبي الكبائر مشركون، ولكنهم لا يرون قتل مخالفيهم مثل الأزارقة، ويوالون عبدالله بن وهب الراسبي وحرقوص السعدي وأتباعهما من المحكمة الأولى، والخلاف بينهم وبين الأزارقة والنجدات والإباضية أنهم لا يكفرون القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الاعتقاد والدين، ولم يسقطوا حد الرجم (عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ط٢، ص٧٠، ٧٣، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م، الشهرستاني، الملل والنحل، ١٣٤/١).

(٣) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص١٤٨.

(٤)تاريخ ابن خلدون، ٢١٣/٣، ١٤٤/٦.

الإباضي والصفري وفشت فيهم هذه الدعوة".

واستطاع الخوارج في المغرب(الإباضية والصفرية)، أن يحققوا نجاحاً سياسياً بإقامة دولتين خارجيتين، إحداهما دولة صفرية في سجلماسة في المغرب الأقصى[١]، والأخرى إباضية في تاهرت بالمغرب الأوسط تحت مسمى الدولة الرستمية[٢].

وقد ذكر ابن خلدون[٣]: أسماء أربع قبائل كان يتألف منها جيش الفتح الذي قاده طارق بن زياد لفتح الأندلس سنة ٩٢هـ ،وهي : مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة، وكلها تنتمي إلى القبيلة البربرية الأم زناتة المشهورة باعتناقها المذهب الخارجي، يضاف لذلك أن قبيلة مطغرة كانت تعتنق المذهب الصفري والذي ينتمي إليها ميسرة المطغري[٤] الذي قاد أول ثورة خارجية بالمغرب وامتد صداها للأندلس[٥]، ولا شك أنه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتنق المذهب الخارجي، ومما يدل على ذلك وجود ثورات بربرية في الأندلس رفعت شعار الخوارج في الأندلس قبل دخول الدولة الأموية، وأنهم كانوا يحلقون رؤوسهم كما يفعل ميسرة المطغري الخارجي اقتداء بالأزارقة[٦] من

(١) الدولة الصفرية: قامت هذه الدولة بعد اجتماع أربعين رجلاً من الخوارج الصفرية وأمروا عليهم عيسى بن يزيد الأسود سنة ١٤٠هـ وهو من موالي العرب ورؤوس الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة وانتهى حكمهم سنة ٢٩٦هـ على يد أبو عبدالله الشيعي الداعية العبيدي (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٧١/٦-١٧٣).

(٢) الدولة الرستمية قامت هذه الدولة عام ١٦٠هـ على يد مؤسسها عبدالرحمن بن رستم وعاصمتها تاهرت بالمغرب الأوسط وامتد حكمها في المغرب الأوسط وبعض تونس حتى سقطت سنة ٢٩٦هـ على يد عبيدالله المهدي العبيدي (سليمان الباروني، مختصر تاريخ الإباضية، ص٢٧-٣٢، مكتبة الاستقامة، تونس، ب-ت).

(٣) تاريخ ابن خلدون، ١٥٥/٦، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٨٥.

(٤) هو ميسرة الحسن ويعرف بالحقير وقيل الخفير، زعيم قبيلة مطغرة من البربر الذي ثار على الأمويين سنة ١٢٢هـ بسبب سوء سيرة ولاة الأمويين في البربر، وطلب نسائهم الوصائف البربريات العسلية الألوان، كان خارجياً يرى رأي الصفرية قتل على يد أتباعه لسوء سياسته (ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٢/١، ٥٣، ٥٤، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٥٥/٦، ١٥٦).

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٢/١-٥٤.

(٦) الأزارقة: هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفي، المكنى بأبي راشد ولم تكن للخوارج فرقة أكثر عدداً ولا عدة ولا أشد شوكة منهم، وهم يقولون بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون، والقعدة عن الهجرة إليهم مشركون (عبد الناصر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٢، ٦٣).

خوارج المشرق[1]، ويذكر ابن حزم[2]: أن النكار[3] من الإباضية، هم الغالبون على خوارج الأندلس.

وقد أظهر فقهاء المالكية في الأندلس موقفاً صلباً تجاه الخوارج، يقوم على وجوب محاكمة من يعتنق عقائدهم وإيقاع العقوبة عليهم إذا لم يتوبوا، فقد كان عيسى بن دينار وهو أحد شيوخ المالكية في الأندلس، يرى أن أهل الأهواء من الإباضية والخوارج شأنهم شأن المرتدين عن الإسلام، فالواجب استتابتهم، فإن تابوا وإلا قتلوا، لا لكفرهم وإنما لإصرارهم على البدع المخالفة للحق[4].

أما عبد الملك بن حبيب شيخ المالكية وأحد الفقهاء المشاورين في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم، فهو أشد قسوة في حكمه على الخوارج فهو يرى تكفيرهم، والحكم بقتلهم دون استتابة لكفرهم، وهو رأي مالك فهو يرى أن أهل الأهواء كلهم كفار، وحكم على من قال بخلق القرآن بأنه كافر فاقتلوه[5].

ولا يخفى ما للخوارج من أثر كبير في اضطراب الدولة الإسلامية، وسعيهم الدائم والدؤوب لخلخلة وحدة البلاد الإسلامية، وبث الفرقة والاحتراب داخلها، ليظفروا بالحكم في إطار الفوضى التي يحدثونها داخل البلاد الإسلامية، لذا كان سعي حكام بني أمية كبيراً في القضاء على كل نبتة خارجية، ومحاولة القضاء عليها في مهدها قبل استفحالها واستطالة شرها، فتوجه الحكام الأمويون إلى العمل بما يفتي به فقهاء المالكية في الأندلس في شأن الخوارج، ومن ذلك ما فعله الأمير الحكم بن هشام مع أحد أولئك

(١) مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، ص٣٤، ٤٤، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م.

(٢) الفصل في الملل، ٤/١٥٤.

(٣) النكارية: جماعة من الخوارج مشهور عنهم تكفير أهل الملة وسب علي رضي الله عنه (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٧، ١٨، ١٩).

(٤) عياض، الشفاء، ص٨٣٥.

(٥) عياض، الشفاء، ص٨٣٦، ٨٣٧.

الخوارج، إذ خرج بناحية مورور[1] رجل يقول بقول الخوارج ومعه جماعة، فوصل كتاب عامله إليه بخبره، فأخفى الأمير الحكم خبره واستدعي قائداً من قواده، وأمره بأن يسير إليه ويأتيه برأسه ولن يبرح مكانه حتى يرجع إليه برأس الخارجي، واستطاع هذا القائد أن يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه، ولما أحضر رأس الخارجي إلى الحكم فرح واستبشر، وأحسن إلى هذا القائد وأعلى مكانه[2].

ومما يحكيه الفقيه محمد بن وضاح عن الحكم بن هشام، أنه خرج يوماً متنزهاً فنزل منزلاً للراحة، فقعد ثم استلقى وتنفس الصعداء، ثم نظر إلى بعض الفجاج فقال:"يخرج في آخر الزمان بهذا البلد خوارج يظهرون على أهله، وكأني أنظر إليهم مطلعين من هذه الفجاج، سيوفهم بأيديهم يقتلون الرجال ويفسدون إليهم، ويستبيحون الحرم ويسبون الوالدان والعيال، فياليت حكماً كان حياً حتى يبلو الله كيف يكون ذبه عن الإسلام، وقيامه دون أمة محمد ﷺ[3]، فكان ابن وضاح كثير التوقع لتلك الخارجة والتخوف من أن يلحقهم.

ولا نعلم على ماذا بنى الأمير الحكم حديثه هذا عن هؤلاء الخوارج، وكيف عرف بخروجهم؟ هل رأى رؤيا أو قرأ حديثاً. لكن ما نستفيده نحن من هذه الرواية استعداد الأمير الحكم بن هشام لمواجهة الخوارج، والعمل على القضاء على كل نبتة خارجية، ليصل من خلال ذلك إلى القضاء على الأفكار والعقائد الباطلة تحقيقاً للوحدة الفكرية في الأندلس، وهذا ما كان يؤمله الأمير الحكم بقوله: كيف يكون ذبه عن الإسلام وقيامه بأمر أمة محمد ﷺ.

وقد سنحت للأمير الحكم بن هشام مواجهة الخوارج، ففي أيامه ظهرت في الجزيرة الخضراء طائفة تدين برأي الخوارج وتدعو إليه، وتبرأ من علي بن أبي طالب رضي الله

---

(١) مورور: كورة متصلة بأحواز قرمونة من جزيرة الأندلس، وهي بالقرب من كورة شذونة ومن قرطبة بين القبلة والمغرب، وقاعدتها مدينة قلب وكانت جبايتها أيام الحكم بن هشام ٢١ ألف دينار (الحميري، الروض المعطار، ص٥٦٤).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٤٢٦/٥، ٤٢٧.

(٣) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس، ص٧٤، ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٩٢.

عنه، وهوان الله عليه ومن تلاه من الأئمة، وتسيءُ ذكرهم، وانضم إليه جمع كبير قاموا بقتال الجماعة، فكتب عامل الحكم بن هشام على الجزيرة الخضراء عباس بن ناصح الجزيري إلى الحكم يعلمه بأمرهم، ويحرضه عليهم، ويحثه على المبادرة إليهم قبل أن يستفحل شرهم، وضمن كتابه شعراً يقول فيه:

"صل بالأفيل[1] الذي ربوا لفتنتهم　　　من قبل أن يرحلوا نحونا جذعا

فلما قرأ الحكم شعره قال: أي والله نفعل وكرامة، ثم عبأ جيشاً وخرج بنفسه حتى أخذ بباب الجزيرة وأهلها لا يعلمون، فحمل السيف على أكثرهم وقضى على هذه النبتة قبل أن تستفحل"[2].

فاستجابة الحكم بن هشام لطلب واليه، وخروجه بنفسه وقضاؤه على هذه الحركة بقوة، دليل على حرص حكام الدولة الأموية على القضاء على أي ثورة عقائدية يمكن أن تكون سبباً في تفتيت وحدة البلاد الفكرية، وتعمل على زعزعة استقراره سياسياً ودينياً، وهذا ما كانت تسعى إليه كثير من حركات الخوارج، فهي تتعدى مفهوم الأفكار والعقائد إلى مفهوم الثورة والقوة والسلطة.

و لم تقتصر مواجهة الأمويين للخوارج على الأندلس فقط، بل تعداها إلى المغرب فقد اتجهت همة المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد، إلى المغرب للقضاء على خوارجها من الإباضية، فأرسل القائد خزرون بن فلفل الزناتي[3] إلى سجلماسة سنة ٣٦٩هـ، وكانت هذه المدينة قد عادت إلى أيدي الخوارج الإباضية بعد الحروب التي خاضتها الدولة الأموية مع العبيديين في المغرب الأقصى، وتمكن هذا القائد من هزيمة الخوارج في سجلماسة، وقتل زعيمهم المسمى المعتز بالله، وضبط المدينة، وأقام فيها الدعوة

---

(١) الأفيل هو الفصيل أو الصغير من الأبل الحديث العهد بالميلاد، يريد بذلك إقض على هذه الفتنة وهي في مبتدأها قبل أن تستشري وتستفحل(ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٣٣، هامش"١"، ابن منظور، لسان العرب، ١١/١٨).

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) هو أحد زعماء زناته، من قبيلة مغراوه البربرية، انضم للدولة الأموية وأصبح من قوادها (مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبدالقادر بوبايه، ط١، ١٠/١٠٦، دار أبي رقراق للطابعة والنشر، الرياض، ٢٠٠٥م.

للخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم، وكتب بالفتح له، وبعث برأس الخارجي المعتز بالله إلى قرطبة، فتم نصب رأسه على باب السدة[١] نكالاً وردعاً لكل من انتحل نحلته[٢].

ومع أن الدولة الأموية ارتبطت بعلاقات ودية مع الدولة الرستمية الخارجية في المغرب أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد، وتم تبادل السفارات بينهم[٣]، ثم ارتبطت الدولة الأموية في عهد الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر بعلاقات وتحالفات مع بعض القبائل والقادة الخوارج في المغرب[٤]، إلا أن تلك التحالفات فرضتها الظروف السائدة في تلك الفترة، ففي الأولى كانت الدولة الأموية تخشى من النفوذ العباسي وحليفه الأغلبي في المشرق وإفريقية، فتكون الدولة الرستمية هي خط الدفاع عن الأندلس، وفي الثانية كانت الدولة الأموية تواجه عدواً شرساً هم الشيعة العبيديون المتطلعون لنشر معتقدهم ونفوذهم في المغرب والأندلس، ولم يكن ارتباط الأمويين بهؤلاء الخوارج موافقة منهم لعقائدهم، وإنما رغبة في الاستفادة منهم لمواجهة عدو أشرس وأخطر يهدد كيان الدولة برمته.

وحين ضعفت الخلافة الأموية، وبدأت الفتنة في الأندلس، أخذت بعض مبادئ الخوارج تظهر في الأندلس وتجد لنفسها مكاناً دون أي رادع يقف في وجهها، ولعل ذلك راجع إلى الحرية الفكرية التي تمتع به الفكر الأندلسي في مجتمع التنافس على السلطة، حيث وجد في المجتمع الأندلسي من يظهر مبادئ الخوارج صراحة كما هو واقع أسرة بني برزال البربرية التي تعتنق مذهب النكارية من الإباضية[٥].

لقد استطاعت الدولة الأموية بجهود حكامها، ودعم فقهائها، المحافظة على وحدة

---

(١) أحد أبواب مدينة قرطبة

(٢) مجهول، مفاخر البربر، ص١٠٥، ١٠٦.

(٣) البلاذري : أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، ص٣٢٨، مؤسسة المعارف للنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٨/١، ليلى أحمد نجار، العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر، ص١٨٩ - ١٩١.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥٧-٢٦٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢١٣/٢، ٢١٢.

(٥) ابن حزم ، الفصل في الملل، ١٤٥/٤، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٣٧.

الأندلس الفكرية، ومحاربة أي فكر يمكن أن يؤدي إلى زعزعة استقرار البلد وضياع الوحدة التي تمتع بها سكان الأندلس طوال أيام بني أميه، ولكن لما تراخت المراقبة الأمنية، ووصل إلى السلطة حكام ضعاف، تبعثرت الجهود، وتنوعت الاتجاهات، وأخذت الأندلس في التفكك والإنحلال.

المبحث الرابع

مواجهة حركات الإلحاد والزندقة

أدرك أمراء الدولة الأموية أن لانتشار الفساد، وظهور الإلحاد والزندقة في المجتمع الأندلسي، خفايا تهدد كيان الدولة ووحدتها الدينية والفكرية، فحرصوا على وقاية النظام السياسي والاجتماعي في الدولة، ومحاسبة كل من ينهج هذا النهج وتخليص الدولة من شروره وأفكاره.

ففي أواخر عهد الأمير الحكم بن هشام أصيب بمرض أقعده، فأمر ولده وولي عهده الأمير عبدالرحمن بن الحكم بهدم فندق في جهة حي الربض من قرطبة، وكان هذا الفندق يتخذ لبيع الخمور،ويؤمه أهل الباطل من كل مكان، فهدم وأحرق، وصبت أشربته وكسرت آنيته، وأقيمت الحدود على من وجد فيه، وكان الأمير عبدالرحمن قد أباح للناس المشاركة في هدمه وإزالته، فشارك كثير منهم في هذه المهمة[١].

كما أمر بصلب القومس ربيع بن تدلف[٢]، الذي كثر أذاه على المسلمين بفرض المكوس[٣]عليهم، كما ضرب أهل الفساد وطردهم من قرطبة، ولم يتهاون في إقامة حدود الله[٤].

وكان هدف الأمير عبدالرحمن بن الحكم من هذه الأعمال، قطع دابر الفساد وإزالة

---

(١) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص١٨٤ – ١٨٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٧٧.

(٢) هو ربيع بن تدلف قومس النصارى في عهد الأمير الحكم بن هشام والعامل على طبول أهل الذمة،والمتوليلقهرمة الأمير الحكم وأموره الخاصة وصاحب المكوس (ابن حيان، المقتبس السفر الثاني، ص ١٨٣، ١٨٤، مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٨٥).

(٣) المكس: الجباية والمكس والمكوس دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق وهي الضريبة التي يأخذها الماكس وأصله الجباية (ابن منظور، لسان العرب، ٦/٢٢٠).

(٤) مجهول، تاريخ الأندلس، ص١٨٥.

المنكر[1]، حتى يستقيم للناس دينهم، كما أن مشاركة الناس بهذه المهمة، دفع لهم للاجتماع مع الحاكم، وتوحيد الجهود للوقوف في وجه الأفكار والمذاهب الهدامة، والحركات التي تفسد المجتمع من داخله، كما لا يخفى أن من أهداف الأمير عبدالرحمن الاستحباب إلى الناس،والإستحماد إليهم قبل تولي الإمارة، لأن الناس مجبولون على حب الخير وحب من يدعو إليه.

وفي عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم قام الناس بقرطبة على يحيى بن زكريا الخشاب[2]، وكان هذا الرجل يرمى بالزندقة، ويستخف بالديانة والرسالة، وشهد عليه بلفظ نطق به عابثاً في يوم مطر، فلما وصل الخبر إلى الأمير عبدالرحمن بن الحكم أمر بحبسه وطلب الشهادات عليه، وتدخلت عجب زوجة الأمير الحكم بن هشام لتطلق سراحه لقرابته منها، فقال الأمير:"مهلاً يا أماه! فلابد والله من أن يكشف أهل العلم عما يجب عليه في لفظه ذلك الذي شهد عليه به، ثم يكون الفصل بعد في أمره، فإنا معشر بني مروان، لا تأخذنا في الله لومة لائم، وما نرى أن الله رفع ملكنا وجمع في هذه الجزيرة فلّنا، وأعلى فيها ذكرنا، حتى صرنا شجى في حلق عدونا، إلا بإقامة حدوده، وإعزاز دينه، وجهاد عدوه، مع مجانبة الأهواء المضلة والبدع المردية"[3].

وقال لها أيضاً:"هذا أمر دين لا يجب الإغضاء عليه لقريب ولا بعيد... فبحمايتنا للشريعة، نستصرف النقم، ونستديم النعم"[4].

ثم تقدم الأمير إلى محمد بن السليم[5] والي المدينة وطلب منه أن يحضر محمد بن زياد

---

(١) مجهول، تاريخ الأندلس، ص١٨٥.

(٢) هو يحيى بن زكريا الخشاب ابن أخت عجب حظية الأمير الحكم بن هشام، ويذكر الخشني أنه ابن أخيها والصحيح ما ذكره الرازي أنه ابن أخت عجب (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤١٤، ٥٥٤، الخشني، قضاة قرطبة، ص٩٠،٩١)

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤١٤-٤١٦، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٧.

(٤) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤١٥.

(٥) هو محمد بن السليم صاحب الأمير عبدالرحمن بن الحكم ومن أعظم وزرائه تصرف له بالعديد من الخطط والولايات وكان رزقه في الشهر الواحد يصل ٣٥٠ ديناراً (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٩٦).

القاضي وفقهاء البلد، ولما جمعهم شاورهم في أمر هذا الرجل، وما شُهد عليه به، فتوقف القاضي محمد بن زياد عن الفتوى بسفك دمه، وتبعه في ذلك بعض الفقهاء، كعبد الأعلى بن وهب، وإبان بن عيسى بن دينار، أما الفقيه المالكي المعروف عبدالملك بن حبيب، والفقيه أصبغ بن خليل، فأفتوا بقتله وسفك دمه، فأمرهم والي المدينة بكتابة ما أفتوه به كلهم، ورفع ذلك إلى الأمير ليتصفحها ويرى رأيه فيها، ولما نظر إليها اختار قول ابن حبيب وابن خليل، ورأى ما رأيا من قتل هذا الملحد وسفك دمه[١].

و لم ينته هذا الأمر عند هذا الحد، بل أمر الأمير بعزل القاضي محمد بن زياد لتساهله في أمر الله تعالى، كما وجه للفقيه ابن وهب تهمة الزندقة والتي كانت يتهمه بها يحيى بن يحيى، وقال له:"ومن كانت هذه طويته فحري ألا يؤخذ بفتواه"[٢].

وفي هذه الحادثة انجز الأمير عبدالرحمن بن الحكم عدة أمور، أهمها: حماية جناب التوحيد، والرجوع إلى العلماء في أمور الدين، وإسناد مهمة معاقبة الزنادقة والملحدين إليهم، والأخذ بفتواهم، كما أعلن اعتزازه بتطبيق حدود الله، وإيقاع العقوبة على من ينهج نهج أهل الأهواء والبدع، والمحافظة على وحدة الأندلس الفكرية.

ولا غرابة في ذلك! فقد أثبت الأمير عبدالرحمن تمسكه بفتوى فقهاء عصره في أمر الملحدين، وتنفيذه لأحكامهم، فحينما تكلم الناس في هارون بن حبيب، وكان هذا الرجل أخا للفقيه المعروف عبد الملك بن حبيب، وتسب إليه الإلحاد في بعض كلامه، فحبسه الأمير عبدالرحمن وطلب الشهادات عليه، فشهد عليه القوم بشهادات مختلفة، ورفع الصك الذي انعقدت فيه شهادات القوم وتقييدها، وفتوى الفقهاء عليها، إلى الأمير عبدالرحمن، فنظر فيه، وأمر أن يذهب به إلى أخيه الفقيه عبدالملك بن حبيب، فأجاب بجواب مطول، ودرأ الحدّ عن أخيه، فعمل الأمير بفتوى عبد الملك وأطلق هارون، ورفع منزلة عبدالملك بن حبيب على الفقهاء وشاوره في أكثر أموره[٣].

---

(١) الخشني، قضاء قرطبة، ص٩٠، ٩١، ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤١٥، ٤١٦، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٧، ٧٨.

(٢) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤١٦.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٤١٧، ٤١٨.

وهنا لابد أن يكون الأمير عبدالرحمن قد تصفح شهادات القوم على هارون،وتصفح أيضاً رد القاضي عبدالملك على ما ورد من الشهادات على أخيه، وقد يكون الأمير أعجب بفتوى عبدالملك، وحسن رده على ما اتهم به هارون، لذا رفع منزلة عبدالملك وشاوره في أكثر أموره، وفي الجواب المطول للقاضي عبدالملك يبدو أنه فصل في توضيح حال أخيه، وتفنيد الشبهات التي أدانته، فظاهر جوابه لم يكن مداهنة لأخيه على حساب الدين، بقدر ما أراد بيان الحق، فقد عُرف هذا القاضي أنه كان من أجل فقهاء عصره وأعلمهم، ومن كبار المالكية في زمنه، ومن خلال هذه الحادثة وغيرها أثبت أمراء الدولة الأموية سعيهم الحثيث للقضاء على أي فكر إلحادي يمكن أن يفسد التوجه السني للدولة الأموية بالأندلس.

وفي سنة ٢٣٧هـ قام أحد المعلمين بشرق الأندلس ناحية الثغر بادعاء النبوة، وتحريف القرآن، فتبعه خلق كثير، وكان ينهى عن قص الشارب والشعر، وتقليم الأظافر، ويقول لا تغيير لخلق الله، فاستشار الوالي أهل العلم فيه؟ فأشاروا باستتابته ثلاثة أيام فإن رفض التوبة قتل، فلم يتب فقتل صلباً، وكتب الوالي إلى الأمير عبدالرحمن بن الحكم يخبره بأمره، فأثنى عليه وعلى عمله[1].

وفي أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن خرج لنزهة إلى جزيرة قادس[2]، وضرب أخبيته[3] حول الصنم المنسوب إليها، وكان هذا الصنم قد تم بناءه قديماً [4]، فأمر بإيقاد

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ص١٥٧، ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٠/٢، مجهول، تاريخ الاندلس، ص١٩٠.

(٢) قادس: جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية غربي الأندلس تقارب أعمال شذونه طولها ١٢ ميل قريبة من البحر بينها وبين المحيط الأطلسي خليج صغير، وبها مزارع كثيرة (الحميري، الروض المعطار، ص٤٤٨، ياقوت، معجم البلدان، ٢٩٠/٤).

(٣) أخبيته: الخباء من الأبنية وهو ما كان من وبر وصوف ولا يكون من شعر، وهو على عمودين أو ثلاثة وما فوق ذلك فهو بيت (ابن منظور، لسان العرب، ٢٢٣/١٤).

(٤) من أعجب الآثار بهذه الجزيرة الصنم المنسوب لقادس بناه هرقلش من الروم الأغريقيين كان من قواد الروم وكبرائهم على زمن موسى عليه السلام، وقيل أنه أول معدود لملوك اليونانيين (الحميري، الروض المعطار، ص٤٤٨).

النار حول الصنم وهدمه[١].

وقد قام الأمير عبدالله بن محمد بسجن محمد يونس الجياني[٢]، بسبب فساده وإفساده، ولا نعلم بالتحديد ما نوع الفساد الذي مارسه وقام به، إلا أننا نشاهد الأمير عبدالرحمن الناصر يقوم في سنة ٣٠٠هـ وبعد توليه قيادة الدولة الأموية بالأندلس، بإطلاق سراحه بعد أن أخذ عليه التعهد بأن لا يواقع منكراً[٣].

وشاور الأمير عبدالله ذات مرة الفقيه بقي بن مخلد، والفقيه محمد بن سعيد الملون[٤] وبعض فقهاء المالكية، في شأن الزنديق هل يقتل قبل أن يستتاب ؟ أو يستتاب قبل أن يقتل ؟ فأفتى بقي ومحمد بن سعيد بالاستتابة قبل القتل، وخالفهم الفقيه قاسم بن محمد، فأفتى بترك الاستتابة، وقد أخذ الأمير بقول من قال بالاستتابة من فقهاء المالكية، بالرغم من مخالفتهم لمالك في ذلك[٥]. وقد تكون فتواهم تلك ومخالفتهم لمذهبهم سعياً منهم للوحدة الفكرية، وترك كل ما يمكن أن يزيد من تفرق البلاد، مع الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة الأموية في أيام الأمير عبدالله بن محمد.

وبعد تنصيب الخليفة عبدالرحمن الناصر نفسه خليفة على المسلمين، وبالتحديد في سنة ٣٢٥هـ، ادعى رجل النبوة في جبال غمارة[٦]، وشرع ديانه جديدة وصلوات معينة، كما ألف قرآناً خاصاً به، وفرض عليهم صيام أيام معينه، وأسقط عنهم الحج، فاتصل خبره بالخليفة الناصر، وكيف أنه أضل كثيراً من الناس، فبعث إليه جيشاً كبيراً فالتقوا

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٧٨، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) لم يتم العثور على ترجمة لهذه الشخصية.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٦٠.

(٤) هو محمد بن سعيد الملون، من الفقهاء المشهورين، ومن أصحاب الشورى في عهد الأمير عبدالله بن محمد، من أهل قرطبة، سمع من الفقيه بقي بن مخلد وصحبه (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٣٥، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٥٣).

(٥) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٥٣.

(٦) غمارة: بلاد غمارة جبال متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر في العدوة المغربية بين مدينة فاس وسبتة ويسكنها قبائل غمارة البربرية (الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٣٢).

معه في قصر مصمود[١] فتمت هزيمته وقتله، فبعث برأسه إلى قرطبة، ورجع من آمن به إلى الإسلام[٢].

وفي عام ٣٣٣هـ ظهر رجل بأشبونة يزعم أنه من ولد عبد المطلب، وأن أمه مريم بنت فاطمة[٣]، وادعى أنه نبي، وأن جبريل ينزل عليه، وسنّ لأتباعه شرائع كحلق الرأس وغير ذلك مما لا يعقل، فوقع عليه البحث فأختفى أثره وهرب[٤].

وبهذا يتبين حرص الخليفة عبدالرحمن الناصر على تتبع مدعي النبوة والإلحاد، والقضاء على فكرهم سريعاً حتى لا يتأثر عوام الناس بهم، كذلك حرص على توجيه من تلبس عليه أي من هذا الأفكار، ونصحه ودعوته للرجوع للإسلام والتوبه، كما فعل مع أهل غمارة.

وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر شغلت الرأي العام قضية أبي الخير الذي اتهم بالزندقة، فقد شهد لدى قاسم بن محمد صاحب أحكام الشرطة بقرطبة خمسة وأربعون شخصاً، بشهادات تدين أبا الخير بأنه زنديق ملحد يسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ويطعن في خلافة أبو بكر وعمر وعثمان، رامياً عائشة رضي الله عنها بالكذب، ومادحاً الخمر، شارباً زانياً لواطاً يأكل من لحم الخنزير، هازلاً بكتاب الله، طاعنا بالسنن وأهلها،مؤلاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وتاركاً للصلوات الخمس، مدعياً بأحقية علي للنبوة، ويدعو لأبي تميم العبيدي، وينكر الشفاعة، ويدعي تخليد المذنبين من الموحدين بالنار، وقد قبل صاحب الشرطة شهادة ثمانية عشر رجلاً من هؤلاء الشهود الخمسة والأربعون[٥].

---

(١) قصر مصمودة حصن كبير بينه وبين سبتة اثنا عشر ميلاً وهو على ضفة البحر، وهو على رأس المجاز الأقرب إلى الأندلس (الحميري، الروض المعطار، ص٤٧٦.

(٢) مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢٠٩.

(٣) لا يوجد لفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ابنة تحمل اسم مريم، ويبدو أنه استغل جهل أتباعه، فاختلق هذا الاسم، ونسب نفسه لفاطمة.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢١١.

(٥) ابن سهل الإعلام، ٢/٨٨٧-٨٩٤.

وقد شاور صاحب الشرطة قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي، وصاحب الصلاة أحمد بن مطرف[(١)]، والفقيه إسحاق بن ابراهيم وعدد من الفقهاء، وكان رأيهم في هذا الزنديق أنه ملحد كافر، وجب قتله من دون أعذار، وكان لبعض الفقهاء رأي آخر بوجوب الإعذار إليه، فإن أصر وإلا قتل، ولما أبلغ صاحب الشرطة الخليفة الحكم المستنصر بهذين الرأيين، كان رأي الخليفة أن يقتل بلا إعذار، لما استفاض من إلحاده، وأمر بصلبه، وكتب إلى الوزير عيسى بن فطيس[(٢)]كتاباً يؤيد فيه بالأخذ برأي القاضي ومن معه من الفقهاء، ويطالب بالتنبيه على القاضي والحكام بالأخذ على أيدي الناس في هذا، ومن خالف مذهب مالك بالفتوى أو غيره وقع عليه العقاب[(٣)].

وكتب إسحاق بن إبراهيم خطاباً إلى الخليفة يمتدحه لقراره بصلب أبي الخير، ويبلغه بسرور العامة والخاصة لهذا القرار، وأن يوم صلب هذا الزنديق كان عيداً مثل يوم توليه الخلافة، واختتم كتابه بشكر الخليفة، وكان مما جاء في خطابه للخليفة:"بأن أول دم أمر بسفكه في خلافته امتعاضاً لله عز وجل، ولكتابه العزيز، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وغضباً على من استخف بعظمته واتخذ آياته ورسله هزءاً، وذلك من فضل الله عز وجل على أمير المؤمنين وعلى آبائه المهديين -رضي الله عنهم أجمعين- الذين قفا آثارهم، وسار سبيلهم في غضبهم لله عز وجل، وشدة انتقامهم من الملحدين المارقين والمبتدعين"[(٤)]، ففي هذا الخطاب تزكية من الفقيه إسحاق للخليفة بشدته على كل مخالف للسنة، ومرتكب للبدعة، وأن أمراء بني أمية قد حملوا على عاتقهم مواجهة الأفكار المنحرفة، وقيادة الأندلس نحو الوحدة الفكرية التي تضمن الاستقرار والازدهار لعموم سكانها.ورد الخليفة الحكم المستنصر بالله على ظهر خطاب الفقيه إسحاق بن إبراهيم، فشكره على خطابه،

---

(١) هو أحمد بن مطرف بن عبدالرحمن، يعرف بابن المشاط، محدث، وصاحب الصلاة بقرطبة، توفي سنة ٣٥٢هـ (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٢٩).

(٢) هو عيسى بن فطيس بن أصبغ بن فطيس بن سليمان من موالي بني أمية توارثت هذه الأسرة المناصب في الدولة الأموية بدأ من جدهم بن فطيس المتوفى سنة ١٩٨هـ (ابن حيان المقتبس، السفر الثالث، ص٢٧٣، ٢٧٤).

(٣) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٥، ٩٠٠.

(٤) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٦، ٨٩٧.

وأوضح له أن هناك جماعة لا تزال على مذهب هذا الزنديق، وأنه أمر الحكام بالتشديد عليهم وإخافتهم، ويرى الفقيه ابن إسحاق أن في الإلحاد والزندقة وتكذيب الرسول ﷺ وإقامة الحدود قولاً واحداً، وهو أنه لم يذهب أحد من مشايخه إلى القول بالإعذار في ذلك، كما يرى القاضي أبو الأصبغ أن الأعذار إلى أبي الخير معدومة الفائدة(١).

وفي أيام المنصور بن أبي عامر تجاوز أحد الشعراء، وهو الشاعر عبدالعزيز بن الخطيب(٢)، في شعره، فقال مادحاً المنصور:

ماشئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبي محمد   وكأنما أنصارك الأنصار

فأمر المنصور بضربه خمسمائة سوط ونودي عليه باستخفافه ثم حبسه ونفاه من الأندلس(٣). ومن الواضح أن هذه الأبيات ليست من إنشائه(٤)، وإلا لحل دمه، وإنما تمثل هذه الأبيات، فكانت هذه العقوبة الرادعة من المنصور.

وقد يتم توجيه التهمة بالإلحاد والزندقة نتجية للخلاف الفقهي، أو العداوة السياسية، فقد وجهت التهمة إلى الفقيه بقي بن مخلد بالإلحاد والزندقة، نتيجة للخلاف الفقهي بينه وبين علماء المالكية(٥). كما وجه الأمويون تهمة الإلحاد والزندقة للحسن بن قنون أحد أمراء الأدارسة، الذي أزعج الأمويين في الأندلس بكثرة نقضه للبيعة والخروج عليهم مرة بعد مرة(٦).

لقد كانت ظروف البلاد السياسية وحروبها المستمرة مع الممالك النصرانية في شمال

---

(١) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٦-٩٠٥.

(٢) هو الشاعر عبدالعزيز بن الخطيب كان رفيع المنزلة، مقدماً في أصحاب المنصور بن أبي عامر (ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٩٣).

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٩٣.

(٤) هذه الأبيات تنسب للشاعر المعروف ابن هاني الأندلسي، قالها في المعزلدين الله العبيدي بعد دخوله إلى مصر(ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/٣٣١. حوادث سنة ٣٦١هـ)

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١١٠.

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص٩٦، ٩٧، ١٥٠، ١٥١.

الأندلس، والمواجهة المباشرة مع العبيديين الشيعة على أرض المغرب، يقتضي الحفاظ على الوحدة الداخلية المذهبية، ومن هنا كان تشدد أمراء البيت الأموي في محاربة الدعاوى السياسية والمذهبية، التي تحاول زعزعة استقرار البلاد، وحث والعلماء والفقهاء على الوقوف ضدها وتجريمها، واتخاذ أقسى العقوبات على معتنقيها، لذا كان لفقهاء وشيوخ العصر في الأندلس دور بارز في هذه قمع هذه الدعاوى، والوقوف في وجهها.

* * * * *

لقد تسللت بعض الاتجاهات الفكرية المخالفة للاتجاه السني إلى الأندلس، نتيجة للرحلة التي قام بها العديد من طلاب العلم في الأندلس إلى المشرق، وجلب الكتب المختلفة، ومن هذه الأفكار الفكر المعتزلي، الذي نشط أمراء بني أمية في مواجهته، وإسناد المهمة لفقهاء المالكية بإصدار الفتاوى ضده، وساهمت هذه الفتاوى في ضعف الإقبال على هذا الاتجاه والضغط على من يتبناه، وكان يكفي توجيه الاتهام لأي عالم بسلوك هذا الفكر ليتم التحذير منه ورفع أمره إلى الأمير ليرى رأيه فيه، وقد انتهج حكام وعلماء الأندلس أسلوباً ومساراً ثابتاً في مقاومة المعتزلة، يبدأ باتهامهم أولاً، ثم هجرهم وعدم مجالستهم، ثم التحذير منهم ورفع أمرهم إلى السلطان، وينتهي ذلك بحرق كتبهم وقتلهم إذا لزم الأمر وتهيأت الظروف لذلك .

ورغم جلب الأمير عبد الرحمن بن الحكم لكثير من كتب الفلسفة، وإدخالها إلى الأندلس، إلا أن الاشتغال بها ظل ضعيفاً، أو يكاد يكون معدوماً، نظراً لقوة التيار المالكي المؤيد من الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأول ظهور للفكر الفلسفي بشكل واضح كان على يد محمد بن مسرة، الذي اشتهر بآرائه الفلسفية، وألف بعض الكتب التي وضح من خلالها فكره الفلسفي ، ولما شاع خبره أصدر الخليفة الناصر لدين الله أمراً يتتبع من ينتحل مذهبه، وإخافتهم والقبض عليهم واستتابتهم، وكتب كتاباً إلى جميع عماله بالأندلس بذلك ، واستمرت الحالة بالتعبئة ضد فكر ابن مسرة الفلسفي بعد الناصر لدين الله، كما نشطت حركة التأليف للرد على فكر ابن مسرة خصوصاً من قبل كبار فقهاء المالكية والشافعية ، وإكمالاً لهذه الجهود قام الحاجب المنصور بن أبي عامر بإحراق الكتب التي كانت في خزائن الخليفة الحكم المستنصر، والتي

كان فيها شيء من الفلسفة والجدل بحضور كبار العلماء في وقته .

أما الفكر الخارجي فقد تسلل إلى الأندلس عن طريق المغرب، التي كانت تموج بالكثير من الحركات ودول الخوارج، وأظهر فقهاء المالكية موقفاً متشدداً من هذا الفكر، وصدرت الفتاوى بالحكم بالردة على كل من ينتحل نحلة الخوارج، وساعدت هذه الفتاوى حكام بني أمية في التصدي لجميع ثورات الخوارج، والقضاء عليها في مهدها داخل الأندلس ، كما امتدت همتهم للقضاء على حركات الخوارج خارج حدود الأندلس أيضاً .

ونتيجة لإدراك أمراء بني أمية خطورة انتشار الفساد، وظهور الإلحاد والزندقة في المجتمع، وما يسببه من تهديد لوحدة الدولة الدينية والفكرية، حرصوا على وقاية النظام السياسي والاجتماعي في الدولة، ومحاسبة كل من ينتهج هذا النهج، وتخليص الدولة من شروره وأفكاره، فتم في أيامهم هدم دور الفساد وأتيح لعامة الناس المشاركة في ذلك تأكيداً على موقف الدولة المتشدد من هذه الأعمال، كما تم قتل وصلب بعض المفسدين، وأجريت عدة محاكمات لمن يظهر لديه توجهات وأفكار إلحادية (زندقة)، وكانت مشاركة العلماء في إصدار الأحكام ضدهم، بإيعاز من أمراء بني أمية، تأكيداً على موقف الدولة الرافض لهذه التوجهات.

الفصـــل الخامس

جهود حكام بني أمية في مواجهة النصارى

المبحث الأول : مواجهة حركة ابن حفصون (٢٦٧هـ - ٣١٦هـ).

المبحث الثاني : مواجهة الحركات النصرانية داخل الأندلس (ما يسمى بحركة الاستشهاد "الانتحار") .

المبحث الثالث : تطبيق سياسة خاصة تجاه أمراء الثغر الأعلى.

عاش المسلمون في الأندلس في أرض غلب على سكانها الأصليين الديانة النصرانية، لذا كان على أمراء بني أمية بذل الجهود لمواجهة النصارى ودرء خطرهم على وحدة البلاد السياسية والفكرية، ولكون العقيدة النصرانية بما تمثله من أفكار واعتقادات تشكل خطراً على الوجود الإسلامي وعلى عقيدة المسلمين في الأندلس، نشط أمراء بني أمية في مواجهة أي حركة نصرانية أو تظهر ميلاً للنصارى داخل الأندلس، ولمّا عانت الدولة الأموية من حركة ابن حفصون الذي اعتنق النصرانية في فترة من فترات حركته، لجأت إلى العلماء لإصدار الفتاوى ضده، تمهيداً لحشد الأمة لمواجهة حركته وفتنته، ولمّا لجأ بعض النصارى في الأندلس لقتل أنفسهم في محاولة لتحريك همم إخوانهم النصارى لإثارة الفوضى في الأندلس، أو وقف توجه بني جلدتهم من النصارى لاعتناق الإسلام والشغف بالثقافة الإسلامية العربية، استفادت الدولة الأموية من العلماء المسلمين في إصدار أحكام القتل بكل من يسيء للشعائر الإسلامية ويمتهنها، كما استفادت من رجال الدين النصراني في التواصل مع بني قومهم لردعهم عن هذه الأعمال المشينة. ولحماية البلاد الإسلامية من خطر هجمات النصارى في شمال الأندلس، لجأ أمراء بني أمية لتطبيق عدة سياسات في منطقة الثغر الأعلى، لجعلها حاجزاً بين ديار الإسلام وديار النصارى، وسنستعرض ذلك عن طريق المباحث التالية:

المبحث الأول

مواجهة حركة ابن حفصون (٢٦٧هـ - ٣١٦هـ)

اضطربت أحوال الدولة الأموية في الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، وتفككت وحدتها السياسية، نتيجة لظهور كثير من حركات التمرد الخارجة على السلطة المركزية في قرطبة، وكانت الدولة الأموية تشهد فترة من فترات ضعفها الشديد، ومن أخطر حركات التمرد واجهها الأمويون في الأندلس، حركة المتمرد عمر بن حفص بن حفصون[1]،بسبب عنفها، وحصانة موقعها، وشدة بأس قائدها، وكادت هذه الحركة أن تعصف بكيان بني أمية في الأندلس، فقد استمرت قرابة الخمسين عاماً، شملت جزءاً من حكم الأمير محمد بن عبدالرحمن، وسائر أيام الأمير المنذر بن محمد، وأخيه عبدالله بن محمد، وخمسة عشرة سنة من حكم الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله، ورغم الجهود التي أبداها الأمير محمد بن عبدالرحمن، و الأمير المنذر بن محمد، إلا أن جهودهم لم يكتب لها النجاح في القضاء على خطر هذه الحركة[2]، وعانى الأمير عبدالله بن محمد من خطر هذه الحركة، وكادت أن تقضي على سلطانه، لكنه سرعان ما تدارك ذلك وواجه هذه الحركة بحزم وقوة مما أضعفها[3]، وسهل بذلك المهمة على الخليفة الناصر لدين الله بعده للقضاء عليها وإنهاء أمرها[4].

وقد نقل أن ابن حفصون قد ادعى الإلوهية في بدايات ثورته! وأنه قال لمؤيديه (أنا ربكم الأعلى)، ولما وصلت هذه المقولة للأمير المنذر بن محمد أقسم أن لا يدعه حتى يقبض عليه أو يقتله ، ولا يقبل منه عهداً، وأعد الأمير المنذر جيشاً حاصر به معقل ابن

---

(١) تم التعريف به، انظر هنا، ص ١١٤، هامش(٣).

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٠٤-١١٨.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٣١-١٣٣.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٩٥.

حفصون بمدينة ببشتر، ولكنه توفي أثناء الحصار قبل أن يُتِمّ قسمه[١].

أما التطور الخطير في حركة ابن حفصون فيمتثل باعتناقه للديانة النصرانية علانية، وكان يسترها سابقاً وذلك في عام ٢٨٦هـ[٢]،يقول ابن حيان[٣]:"فيها أعلن اللعين عمر بن حفصون النصرانية، وباطن العجم نصارى الذمة، واستخلصهم بالكلية، وأيدهم وفضلهم، وتعصب على المسلمين وأساء الظن بهم". ويقول فرانتسكو دي باولا[٤]:"وفي ذلك أعمل ابن حفصون تفكيره المعتاد بأن يتحول إلى المسيحية وكامل أسرته، وسمى نفسه باسم صمويل Samuel ، وتحالف مع ملك ليون وبعض العرب أعداء أمير قرطبة، وبدأ في عملية إعادة المسيحية إلى دويلاته".

ويمثل إعلان ابن حفصون نصرانيته معركة جديدة مع الدولة الأموية، استغلتها في إعلان الجهاد ضده، وأصبح جهاده فرضاً على جميع مسلمي الأندلس[٥].

وقد اعتبر بعض الباحثين هذه الخطوة من ابن حفصون علامة على الرعونة وقصور الرأي، وقد تكون داخلة في نطاق تصرفاته المترددة دائماً والتي لا تثبت على حال، وقد تكون آخر حل بالنسبة إليه لمواجهة ضعفه الأخير أمام قوات الدولة الأموية[٦].

في الحقيقة أن الظروف التي أحاطت بابن حفصون خلال معارضته الطويلة للإمارة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٨/٢.

(٢) جعلت بعض المصادر إظهار حفصون للنصرانية سنة ٢٨٥هـ (ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٣٢، مجهول، تاريخ الأندلس، ص٢٠٠) وهناك مصادر أخرى جعلت ذلك في سنة ٢٨٦هـ (ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص٢٢٨، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٩/٢).

(٣)المقتبس، السفر الثالث، ص٢٢٨.

(٤) Francisco de Paula, Villa- Realy Valdivia, LeccionyElementaly de HistoriaCritica de Espana, (Granada, 1899), p.182.

(٥) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ٢٢٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٩/٢.

(٦) Rafael Altamira Y Crevea, Historia de Espana Y de la civilizacion Espanola, Tomo I, (Barcelona,1913), p.245.

محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص١٣٨، الوزان، الأثر السياسي والحضاري للحياة الفكرية في الأندلس، ص٢٢٨،٢٢٧.

الأموية، تجعل أمر اعتناقه للنصرانية وارداً، فلقد كانت المناطق الجنوبية يسكنها العديد من النصارى(١)، فالوجود النصراني في الجنوب كان واضحاً في الفترة التي نتحدث عنها، ونجد المؤرخين يشيرون إلى عدد من الحصون التي تغص بالنصارى هناك(٢)، بل إن تولية الخليفة الناصر لدين الله أحد النصارى عاملاً على إحدى المدن الأندلسية الجنوبية في السنوات الأولى لحكمه(٣)، يوحي بأنهم يمثلون شريحة كبيرة من سكان هذه المنطقة، وربما كان الناصر لدين الله يهدف من خلال هذا التعيين إضعاف ابن حفصون، من خلال صرف النصارى عنه وإرضائهم بتعيين أحد أتباعهم عاملا عليهم.

ويعلق خواكين بالبيه(٤) على تأييد النصارى لابن حفصون فيقول:"وقد حظي دائماً بتأييد الشعب الذي كان في أغلبه من المسيحيين أو المولدين".

وقد اعتمد الأمير عبدالله بن محمد في حربه لابن حفصون على إظهار الجانب الديني في تصرفاته وأقواله، واستلهام النصر من الله سبحانه وتعالى، ففي إحدى غزواته نظر الأمير إلى كثرة جيشه الذي معه فلم يصبه الإعجاب، وإنما أظهر التوكل على الله وقال (٥):

من كان بالكثفة أو كُثْر العدد ذا ثقة في نفسه أو مستعد

فثقتي بالواحد الفرد الصمد.

كما اصطحب معه في إحدى غزواته على معاقل ابن حفصون الفقيه المشهور عبيدالله بن يحيى بن يحيى الليثي، شيخ المسلمين وعالمهم وخيرهم في عهده، فلما اشتدت رحى المعركة قال له الجند: أيها الشيخ ما عندك فيما حضر ؟(٦) قال: وما عسى أن أقول إلا كما قال الله عز وجل **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي**

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٠٦.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٨٦، ١٧١، ١٧٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٥/٢، ١٨١.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص١٣١.

(٤) Joaquin velove, "DenuevososobreBobarto", Al Andalus, Vol, XXX, Fasc,1(1965),P.146.

(٥) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص١٩٤.

(٦) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص١٧٧، ١٧٨٠.

ينصركم من بعده﴾[١].

وفي سبيل مواجهة حركة ابن حفصون ونصرانيته، حصلت الدولة الأموية على فتوى من فقهاء الأندلس، تقضي بمعاملة هذا المتمرد معاملة النصارى المحاربين، فأصدروا حُكماً على أن من يعيش تحت سلطة ابن حفصون يعد كمن يعيش تحت سلطة حاكم نصراني، كما نصوا على عدم جواز شهادتهم وترك مخاطبة قضاتهم[٢].

وتاكيداً لذلك تم الحكم على رجلين من أتباع ابن حفصون قبض عليهما بالقتل والصلب، وعلقوا على خشبة في قرطبة[٣].

كما تتابعت عليه الصوائف والشواتي، التي كانت ترسل من قرطبة، والتي طالما كانت ترسلها الدولة الأموية إلى أراضي النصارى شمال الأندلس[٤].

وقد أسهمت سياسة الدولة الأموية في مواجهة تنصر ابن حفصون، في ترك العديد من الثوار مناصرة ابن حفصون، فانفض عنه بعض حلفائه، وقاطعوه وابتعدوا عنه بعدما أشيع تنصره[٥].

ولما فتح الخليفة الناصر لدين الله مدينة ببشتر عام ٣١٦هـ، أمر بنبش جثتي عمر بن حصفون وابنه، فكشفت قبورهما وظهر أنهما دفنا على طريقة النصارى، ملقى على ظهره مستقبلاً بوجهة المشرق، موضوعة ذراعيه على صدره، وقد حرص الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله على أن يوثق هذه الحادثة، فدعي العسكر والفقهاء وعامة من وجد إلى الشهادة على موت ابن حفصون على النصرانية، وأيقن جميع من رآه أنه مات مشركاً على دين النصرانية لا محالة ولا خلاف في ذلك[٦].

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٦٠).

(٢) الونشريسي : أحمد بن يحيى، المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، ط٥، ١٠٩/١٠، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٩/٢.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٩/٢.

(٥) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص٢٢٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٩/٢.

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٦/٢.

ثم أمر الخليفة الناصر لدين الله بحمل جثة ابن حفصون والذهاب بها إلى قرطبة، فرفعت هناك على جذع شجرة واتيح للناس مشاهدته مصلوباً، ثم وضع بين جثتيّ ابنيه حكم وسليمان المصلوبتين قبله، وظلت الجثث الثلاث مصلوبة معلقة عظة للناظرين، وقرة لقلوب المسلمين حتى جرفها نهر قرطبة فذهب بجذوعهم[١]. وكان الخليفة الناصر لدين الله قبل ذلك قد توجه إلى جامع ببشتر القديم المهجور من أهلها، فصلى فيه وأمر أن توصل فيه الصلوات المفروضة والتي كانت ممنوعة منه سابقاً[٢].

ولما تم فتح مدينة ببشتر أقام الناصر لدين الله الدعوة له فيها، يقول ابن حيان[٣]: "وأقيمت الدعوة للناصر لدين الله بجامع ببشتر المعطل، واتصلت فيه الصلوات والخطب، وعمرت فيها المساجد المقفرة، وهدمت منها الكنائس المعمورة، وكانت حسن عمارة هذه الكنائس واتصالها بقصر اللعين عمر، وإقفار المساجد بها، واستيلاء الدثور عليها، ووحشتها ممن يعمرها، من أقوى الأدلة على ردة اللعين عمر، واقطعها بكفره"، كما وجه الناصر لدين الله همته لحصون النصارى، فأمر بهدمها وإنزالهم منها، فلم يبق للنصارى فيها حصن معمورة، حتى لا يتمكنوا منها مستقبلاً[٤]، وحمل الناصر لدين الله معه إلى قرطبة كل من يرتاب منه خروجاً أو خيانة ليبقيه بقرطبة تحت سمعه ونظره[٥].

وقد وجه الناصر لدين الله في غزوته هذه عدة رسائل، أولها: أنه لا يمكن أن يتسامح مع أي توجه نصراني يحمل علم التمرد داخل حدود الدولة في الأندلس، وثانيها: أن على الفقهاء أن يقوموا بواجبهم في تحذير الناس وتحفيزهم لمواجهة مثل هذه الأخطار الحقيقية التي شاهدوها بأعينهم، من خلال نبش قبر المتمرد ابن حفصون، وأن الدولة لم تكذب حينما اتهمت ابن حفصون بالنصرانية، ولم يكن قصدها إثارة عواطف الناس لمواجهة حركة هذا المتمرد، وثالثها: توجيه رسالة للعسكر بشكل عام، أنهم يواجهون عدواً

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٦/٢.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٦.

(٣) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٧، ٢١٨.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٨، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٦/٢، ١٩٧.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٧/٢.

نصرانياً يريد إرجاع الأندلس لما كانت عليه سابقاً تحت حكم النصارى، وأن عليهم أن يكونوا حصن الدولة المنيع لرد أي عدوان من هذا النوع، ورابعها: كانت موجهة لعموم المسلمين، بأن هؤلاء الثوار يمنعون الصلاة في المساجد ويهملونها، وأن الدولة الأموية هي من تحمي هذه المساجد وتعيد الصلاة بها على مذهب أهل السنة والجماعة، أما الرسالة الخامسة: فهي موجهة لنصارى الأندلس بشكل عام، بأن من يحاول الخروج على الدولة أو يؤيد من يخرج عليها، سوف تهدم كنائسه وحصونه، وسوف يطرد من منطقته، وأن على الجميع أن يخضع لسلطة الدولة حتى يعيش بأمان.

وقد كتب الخليفة عبدالرحمن الناصر كتاباً عن فتح ببشتر، أرسله لعماله في جميع أنحاء الأندلس[1]، وشرح فيه ما كان منه من فتح مدينة ببشتر، وهدم حصون وكنائس النصارى، وهدم جامع ابن حفصون الذي اتخذه لأول ثورته لخداع من معه من فسقة المسلمين قبل اعتناقه للنصرانية، وأن ابن حفصون قد أسس هذا المسجد على غير تقوى من الله ورضوان، كما شرح في كتابه كيف أنزل الثوار من جبالهم، وكيف شحنها بالثقات والأولياء[2]، ومما جاء في كتابه:"ثم أننا لم نزل مذ أن شرفنا الله بخلافته، واختصنا بإمامة عباده، نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، وندأب في نصر أوليائه"[3]، فهو يعد حربه لابن حفصون جهاداً فرضه الشرع عليه، لأن الله اختصه بالخلافة والدفاع عن المسلمين داخلها ضد أي عدوان سافر يريد تفريق شمل الأمة، وإفساد الجماعة، ثم يشرح في كتابه للمسلمين ما فعله في ابن حفصون وغيره من المتمردين فيقول:"وابتعثنا الله بقدرته لنثنيهم عن الضلال، وحملهم على الطريقة، فلم نزل نبخعهم ونتحراهم، واحداً بعد واحد، ونستنزلهم عن معقل بعد معقل، ونقصد منهم جانباً بعد جانب، نؤم الأدنى بعد الأدنى، ونستقرئ الأقصى فالأقصى، حتى أذل الله عزتهم، وسكن ثورتهم، وأوهن

(١) للاطلاع على كتاب الناصر كاملاً انظر الملاحق، ص٢٦١(ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٢٦، ٢٣١).

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٢٦، ٢٣١.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٢٧.

كيدهم، وشتت جمعهم"(١)، فهو يوجه رسالة من خلال هذا الكلام، أن هذا هو مصير كل من تسول له نفسه الخروج على الدولة، ومحاولة تفريق وحدتها، ثم يعرج في كلامه عن ابن حفصون وخطر حركته لاستنهاض همم المسلمين، فيقول:"وكانت مدينة ببشتر قاعدة الشرك، ودار الكفر والإفك، ومكان عز النصرانية وموئلها ومفزعها، وقرارتها وبيضتها المنتجعة من أقطارها وحرمها"(٢)، فهو يثبت للناس نصرانية حركة ابن حفصون، وينبههم إلى أن دعم مثل هذه الحركات والاغترار بها، يجر البلد إلى الوقوع في براثن العدو النصراني الذي يتربص بالمسلمين، وأن عليهم نبذ كل هذه الحركات، والالتفاف تحت قيادتهم المسلمة لتحقيق وحدتهم بلادهم الفكرية.

ومن هنا يتبين أن الأمير عبدالله بن محمد قد قام بواجبه كما ينبغي في مواجهة التحول الخطير لحركة ابن حفصون، من كونها حركة انفصالية، إلى حركة دينية نصرانية لها أبعادٌ خطيرة، في بلد كان يدين بالنصرانية قبل سيطرة المسلمين عليه، ورغم كثرة الحركات الانفصالية في عهد هذا الأمير وضعف الدولة في عهده بشكل عام، إلا أنه وقف بقوة أمام حركة ابن حفصون، واستطاع تحجيمها ومحاصرتها ومنع تمددها، وأكمل حفيده الناصر لدين الله الجهود الأموية للقضاء على هذه الحركة وإنهاء أمرها، وإبقاء الداخل الأندلسي متماسكاً ضد أي حركة دينية تهدف إلى تغيير معتقد أهل البلد، وما ينطوي على ذلك من مخاطر كبيرة، كون الأندلس قريبة من مناطق النفوذ النصراني في شمالها، والتي يمكن أن تعتبر نجاح هذه الحركة، بداية لنجاح حركات أخرى تنهج هذا النهج، في سبيل إرجاع الأندلس لسابق عهدها النصراني.

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٢٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٢٨.

المبحث الثاني

مواجهة الحركات النصرانية داخل الأندلس (ما يسمى بحركة الاستشهاد "الانتحار")

يشكل النصارى جزءاً هاماً من سكان الأندلس، وقد شمل استيطانهم أغلب مدن الأندلس وقرآها، ومن أهم المدن التي وجدوا فيها مدينة قرطبة، فقد استقر بها قسم كبير منهم(١)، واستوطنت جماعات منهم طليطلة التي كانت بمثابة العاصمة، ومركز القيادة لهم(٢).

كما تعتبر إشبيلية وماردة وببشتر وشلطيش(٣)من المدن الأندلسية الهامة، التي استوطنتها جالية كبيرة من النصارى(٤).

و لم يقتصر وجود النصارى واستقرارهم على المدن الكبرى في الأندلس فقط، إنما كان لهم وجود خارجها، أي في القرى والأرياف، يقول ابن حوقل(٥):"وبالأندلس غير ضيعة فيما الألوف من الناس لم تمدن، وهم على دين النصرانية".

وقد حظي نصارى الأندلس بحق ممارسة شعائرهم الدينية في كنائسهم وأديرتهم، فقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يمسوها بأذى، كأديرة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٨٨، ٤٩٦، ٥٠٥.

(٣) شلطيش: مدينة غرب الأندلس قرب مدينة لبلة، وهي جزيرة لاسور لها بنيانها متصلة، وترسو بها السفن، ويحيط بها البحر من كل ناحية ماعدا رمية حجر، وطولها ميل وأزيد (الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٣).

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص٧٩، ٣٤٣، سعد حسين عثمان، المجتمع الإسلامي في الأندلس في القرن الرابع الهجري، ص ١٠٥، ١٠٦، رسالة دكتوراة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٨٣م.

(٥) صورة الأرض، ص١٠٦.

الرجال والنساء، والبيع الصغيرة[١].

وفي قرطبة صالح المسلمون أعاجم النصارى في كنيستهم الكبرى بقرطبة، وأخذوا شطرها وبنوا فيه مسجداً جامعاً، فلما كثر المسلمون بالأندلس ضاق ذلك المسجد عليهم، فقام الأمير عبدالرحمن الداخل بالنظر في أمر الجامع وتوسيعه، فأحضر أعاجم قرطبة وسألهم بيع ما بقي في أيديهم من الكنيسة المذكورة، وأوسع لهم البذل فيه، وفاءً بالعهد الذي صولحوا عليه، وأباح لهم بناء كنائسهم التي كانت قد هدمت وقت الفتح خارج قرطبة[٢].

أما باقي أنحاء الأندلس الأخرى فلم يتعرض المسلمون للكنائس، حيث بقيت تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظيفتها الدينية، فقد كان القساوسة يعقدون فيها الزيجات، ويعمدون المواليد، ويختارون لهم الأسماء، ويسجلون المبيعات والعقود بين أتباعهم[٣].

وقد أفتى علماء المالكية كعبدالله بن يحيى وابن لبابة وغيرهم، بتحريم إحداث النصارى كنائس بين المسلمين، وأنه يجب منعهم من ذلك، إلا في أرض لا يوجد فيها مسلمون، ولا يدخل لهم الخمر والخنازير، ويستثنى من ذلك ترميم الكنائس إن اشترطوا ذلك في عهدهم مع المسلمين، أما البناء فلا يصح لو اشترطوا لأنه معصية لله، وأما أهل البلاد التي فتحت بعنوة فمصير كنائسهم الهدم[٤].

لذا قام الأمير المنذر بن محمد بهدم الزيادات التي أحدثها النصارى في كنائسهم، وأمر بتغيير ما أحدثوه فيها وفرض عليهم الجزية[٥].

ولما تهدم مسجد طليطلة سأل أهلها الأمير محمد بن عبدالرحمن الإذن لهم ببنائه من

---

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٨٤، ٤٩٢، ٤٩٣، سعد حسين عثمان، المجتمع الإسلامي في الأندلس، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٢٩.

(٣) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٥٠١.

(٤) ابن سهل، الإعلام، ٧٧٣-٧٧٥، محمد خلاف، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، ص٣٠، ٣١، ٧٧- ٨٠.

(٥) مجهول، تاريخ الأندلس، ص١٩٥.

مال الخراج، وأن يسمح بضم الكنيسة المجاورة له، فأجابهم الأمير إلى ما أرادوا[١].

ولما نقض نصارى جزيرة ميورقة[٢] عهدهم مع المسلمين، واعتدوا على من مر بهم من المسلمين، أمر الأمير عبدالرحمن بن الحكم بغزوهم، ثم وصل إليه كتاب منهم يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين بهم، ويطلبون العفو عنهم، وأنهم مستعدون لدفع الجزية مقابل تركهم وبقائهم على السمع والطاعة، فقبل الأمير منهم ذلك، وقال: أعطيناكم عهد الله وذمته[٣].

ومع أن المسلمين أظهروا تسامحاً كبيراً مع نصارى الأندلس، وتركوا لهم حرية مزاولة حياتهم الاجتماعية والدينية، إلا إنهم أيضاً لم يتهاونوا معهم في أي عمل يمكن أن يجر البلاد للخطر، ويؤدي إلى الفوضى السياسية، والتأثير الفكري، والخلاف المذهبي، فقد وقف أمراء الدولة الأموية ضد هذه الحركات موقفاً صارماً، وكما رأينا أنهم كانوا لا يمانعون في ضم ممتلكات النصارى الدينية، وتحويلها إلى مساجد ومرافق إسلامية، بعد التفاهم مع النصارى، لخدمة المشروع الإسلامي السني الذي تتبناه الدولة الأموية في الأندلس.

كما مارس الأمويون مع نصارى الأندلس سياسة الترغيب والتهديد، ولعل أقرب مثال لذلك قصة الغلام النصراني الذي أسلم ثم عاد بعد أيام يريد الارتداد عن الإسلام والعودة إلى النصرانية، فكتب القاضي في أمره، وشاور في ذلك الفقيه عبدالله بن يحيى وطلب منه إبداء الرأي، وقد أجابه الفقيه بأن على القاضي أن يهدده ويتوعده كي يعدل عن ردته، فإن أصر حبس أياماً، فإن أصر أخلى سبيله باعتباره متأثراً بغواية الشيطان[٤].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٣٢٧، دارا لكتاب العربي، بيروت.

(٢) ميورقة: جزيرة في البحر المتوسط تشكل ما يسمى بجزر البليار تقع أمام الساحل الشرقي لإسبانيا وهي ثلاث جزر (ميورقةومنورقة ويابسة) وتسمى بالجزر الشرقية، وتقابل جزيرة ميورقة مدينة بجاية من بر العدوة المغربية وبرشلونة من الأندلس، وطول هذه الجزيرة سبعون، ميلاً وعرضها خمسون ميلاً (الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٧، ٥٦٨).

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٨٩/٢.

(٤) محمد خلاف، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، ص١٩.

ما يسمى بحركة الاستشهاد "الانتحار":

هي الحركة التي قام بها المتعصبون من نصارى الأندلس، والتي تسميها المدونات النصرانية باسم حركة الاستشهاد، وقد بدأت أواخر أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم، وبلغت ذروتها في أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن[١].

ومن أسباب ظهور هذه الحركة سياسة التسامح التي جرى عليها أمراء بني أمية في الأندلس مع النصارى، الذي أدى بدوره إلى ترك هؤلاء النصارى للغتهم الأصلية اللاتينية وكتبهم المقدسة، والاتجاه لدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية[٢]، وقد أدت حركة الاستعراب هذه بين نصارى الأندلس إلى إحداث ردة فعل قوية عند رجال الديانة النصرانية، فأخذوا يحرضون المتعصبين من النصارى على سب الإسلام والقرآن والرسول ﷺ، وأن يقوموا بما يسمونه بالاستشهاد عن طريق تحدى المسلمين في معتقداتهم، لبث بذور الفوضى والفتنة الطائفية، والفوضى الدينية والاجتماعية، وهذه الوسيلة التي اتخذوها بسب الرسول ﷺ ودينه، جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة القتل في الشريعة الإسلامية[٣]، وأخذ بعض الغلاة من رجال الدين النصراني في الأندلس والمتعصبين من أتباعهم بالانزلاق عامدين إلى هذا المنحدر الخطير، فبدأو بسب النبي ﷺ في الطرقات جهراً، فإذا عُرضوا على القضاء كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة، وحاول القضاة في البداية استعمال الرفق واللين، ومحاولة إقناع هؤلاء المتعصبين بالعدول عن أقوالهم،ولكنهم أصروا على موقفهم، مما دفع القضاة لإصدار الأحكام بالقتل على كل من يرتكب هذا الفعل[٤].

---

(١) محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٧٠، ٢٧١، محمد خلاف، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، ص٨، ٩.

(٢) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/٨٥، ٨٦، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٨٦، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٦٩، ٢٧٠.

(٣) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/٨٩، ٩٢، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٨٦، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٧٠، ٢٧١.

(٤) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/١٠٠-١٠٢، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٧٠-٢٧١.

وتوالت أحكام القتل بحق هؤلاء المتعصبين تصدر من قضاة الأندلس، بدءاً من سنة ٢٣٧هـ، وقد قابل كبار النصارى هذه الأحكام بإكرام رفات القتلى وإصباغ صفة الشهداء عليهم، وكأنهم بذلك يزيدون من نار الفتنة، وكان في مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى"أولوخيو"[١]، كان يعمل على تحريض أولئك المتعصبين الراغبين في الشهادة، ويدفعهم إلى براثن الموت[٢].

ويعلق المؤرخ الإسباني (التاميرا) على تلك المؤامرة بقوله"اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الديني منذ الفتح، وكان أشراف العرب يحترمون النصارى، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء في أوقات الحماسة المغرقة من إهانة القسس حينما يسيرون في الشوارع فرادى أو في مواكبهم، وكانت هذه الحوادث تثير سخط النصارى... وحاول النصارى عن طريق آخر أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامي، فطلبوا الاستشهاد بالطعن في محمد أمام الناس والسلطات، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك، و لم يقتصر الاندفاع في ذلك الطريق على المدنيين، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو، و لم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكي"[٣].

ومن الأمثلة التي تبين مدى ما وصل إليه هؤلاء المتعصبون من يقين بأنهم ينصرون عقيدتهم النصرانية، مجيء رجلٌ من النصارى مستقتلاً لنفسه بسب المقدسات الإسلامية، فوبخه القاضي وقال له: ويلك، من أغراك بنفسك أن تقتلها بلا ذنب؟ فبلغ من سخف النصراني وجهله، أن قال: وتتوهم أنك إذا قتلتني أني أنا المقتول؟ يشبه نفسه بعيسى عليه

---

(١) أولوخيو أو ايولوج: من أسرة نصرانية نشأة قديماً في قرطبة، وعرفت هذه الأسرة بالتعصب للنصرانية وكراهيتها للإسلام، أعد أولوخيو نفسه من الصغر لخدمة الكنيسة، ودرس حتى برز بين أقرانه، وترقى حتى وصل إلى مرتبة قسيس كنيسة القديس زويل في قرطبة قتل في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن سنة ٢٤٤هـ، ودفن في كنيسة زويل (دوزي، المسلمون في الأندلس، ٨٩/١، ٩٠، ١٢٦، ٢٥٤).

(٢) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١٠٠/١-١٠٤، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٧١/١.

(٣) Rafael Altamira, op. cit.,p.242.

محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٧١/١.

السلام[1].

سلك الأمير عبدالرحمن بن الحكم في البداية مع هذه الحركة طريق اللين، وأوصى القضاة بنصح هؤلاء وإرشادهم لعلهم ينتهون عن أفعالهم، لكن كل ذلك لم يجد في إيقاف انتشار هذه الحركة، فرأى أن يعالج هذا الأمر بالحزم والتفاهم، فدعى الكنيسة النصرانية إلى عقد مؤتمر لدراسة هذه الظاهرة، فعقد مجمع مقدس للكنيسة في العاصمة قرطبة، برأسه أسقف إشبيلية، ومثل الأمير عبدالرحمن بن الحكم أحد كبار الموظفين في الدولة، وهو الكاتب النصراني قومس بن انتنيان[2]، وتداول المجتمعون أسباب هذه الحركة وتطورها، وفيما يمكن أن تؤدي إليه لو استمرت من اضطرابات وانعكاسات سيئة، كما أعلن المجتمعون استنكارهم لتلك الحركة الانتحارية، ووجوب تحذير النصارى المخلصين من الاستمرار في هذا المسلك الخطر، وتم تفويض الدولة بالقبض على كل مخالف لقرارات المجمع الكنسي النصراني[3].

لم تكن قرارات المجمع الكنسي كافية لوقف هذه الحركة أو الحدّ منها، بل تمادي المتعصبون في طريقهم المشين، فاعتقل كل من تعرض للمقدسات الإسلامية بالطعن والسب، ومنهم النصراني أولوخيو، وكثير من الفتيات النصرانيات[4].

حاول الأمير محمد بن عبدالرحمن في بداية ولايته أن ينتهج سياسة أقل تشدداً من والده الأمير عبدالرحمن، فأخرج أولوخيو من السجن ومعه رفاقه، وسمح لهم بالسفر خارج العاصمة، إلا أنه سرعان ما عاد إلى إثارة النصارى ودعوتهم إلى التمرد والاستشهاد، فقام الأمير محمد بالقبض عليه وأصدر الحكم بإعدامه وقتله سنة ٢٤٤هـ، فبدأت هذه الحركة

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١٥٨.

(٢) هو قومس بن انتنيان بن جوليان، أديب كاتب تولى الكتابة للأمير محمد بن عبدالرحمن واشتهر بإتقان العربية وجودة الكتابة ويقال أنه أسلم ومات على الإسلام (الخشني، قضاة قرطبة، ص ١١٠ – ١١٢، دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/١٠٣).

(٣) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/١٠٣-١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٧١، ٢٧٢.

(٤) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/١٠٨، ١٠٩، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٧٢.

تختفي شيئاً فشيئاً حتى انتهت تقريباً[1]، ولم تعد بعد ذلك تشكل خطراً على حكومة قرطبة، وإن أطلت مرة أخرى عن طريق بعض الحوادث الفردية، مثل ما حدث في نهاية القرن الثالث في أواخر أيام الأمير عبدالله بن محمد، فقد حكم على امرأة نصرانية في مجلس القاضي أحمد بن زياد قاضي قرطبة بالقتل، نظير قيامها بنفي الربوبية عن الله عز وجل، وقالت: إن المسيح عيسى عليه السلام هو الله، وأدعت كذب النبي محمد ﷺ في نبوته[2]، ويذكر محمد خلاف[3] أن هذه الواقعة حدثت في ولاية أحمد بن زياد الأولى للقضاء[4]، أي في أواخر أيام الأمير عبدالله بن محمد، وهذه الحادثة تدل على أنه بالرغم من خمود ثورة التعصب النصراني قبل هذا التاريخ بنحو ثلاثين سنة، إلا أنه لم يخل الأمر بعد ذلك من حالات فردية متفرقة عاد فيها ذلك الهوس الديني إلى السطح.

ويبدو أن هذه الحركة (الاستشهاد) وإن اتخذت شكلاً دينياً تمثل في محاولة رجال الدين النصراني داخل الأندلس إيقاف اعتناق نصارى الأندلس للإسلام، ووقف اهتمامهم باللغة والثقافة العربية والإسلامية، إلا أنها كانت ذات أبعاد سياسية تتعلق بمسألة الوجود الإسلامي في الجزيرة الأندلسية، خصوصاً أن النصارى كانوا يتداولون في تلك الفترة نبوءات تتحدث عن قرب تحرير إسبانيا القوطية بشكل كامل[5]، فحاولوا خلق الفوضى والاضطرابات لزعزعة استقرار الدولة الأموية فيها، وهذا ما تنبه له الأمير عبدالرحمن فواجهها بحزم وقوة، ولم يقدم أي تنازلات لهذه الحركة، بل إنه طبق ما تقتضيه الشريعة

---

(١) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١١٢/١، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، عبدالحميد نعنعي، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، ص٢٣٦، دار النهضة العربية، بيروت.

(٢) ابن سهل، الإعلام، ٨٧٨/٢، ٨٧٩.

(٣) وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، ص٩.

(٤) تولى القاضي أحمد بن زياد القضاء سنة ٢٩١هـ في أيام الأمير عبدالله بن محمد واستمر قاضياً حتى توفي الأمير عبدالله وأبقاه الخليفة الناصر لدين الله على القضاء فترة يسيرة ثم عزله سنة ٣٠٠هـ، وكانت هي ولايته الأولى على القضاء، ثم رده الناصر لدين الله على القضاء سنة ٣٠٩هـ واستمر قاضياً حتى وفاته، سنة ٣١٢هـ (الخشني، قضاة قرطبة، ص١٥٤، ١٥٩، ١٦٢).

(٥) Luis Suarez Fernandez, Historia de Espana, Edad Media, Editorial Greedos, s.a., (Madrid), p.51.

في حق من يشتم الرسول ﷺ ودينه الإسلامي، وهو القتل في حق المسلم وغير المسلم، كما أنه دعا عقلاء النصارى للقيام بواجبهم تجاه بني قومهم، حتى لا ينعكس تأثير الأحداث عليهم أيضاً، أما الأمير محمد فإنه قد وفق إلى حد كبير في إخماد هذه الحركة، ونظراً لاستمرار رؤوس هذه الحركة في إثارتها من جديد، قام الأمير محمد بالقبض عليهم وتطبيق الشريعة بحقهم، مما أدى إلى إخماد جذوة هذه الحركة وسكونها، وكف المسلمين في الأندلس شرها.

المبحث الثالث

تطبيق سياسة خاصة تجاه أمراء الثغر الأعلى

ظهر في منطقة الثغر الأعلى في الفترة المحصورة بين سنتي ٩٥هـ -٣١٦هـ عدة أسر استغلت أوضاع الأندلس المضطربة، وخاصة في عصر الإمارة الأموية، وسيطرت على مجموعة من المدن والحصون في المناطق الفاصلة بين الأراضي الإسلامية والنصرانية، وكونت لها جيشاً من الأتباع والأنصار، استخدمته كثيراً في تمردها على حكومة قرطبة، فظهرت هذه الأسر وكأنها إمارات مستقلة، يتوارث فيها الأبناء آباءهم في حكم مناطق نفوذهم في ضوء العلاقات مع حكومة قرطبة[١].

ومن الملاحظ أن معظم الأسر المتنفذة في الثغر الأعلى هم من المولدين[٢]، مثل أسرة بني قسي[٣]، وأسرة بني عمروس[٤]، وأسرة بني الطويل[٥]، أما الأسرة التي اختلفت عنهم

---

(١) خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، دراسة أحواله السياسة، ص٢٨٥، جامعة بغداد، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م.

(٢) المولدون (المولدين): هم القوط الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامي إلى جانب زملائهم العرب والبربر، ويعرف هؤلاء المولدون بالمصادر الإسبانية بالخوارج أو المرتدين أي الذين ارتدوا عن دينهم القديم النصرانية (محمد عنان، دولة الإسلام بالأندلس، ٢٠٦/١).

(٣) بني قسي: جماعة من المولدين يرجع نسبهم إلى قسي قومس الثغر الأعلى أيام القوط، ولما فتح المسلمون الأندلس لحق بالشام وأسلم على يد الخليفة الوليد بن عبد الملك فكان ينتمي إلى ولائه، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضريين ضد اليمانية، وأصبح أولاده وأحفاده فيما بعد زعماء المولودين في الثغر الأعلى (ابن حزم : علي أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق لجنة من العلماء، ط١، ص٥٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م).

(٤) بني عمروس: جماعة من المولدين من أهل وشقة ويرجع نسبهم إلى عمروس بن يوسف كان ذا وجاهة وبأس وظهر في الثغر الأعلى وأعلن طاعته للأمير الحكم بن هشام، واستعان به الأمير الحكم في قتل مخالفيه في طليطلة فيما يسمى بوقعة الحفرة سنة ١٩١هـ واستمر أبناؤه وأحفاده في حكم مناطق الثغر في وشقة وما حولها (محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٩/١- ٢٤١).

(٥) بني الطويل: جماعة من المولودين يرجع نسبهم إلى شبريط المعروف بالطويل لطوله الفائق وكان بنو شبريط أو =

فهي أسرة بني تجيب[1] والتي تنتمي لإحدى القبائل العربية، وقد استعان الأمراء الأمويون بهذه الأسرة الأخيرة كثيراً لتطويع أسر المولدين الحاكمة بهذه الثغور[2]، وتنافست هذه الأسر على تقديم الولاء والطاعة لحكومة قرطبة حينما كانت الإمارة الأموية في أوج قوتها السياسية، منذ تأسيسها على يد عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) وحتى بداية عصر الأمير عبدالرحمن بن الحكم، فقدمت هذه الأسر خدمات مهمة لحكومة قرطبة الأموية، فاعتمد الأمويون عليهم في القضاء على حركات التمرد التي واجهوها في مناطق الثغر الأعلى، أو غيرها من مناطق الأندلس[3].

كما أن استعانة الأمويين بالمولدين في حكم الثغور واصطناعهم، رغبة منهم في توجيه نشاطهم لرد هجمات نصارى الشمال الإسباني عن أراضي الدولة الأموية، وجعلهم خط الدفاع الأول عن أراضيهم[4].

وقد نجحت هذه السياسة كثيراً، وأثمرت في توجيه الأمويين جهودهم للداخل، والقضاء على الفتن والثوارت الداخلية التي كانت تنشب ما بين فترة وأخرى، بعيداً عن الانشغال في مناطق الثغر الأعلى التي تركوها تحت حماية هذه الأسر.

= بنو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر وكان منزلهم بوشقة وبشتر، وكان عميدهم شبريط قد ظهر في أواخر المائة الثانية في عصر الحكم بن هشام وتغلب حيناً على وشقة (محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤٢/١).

(١) ينتسب بنو تجيب إلى أشرس بن كندة السكون منهم بني عدي وبنو سعد نسبوا إلى أمهم تجيب بنت ثوبان من مذحج ودار تجيب بالأندلس سرقسطة ودورقة وقلعة أيوب، من أشهرهم بني المهاجر أسكنهم الأمير محمد بن عبدالرحمن قلعة أيوب في الثغر الأعلى وبنى لهم حصن دورقة (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٢٩، ٤٣٠، الزركلي، الاعلام، ٣١٠/٣).

(٢) السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) العذري : أحمد بن عمر بن أنس، نصوص عن الأندلس مأخوذة من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبدالعزيز الأهواني ص ٢٦، ٢٧، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥م، السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٢/٢، ٩٥، ٩٦.

كما طبق الأمويون سياسة أخرى تجاه الأسر التي كانت تحكم الثغر الأعلى، وتمثلت هذه السياسة بضربهم ببعضهم البعض، أو ضربهم بالأسر العربية إذا ما حاولوا التمرد والعصيان، أو تحالفوا مع نصارى الشمال ضد بني أمية، وأول من طبق هذه السياسة الأمير الحكم بن هشام عندما استعان بزعيم بني عمروس للقضاء على تمرد المولدين في طليطلة[١]، كما استعان الحكم بن هشام بعمروس للقضاء على تمرد بهلول بن مرزوق، المعروف بأبي الحجاج في منطقة الثغر الأعلى سرقسطة[٢].

وحينما يرى الأمير أن أسلوب الحكمة والإصلاح هو الأسلوب الناجح لإخضاع أسر الثغر، فإنه يلجأ لذلك فيبعث شخصاً يثق به إلى مناطق الثغر الأعلى لإصلاح ما يمكن إصلاحه، كاستعانة الأمير الحكم بن هشام بالفقيه والقاضي المعروف الفرج بن كنانة لحل الأمور في مناطق الثغر الأعلى سرقسطة وما حولها أيام اضطرابها، فسار إليها وأصلح ما فسد منها، وقبض على المفسدين وحسم شرهم، وأقام مدة هناك ثم رجع[٣].

وفي الفترة الثانية من عصر الإمارة والتي يمكن أن نجعلها بداية من سنة ٢٠٦هـ بتولي الأمير عبدالرحمن بن الحكم الإمارة، وحتى قيام الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ على يد عبدالرحمن الناصر لدين الله، كثر تمرد الأسر الحاكمة في الثغور ضد حكومة قرطبة الأموية[٤]، الأمر الذي دفع الحكام الأمويين لتغيير سياستهم تجاه هذه الأسر رغبة في كسبها ضد نصارى الشمال، وسلك أمراء بني أمية في تلك الفترة عدة طرق لاستصلاح هذه الأسر وتسكين ثوراتها، وتسخيرها لصد العدوان النصراني القادم من الشمال، فتارة كان أمراء بني أمية يقبلون المال من هذه الأسر مقابل التسجيل لهم على ولاية الثغور[٥]، وأحياناً يضطرون لشراء هذه الولايات والمدن والحصون من هذه الأسر كوسيلة من

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٦/٢.

(٢) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٢٧، ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٩/٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص٢٢٠.

(٤) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص٤٥-٦٣، العذري، نصوص عن الأندلس، ص٢٩-٤٠.

(٥) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٣٠.

وسائل القضاء على تمردهم، كما حدث من هاشم بن عبدالعزيز[١] وزير الأمير محمد بن عبدالرحمن، عندما ابتاع مدينة سرقسطة سنة ٢٦١هـ بخمسة عشر ألفاً من أسرة بني قسي، كما ابتاع ما حولها من الحصون والقرى، فخرجوا منها ودخلها عمال الأمير محمد[٢].

كما اضطر أمراء بني أمية كثيراً إلى إعطاء الأمان لزعماء هذه الأسر، وعقدوا الصلح معهم مرة بعد مرة، وفي كل مرة كانوا ينقضون هذا الصلح ويعودون للتمرد[٣]، واستفادوا من ذلك بعقد الصلح مع حكومة قرطبة متى شاؤوا، وقد يكون ركون هذه الأسر إلى نصارى الشمال عند شدة بن أمية عليهم هو الذي أجبر أمراء بني أمية على مثل هذا السلوك معهم، كوسيلة لكسب تأييد هذه الأسر المتنفذة في منطقة الثغر الأعلى المجاورة لنصارى الشمال لكي تتفرغ لمحاربة الممالك النصرانية، ولم تكن حكومة قرطبة الأموية تعطي هذه التنازلات للمتمردين في مناطق الأندلس الأخرى، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذه الفترة من عمر الدولة الأموية في الأندلس ضعفت فيها القبضة الأمنية على ولايات الدولة، وزاد عدد المتمردين والثوار في داخل الأندلس،فوجه أمراء بني أمية جهودهم لقمع هذه الحركات والثورات، مما دفع حكومة قرطبة إلى تغيير سياستها مرة بعد مرة في مناطق الثغر الأعلى البعيدة عن متناولها، فحاولت الإبقاء على نفوذها هناك حتى لو كان ضعيفاً، ومما يؤكد هذا الضعف وقبول الأمويين بالقليل من هذه الأسر ما حدث في أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن، فقد أعياه ابن مروان الجليقي[٤] بكثرة الخروج

---

(١) هو هاشم بن عبدالعزيز، يكنى بأبي خالد الوزير، أخاً للقاضي المشهور أسلم بن عبدالعزيز، وكان هاشم خاصاً بالأمير محمد بن عبدالرحمن ويؤثره بالوزارة، كان فارساً بليغ الكتابة والبيان، كما كان شاعراً، وكان كثيراً ما يخرجه الأمير محمد مع ابنه المنذر غازياً، ولما توفي الأمير محمد نكبه الأمير المنذر وقتله، لأمور أخذها عليه، وكان مولده في أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم ومقتله سنة ٢٧٣هـ (ابن الأبار، الحلة السيراء، ١/١٣٧- ١٤٢).

(٢) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٣٥.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص٥٣-٦٣، العذري،نصوص عن الأندلس، ص٣٠-٣٥.

(٤) هو عبدالرحمن بن مروان الجليقي منسوب إلى بلدة جليقية شمال الأندلس في البرتغال حالياً، ينتمي إلى أسرة من المولدين وكان بنو الجليقي قد استقروا بماردة من أمد طويل وتولى أبوه مروان بن يونس الجليقي حكم =

والتمرد، واستولى على كثير من المدن والحصون في الثغر الأعلى، فما كان من الأمير محمد إلا أن سأله ماذا يريد مقابل أن يبقى على الطاعة؟ ويترك ما هو فيه من تمرد، فقال ابن مروان: يباح لي البشرنل[1] ابتنيها وأمدنها وأعمرها وأقيم الدعوة، ولا تلزمني جباية ولا طاعة في أمر أو نهي ! فأجيب إلى ذلك مقابل أن يبقى في حزب الإسلام على ما شرطه[2].

أما فترة عصر الخلافة التي بدأت من عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله، والذي استطاع القضاء على عوامل التمزق والانقسام في الأندلس، فتمكن من تحقيق الوحدة الداخلية في الأندلس[3]، وتفرغ لمناطق الثغور ونصارى الشمال، وكانت سياسة الخليفة الناصر تجاه أمراء الثغور تعتمد على مجاهدتهم وإخضاعهم بالقوة، ثم مداراتهم واسترضائهم بتعيينهم حكاماً على الأقاليم بعد أن يعلنوا له الطاعة والخضوع[4].

كما لجأ الخليفة الناصر لدين الله في بعض الأحيان إلى اتباع أسلوب أجداده في ضرب الأسر التي تحكم الثغور بعضهم ببعض، فتمكن من التخلص من أسرة بني قسي من المولدين، بعد أن ضربهم ببني تجيب من العرب[5]، كما ضرب المولدين من بني الطويل ببني تجيب[6].

ومن السياسات التي طبقها الناصر لدين الله فرض الصلح بين أمراء الثغور بحضور

=

ماردة أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن (الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٤٧، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٠٣/١، ٣٠٤).

(١) البشرنل: منطقة تقابل بطليوس وبينهما نهر إلى الغرب من قرطبة (ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٠٢).

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٠٢.

Rafael Altamira, op. cit.,p.244.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٦/٢-١٥٨.

(٤) العذري، نصوص عن الأندلس، ص ٤٢-٤٥.

(٥) العذري، نصوص عن الأندلس، ص ٣٩-٤٣.

(٦) العذري، نصوص عن الأندلس، ص ٦٦-٦٨.

القضاة والحكام والفقهاء وتسجيل عقد بذلك، فقد استقدم الناصر لدين الله صاحب مدينة وشقة[١] موسى بن محمد الطويل، وحكم بن منذر صاحب قلعة أيوب[٢]، وعقد بينهما عقداً في أعمالهم ومنتهى حدودهم، مع تجديد البيعة عليهم بعد أن أحلف كل واحد منهما في المسجد الجامع بقرطبة خمسين يميناً بحضور قاضي الجماعة والحكام والفقهاء على التزامهما الطاعة والوفاء بشروطهما[٣].

كما انتهج الناصر لدين الله سياسة إرسال ثقاته من القضاة لمطالعة أحوال الثغور، وحل الخلافات بين الأمراء، والنظر في مصالح أهلها، فكان كثيراً ما يرسل قاضية وثقته محمد بن عبدالله بن أبي عيسى، فكان هذا القاضي يحسن التصرف، ويتوسط بين الأمراء، ويشخص إلى قرطبة من يرى أنه بحاجة إلى ذلك[٤].

وهكذا يتبين أن الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله ضغط على أمراء الثغر الأعلى من المولدين والعرب، واتبع معهم أسلوب الحزم والقوة، وأسلوب المداراة والاصطناع والعفو والمصالحة، فكان يزحف عليهم بجيوشه إذا ما أظهروا العصيان، ثم يعفو عنهم بعد أن يقعوا في يده، فيخلصون له الود ويصبحون أداة يضرب بها أعداءه من ممالك إسبانيا النصرانية، وبذلك أمن الناصر الجبهة الداخلية، وانطلق يغالب نصارى الشمال الإسباني.

يقول أحمد بدر[٥] :" لم يعامل عبدالرحمن زعماء هذا الثغر معاملته للعصاة في أنحاء الأندلس الأخرى إذ عين أكثرهم في مراكزهم السابقة ضمن الشروط المواتية له وهي المعونة العسكرية والتزام قطيع من الجباية، ومع أنه قتل قلة منهم، إلا أنه عين أقارب

---

(١) وشقة: أو أشقة تقع إلى الشرق من تطلية وبها نهر يشقها وهي على بعد ثلاثة وسبعين كيلو متراً من سرقسطة إلى الشمال الشرقي منها، وحاصر المسلمون مدينة وشقة أثناء فتح الأندلس، مدة سبعة أعوام فلما طال الحصار على أهلها سلموا للمسلمين (الحميري، الروض المعطار، ص١٩٤، ١٩٥، محمد أباالخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص١٨٠).

(٢) قلعة أيوب: مدينة بالأندلس قرب مدينة سالم كثيرة الخصب والأشجار، مشهورة بصناعة الغضار المذهب، بينهما وبين دورقة ثمانية عشر ميلاً (الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٩).

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٤٥٣.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٤٥٣، ٤٦٨.

(٥) تاريخ الأندلس في القرن الرابع، ص١٨، دمشق، ١٩٧٤م.

المقتولين في مراكزهم، أي أنه حفظ للأسر أملاكها، ويظهر من سلوكه هذا أنه كان يقدر فائدة بقائهم لضبط هذا الثغر الذي يقع تجاه قسم كبير من الأراضي المسيحية، ويقف حارساً على المنفذ الرئيسي لنصارى الشمال إلى بلاد الأندلس و لم يغير هذا الموقف حتى آخر أيامه".

وقد نجح الأمويون عن طريق هذه السياسات التي طبقوها تجاه أمراء الثغور وأسرهم من المولدين والعرب، في دفع هؤلاء إلى تقديم خدمات جليلة للدولة الأموية تتمثل في حفظ تلك المناطق النائية من الوقوع في قبضة إسبانيا النصرانية، وفي بناء كثير من الحصون لحمايتها، ورد هجمات نصارى الشمال في الثغور الإسلامية.

* * * * *

لقد نجحت جهود حكام بني أمية في الأندلس في درء الخطر النصراني عن بلادهم، والمحافظة على وحدتها السياسية والفكرية، ونظراً لاعتناق المتمرد ابن حفصون الديانة النصرانية علانية استغلت الدولة الأموية ذلك بإعلان الجهاد ضده، وأصبح جهاده فرضاً على جميع مسلمي الأندلس، وحشد أمراء بني أمية ضده جميع إمكاناتهم وشارك الفقهاء والعلماء في الجهاد ضده، وتم إصدار فتوى من علماء الأندلس تقضي بمعاملة ابن حفصون معاملة النصارى المحاربين، وأن من يعيش تحت سلطانه كمن يعيش تحت سلطة حاكم نصراني، وتأكيداً لذلك تم الحكم على كل من يقبض عليه من أتباعه بالقتل والصلب، وتتابعت عليه الصوائف والشواتي كما يفعل مع نصارى الشمال، فانفض عنه بعض أتباعه ومناصريه، ولما تم فتح معقله في مدينة ببشتر تم الكشف عن قبره بحضور الفقهاء والعسكر وجمع من الناس، فوجدوه قد دفن على طريقة النصارى، وتم أخذ الشهادة بذلك على جميع من حضر، وتم نقله إلى قرطبة وصلبه بجانب أبنائه،وعمرت مساجد ببشتر المهملة وهدمت كنائسها، وتمت الكتابة بهذا النصر لجميع أنحاء الأندلس وقرئت على منابر الجمع.

ولأن الأندلس كانت في الأصل أرضاً نصرانية، لم يتعرض أمراء بني أمية لسكانها من النصارى، وسادت ثقافة التسامح معهم، وتركت لهم معابدهم التي صولحوا عليها أيام الفتح، إلا أنه تم إصدار فتاوى من فقهاء الأندلس تحرم على هؤلاء النصارى إحداث

كنائس جديدة لهم، ومنعهم من الخمور ولحوم الخنازير، وكان لهذا التسامح أثر كبير في إقبال النصارى على الإسلام وعلى اللغة والآداب العربية، فثارت ثائرة المتعصبين منهم، ولم يجدوا حلاً لوقف هذا التوجه من قبل المعتدلين منهم إلا انتهاج حركة جديدة أطلقوا عليها مسمى الاستشهاد، وتقوم هذه الحركة على الموت في سبيل سب الدين الإسلامي والمعتقدات الإسلامية ورسول المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم، والتي يعاقب عليها الإسلام بالقتل، وقد حاول أمراء بني أمية إيقاف هذه الحركة باللين، فتم عقد مؤتمر حضره كبار النصارى وأدان هذا المؤتمر هذه الحركة من المتعصبين ودعى لوقفها، إلا أن هذه الحركة استمرت، مما دفع القضاة لإصدار أحكامهم بإعدام كل من ينتهج هذا النهج، وتم تتبع المحرضين من كبار قساوسة النصارى والحكم عليهم بالقتل، مما خفف من حدة هذه الحركة ثم تلاشيها شيئاً فشيئاً حتى انتهت، وإن كانت هذه الحركة قد اتخذت شكلاً دينياً تمثل في محاولة وقف اعتناق النصارى للإسلام، وصرفهم عن اللغة والآداب العربية، إلا أنها كانت ذات أبعاد سياسية تتعلق بمسألة الوجود الإسلامي في الأندلس على أنقاض النصرانية، ومحاولة خلق الفوضى لزعزعة الاستقرار الداخلي، ومحاولة لفت انتباه الممالك النصرانية المتربصة في شمال الأندلس، وهذا ما تنبه له أمراء بني أمية فعملوا على وقفها والقضاء عليها .

ولمنع تقدم العدو النصراني في شمال الأندلس أوكل الأمويين حراسة حدود الثغر الأعلى إلى عدد من أسر المولدين، كبني قسي، وبني عمروس، وبني الطويل، وبعض الأسر العربية كبني تجيب، واتبعوا معهم أسلوب الحزم والقوة، وأسلوب المداراة والاصطناع، والعفو والمصالحة، فكان يزحفون عليهم بجيوشهم إذا ما أظهروا العصيان، ثم يعفون عنهم بعد أن يقعوا في أيديهم، فيخلصون لهم الود ويصبحون أداة يضربون بها أعداءهم من ممالك إسبانيا النصرانية، وبذلك أمن الأمويون الجبهة الداخلية وانطلقوا يغالبون نصارى الشمال الإسباني، وقد نجح الأمويون عن طريق هذه السياسات التي طبقوها تجاه أمراء الثغور وأسرهم من المولدين والعرب في دفع هؤلاء إلى تقديم خدمات جليلة للدولة الأموية، تتمثل في حفظ تلك المناطق النائية من الوقوع في قبضة إسبانيا النصرانية، وفي بناء الكثير من الحصون لحمايتها، ورد هجمات نصارى الشمال على الثغور الإسلامية .

الفصـــــل السادس

الوسائل المساعدة لدعم وحدة الفكر في الأندلس

المبحث الأول : اللغة العربية.

المبحث الثاني : المدارس والكتاتيب والعناية بها.

المبحث الثالث : استحداث مناصب جديدة.

في إطار وحدة الأندلس الفكرية سعى حكام بني أمية إلى إيجاد عديدٍ من الوسائل التي تساعدهم في تحقيق هذا الهدف، فقام هؤلاء الحكام بما يجب القيام به، وكان من أهم الوسائل التي انتهجوها اهتمامهم الشديد باللغة العربية كوسيلة مهمة لتوحيد البلاد لغوياً مما ينعكس على وحدتها فكراً، وانتشرت اللغة العربية بدعم منهم بين غير الناطقين بها من سكان الأندلس الأصليين متحدثي اللغة اللاتينية، واستطاعت الدولة الأموية في فترة قصيرة من عمرها أن تحول الأندلس إلى بلد يتحدث غالبية سكانه اللغة العربية، كما اهتم أمراء الدولة الأموية بالكتاتيب والمدراس وأسهموا في انتشارها بشكل كبير في الأندلس كوسيلة ناجعة للسيطرة على البلاد فكرياً من خلال مراقبة كل ما يدرّس داخل هذه المحاضن التعليمية، ومدى توافقها مع ما يفيد في توحيد البلاد فكرياً، كما عمد أمراء بني أمية إلى استحداث مناصب جديدة لدعم وحدة البلاد فكرياً، عن طريق تعيين عدد من الفقهاء معروفي التوجه يستطيعون أن يسهموا في قيادة الأندلس علماً وفكراً، وسنستعرض ذلك عن طريق المباحث التالية:

المبحث الأول

اللغة العربية

تحظى اللغة في أي مجتمع بأهمية بالغة بالنظر إلى الدور الذي تؤديه في عملية التواصل الاجتماعي بين جميع فئات المجتمع، وكل تطور يحصل في المجتمع يتردد صداه من خلال مؤسسة اللغة باعتبارها الناطق الرسمي باسم الأمة، وبها يتم توحيد الفكر والمجتمع والدولة. فاللغة هي وسيلة من أهم الوسائل المساعدة في تحقيق وحدة أي مجتمع، لذا تحرص الأمم على توحيد لغاتها سعياً منها لتوحيد فكرها، وتمتاز اللغة العربية بأنها أحد اللغات التي تجاوزت حدود القبيلة والقوم وارتبطت بالإسلام فكانت لغة عقيدته وشريعته وخطابه إلى جميع البشر، وعلى الرغم من عدم فرض اللغة العربية على الشعوب الإسلامية ذات اللغات الأخرى، إلا أنها انتشرت بانتشار الإسلام لأنها حملت في المقام الأول آيات القرآن المعجز إلى آفاق المعمورة، مما أسهم في انتشارها وكثرة المقبلين عليها.

ولقد ازدهرت الحياة الأدبية في الأندلس إبان الحكم الأموي لها تبعاً لاهتمام أمراء وخلفاء بني أمية بها، وكانت علوم اللغة العربية من أشهر العلوم التي دعموها وساندوها، فبرز في أيامهم العديد من كبار علماء اللغة، واحتلوا مكانة سامية في بلاط بني أمية كمعلمين ومؤدبين وكتاب ووزراء[1]، وإزاء اهتمام بني أمية باللغة العربية انتشرت بين أهل الذمة في الأندلس، وأصبحت جزءاً من حياتهم، ولم يمض وقت طويل من عمر دولة بني أمية حتى تعربت الأندلس بشكل كبير، وأصبحت العربية هي السمة البارزة في تلك الفترة، وكاد العنصر غير العربي يتلاشى ويختفي داخل العنصر العربي[2].

---

(١) الزبيدي، طبقات النحويين، ص٩، ١٠، ٣١٠-٣١٤؛ ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ص٣٦٦؛ ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص١٩٥، ١٩٦، ٢٣٤، ٢٣٥، ٣٦، ٣٣٧؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٥ .

ويمثل عصر الأمير هشام بن عبدالرحمن أول نقلة نوعية في هذا المجال، فقد أصدر مرسوماً بجعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود، وكان لهذا الإجراء أثر كبير في اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله(١)، وتبعاً لذلك اختلط النصارى بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم في الحياة، ووصل الأمرإلى أن بعضهم تضلع في لغة العرب وآدابهم، مفضلين ذلك على لغتهم الأصلية اللاتينية(٢).

وأما انخراط كثير من أهل الذمة في الأندلس لتعلم اللغة العربية وخصوصاً النصارى منهم، اضطر رجال الكنيسة لترجمة صلواتهم إلى العربية حتى يفهمها النصارى، وتبع ذلك انبهار النصارى كثيراً باللغة بالعربية، فأخذوا يكتبون بها وينبذون لغتهم اللاتينية، ويتخذون الأسماء العربية تأكيداً لتفضيلهم اللغة العربية على لغتهم الأصلية(٣).

ويُذكر أن طليطلة بقيت في أيدي العرب لأربعة قرون، وغلبت العربية على أهلها من النصارى فلبثوا على دينهم، ولكنهم اتخذوا اللغة العربية لأنفسهم، وكانوا يقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنسية باللغتين العربية والقوطية، وكان أخذهم وعطاؤهم وبيعهم وشراؤهم وجميع صكوك معاملاتهم بالعربية(٤).

وفي عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم زاد اهتمام النصارى باللغة العربية وبالتراث العربي، نتيجة للاهتمام الكبير الذي أبداه هذا الأمير للعلم والعلماء، وكتب الأدب والعربية، وإرساله بعض الأدباء لاقتناء الكتب من المشرق(٥)، فأثار ذلك حفيظة بعض المتعصبين النصارى، والذين لم يجدوا حلاً لوقف عجلة اندفاع النصارى إلى لغة القرآن إلا

---

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/٢٢٩.

(٢) أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٥.

(٣) دوزي، المسلمون في الأندلس، ١/٨٥، أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٥، ٤٨٦، رجب محمد عبدالحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، ص ٧٠، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت. سعد حسين عثمان، المجتمع الإسلامي في الأندلس، ص ١٠٧.

(٤) شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط١، ١١/٣٦٤، ٣٦٥، المكتبة التجارية الكبرى، فاس، ١٩٣٦م.

(٥) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٧٨.

بإحداث فتنة تمثلت فيما يطلق عليها حركة الاستشهاد التي سبق الحديث عنها[١].

ويعلق بالنثيا[٢]على توجه النصارى وتعمقهم في التراث العربي، وحسرة بعض رجال الدين على ذلك التوجه فيقول:" ومن مصاديق ذلك تلك الحقيقة التي يعرفها كل الناس، وهي أنهم كانوا يؤثرون استعمال لغة العرب وأسمائهم وأزيائهم، ويجتهدون في أن يأخذ الطابع الإسلامي في كل مناحي حياتهم، ولا يجهل أحد حسرات ألبرو القرطبي، فطالما رددها المؤلفون، وهي تتحدث في جلاء عن ولع نصارى الإسبان بالأدب العربي، فهو يقول: (إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً، وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة! إن الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون عليها أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك بازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا انتباههم لها! يا للألم لقد أنسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم من ينظمون الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً)".

وقد تسابق هؤلاء النصارى لتعلم اللغة العربية رغبة في العمل في بلاط أمراء بني أمية، وبرز مجموعة منهم: ربيع بن تدلف القومس في عهد الأمير الحكم بن هشام، فوثق به الأمير وتولى عدداً من المهمات الإدارية في الدولة الأموية[٣]، وقومس بن انتينان في عهد الخليفة عبدالرحمن بن الحكم والذي أصبح حلقة الوصل بين الأمير ونصارى الأندلس،

---

(١) انظر هنا، ص ٢٠٩.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص١٨٣، ١٨٤.

كما برز هذا الرجل في الكتابة للأمير محمد بن عبدالرحمن وبرع فيها[١]، واتخذ الناصر لدين الله من النصراني ربيع بن زيد القومس[٢] سفيراً له لألمانيا، وقد ألف هذا السفير كتاباً باللغة العربية عنوانه تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان، وهو تقويم فلكي مناخي وزراعي، وقد ترجم هذا الكتاب من العربية للاتينية[٣].

وفي تلك الفترة التي ظهر فيها اهتمام النصارى باللغة العربية اهتم اليهود بها أيضاً، وكانت المناقشات بين علماء اليهود تجري على نفس الأسلوب الذي كان العرب يجرون مناقشاتهم فيما بينهم، مما يدل على تأثرهم الشديد بالثقافة العربية، وتعلموا الفلسفة من الكتب العربية، ونقلوا النحو إلى لغتهم العبرية عن طريق الكتب العربية، ولهؤلاء اليهود مؤلفات عديدة كتبوها باللغة العربية إبان الحكم الأموي للأندلس[٤].

واتخذ الخليفة الناصر لدين الله من اليهودي الأصل حسداي بن شبروط[٥]، وزيراً ومشرفاً على الخزانة العامة، كما حظي الخليفة بخدماته الدبلوماسية، وترجم عدداً من الكتب إلى اللغة العربية[٦]، وفي ظل تلك الرعاية من أمراء وخلفاء الدولة الأموية لغير المسلمين بالأندلس أقبلوا على تعلم اللغة العربية، ووفد كثير من العلماء والأدباء غير المسلمين إلى الأندلس وبالأخص في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة، ص١١٠-١١٢، دوزي، المسلمون في الأندلس، ١٠٣/١.

(٢) هو ربيع بن زيد الأسقف التحق بخدمة الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله وكان سفيراً للناصر لدى هوتو (otto) إمبراطور ألمانيا (أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٧).

(٣) أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٧.

(٤) أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ٥٠٦/١-٥١٦.

(٥) هو حسداي بن إسحاق بن عزاري بن شبروط، يكنى أبا يوسف من أهل قرطبة، برز في أيام الناصر لدين الله، واتخذه وزيراً له كما تولى الإشراف على الخزانة العامة، وأصبح سفيراً للناصر أيضاً، ترجم عدداً من الكتب اليونانية إلى اللغة العربية، وهو أول من بدأ ببعث الدراسات التلمودية، ومن دراساته خرج أعلام الأدب العبري في الأندلس (أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٨، ٤٨٩، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥١٥/١، ٥١٦).

(٦) أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٨، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥١٥/١، ٥١٦.

المستنصر[1].

يقول دوزي[2] متحدثاً عن الحكم المستنصر:"ومجمل القول إنه لم يكن هناك حد لعطف الحكم على العلماء من أهل الأندلس والأجانب على حد سواء، فازدحم بهم بلاطه، وامتد عطفه فشمل الجميع، وأفاء عليهم ظل رعايته، لم يستثن من ذلك أحداً".

وأمام هذا الدعم الذي قدمه أمراء وخلفاء بني أمية للغة العربية، أثمر ذلك في تعريب الأندلس أو بالتحديد في المناطق الخاضعة لسيطرة الدولة الأموية، وهو ما أكد عليه ابن سعيد عندما قال:"إن أهل الاندلس يحافظون على قوام اللسان العربي، لأنهم إما عرب أو متعربون"[3].

ويقول بالنثيا[4] كذلك: "ولا يشك أحد اليوم فيما ساهم به الإسبان أهل البلاد من نصيب عظيم في تطور الثقافة الإسلامية، وإذا كنا لا نجد بين أيدينا من أدلة تمكنهم من اللغة العربية قدراً أفضل من هذا الذي نراه اليوم، فإنهم – من غير شك – ليسوا مسؤلين عن هذا، فقد ظلوا يستعملون هذه اللغة زمناً طويلاً بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة، وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم، ويتسمون بأسماء عربية، حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التي خلفها لنا مستعربو طليطلة".

ولاشك أن دعم بني أمية للغة العربية والثقافة الإسلامية، ونشرها بين غير العرب خصوصاً أهل الذمة في الأندلس، وإقبال هؤلاء الذميين عليها وتعمقهم في دهاليزها، أثمر اعتناق كثير منهم للإسلام ودخولهم في صف المسلمين، ومن بقي على دينه فإنه لا يعدم من انتمائه لمن يتحدث لغتهم، ويدرس ثقافتهم، وبهذا أثمرت جهود حكام بني أمية في توحيد الصف، ودعم الوحدة الفكرية بين الأطياف المختلفة تحت لغة القرآن الكريم.

---

(١) دوزي، المسلمون في الأندلس، ٦٦/٢ – ٦٨، عنان، دول الإسلام في الأندلس، ٥٠٦/١– ٥٠٨.

(٢) المسلمون في الأندلس، ٦٧/٢.

(٣) المقري، نفح الطيب، ١٢٥/١.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٨.

المبحث الثاني

المدارس والكتاتيب والعناية بها

إن العلاقة بين الدولة والعملية التعليمية تنبع من الدين الإسلامي، فالدين ليس شعائر يؤديها العبد لخالقه فقط، بقد ما هو نموذج حياة متكامل يتناول كل ما يتعلق بالإنسان نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو الناس، ويحدد كافة الحقوق والواجبات التي يجب على المؤمن اتباعها، ولكي يدرك الناس قواعد دينهم، وأسس حياتهم، وتكوين شخصيتهم داخل المجتمع، ثم صياغة هذا المجتمع على أسس تتلاءم وقواعد دينهم، وتمكنهم من تحقيق وحدتهم الفكرية، كان لا بد من التعليم، ولا بد من التربية المتكاملة للناس، وتعريفهم بهذه الأسس والقواعد التي يجب عليهم الانطلاق منها إلى كافة مظاهر حياتهم الأخرى، وقد قامت المدارس والكتاتيب في أنحاء العالم الإسلامي بخدمة جليلة مكنت المسلمين من توحيد فكرهم، ومن ثم توحيد اتجاههم السياسي خدمة لمشروع الدولة المسلمة، ولا غنى لأي دولة مسلمة عن التعليم والدراسة لغرس المفاهيم الفكرية والتربوية بين جميع فئات المجتمع.

ولقد ازدهرت الحركة العلمية في الأندلس إبان الحكم الأموي لها تبعاً لاهتمام أمراء وخلفاء بني أمية بالعلم والعلماء، فاهتموا بالمعلمين والمؤدبين[(١)] وكتب العلم والتواليف[(٢)]، والورق والوراقين[(٣)]، والمكتبات وجمع الكتب[(٤)] ومنذ أن استقر حكم الدولة الأموية بالأندلس دعمت الحركة العلمية بشتى الطرق والمجالات، فهيأ الحكام الأمويون للعلماء الجو المناسب للنشاط العلمي، وفتحوا المجال للعلماء وطلاب العلم ليرحلوا إلى مختلف البلدان للاستزادة من العلم، وحينما رجعوا رحبوا بهم ورفعوهم إلى أعلى

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ٢٠١/١ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ٢/ ٢٤٠,٢٤١,٢٤٩.

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، السفر الثاني ، ص ٢٧٨,٢٧٩، ابن الأبار الحلة السيراء، ٢٠٢/١.

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ٢٠٢/١.

(٤) ابن الأبار ،الحلة السيراء ، ٢٠١/١,٢٠٢ ، الحميدي ، جذوة المقتبس، ص١٩.

المناصب[١]، كما أن كثيراً من الكتب الجديدة تم جلبها من المشرق، ودأب أمراء وخلفاء بني أمية على إرسال عدد من المبعوثين لإحضار ما يمكن إحضاره من كتب علماء المشرق البارزين، وأنفقوا الأموال الكبيرة على شراء هذه الكتب[٢].

وقام المؤدبون بدعم من أمراء وخلفاء بني أمية بدور كبير في العملية التعليمية، وأدبوا أبناء العامة والخاصة، حيث تعتبر مهنة التأديب مرحلة أولى في التعليم والتدريس، وكان بين هؤلاء المؤدبين عدد كبير من أهل العلم، كالغازي بن قيس الذي رحل في أيام الأمير عبدالرحمن الداخل إلى المشرق وعاد بعلم وفير واشتغل بالتأديب والتدريس، وكان الأمير عبدالرحمن الداخل مجلاً له يأتيه ويصله[٣]، كما عني الأمير هشام بن عبدالرحمن وابنه الحكم بهذا العالم واستعانوا به مؤدباً لأبنائهم، وكان كبير المؤدبين في وقته وبه يستعين بقية المؤدبين لحل مشاكلهم[٤]، وفي أيامهم برز أبو الغمر عبد الواحد بن سلام[٥] في مهنة التأديب، وكان من أهل العلم والبروز في النحو، وله كتب يتم تداولها بين عامة الناس[٦].

كما برز في أيام الأمير عبدالرحمن الداخل سوار بن طارق[٧] في مهنة التأديب، فاتخذه

---

(١) ومن الأمثلة الجلية في ذلك رحلة الغازي بن قيس وعلاقته مع الأمير عبدالرحمن الداخل بعد رجوعه وكذلك رحلة الفقيه زياد بن عبدالرحمن وعلاقته مع الأمير هشام بن عبدالرحمن وتقريبه منه، وعلاقة الأمير عبدالرحمن بن الحكم مع الفقيه المشهور يحيى بن يحيى الليثي (ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٣١،١٣٢،٢٧٢،٤٣١،٤٣٢، وعياض ، ترتيب المدارك ، ١/١٩٩-٢٠٣، ٣١٠-٣١٧).

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء، ١/٢٠٢ ، ابن حيان ، المقتبس ، السفر الثاني، ص٢٧٨ ، المقري، نفح الطيب ، ١/٣٨٦، حزعل ياسين مصطفى، بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة، ص٩٦، ٩٧، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، الموصل، ٢٠٠٤م.

(٣) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص٢٥٤.

(٤) الزبيدي، طبقات النحويين ، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٥) هو عبد الواحد بن سلام الأحدب ، يكنى أبا الغمر ، من أهل قرطبة كان بارعاً في علم النحو وأدب به ، وله كتاب مؤلف هو بأيدي الناس وتوفي سنة ٢٠٩هـ (ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ص٢٣٤.

(٦) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص٢٥٧.

(٧) هو سوار بن طارق أعتقه الأمير عبدالرحمن بن معاوية وكانت وفاته بعد هيج الربض سنة ٢٠٢هـ (الزبيدي، طبقات النحويين ، ص٢٥٧).

الأمير مؤدباً لأولاده [١]. ويعتبر بروز هؤلاء المؤدبين، واهتمام أمراء بني أمية بهم، واستعانتهم بهم لتأديب أبنائهم، والسماح لهم بتأديب أبناء عامة الناس، له دور كبير في ترسيخ وحدة الأندلس الفكرية، فعن طريق هؤلاء المؤدبين تلقى الكثير من شباب الأندلس تعليمهم، ولا شك أن متابعة حكام بني أمية لهم، وتركيزهم على اختيار كثير منهم من أهل العلم البارزين، دليل على حرصهم على الاستعانة بهم لتحقيق وحدة البلد الفكرية، وتقويم سلوك شباب الأندلس مع ما ينسجم ومتطلبات المرحلة.

ومن هنا كان لأمراء الدولة الأموية الأوائل[٢] دور كبير في مسيرة العملية التعليمية من خلال تهيئة البيئة الملائمة للعلم والعلماء، فرحل في عهدهم العديد من طلاب العلم ورجعوا بعلم وفير، وكان لهم الفضل في دخول مذهب مالك ثم تبنيه من قبل هؤلاء الأمراء كما سبق شرحه[٣]، كذلك ازدادت في أيامهم أعداد العلماء والمؤدبين وأقبل الناس على العلم والدرس، وينسب للأمير هشام بن عبدالرحمن إنشاء المدارس للتعليم، رغم تشكيك خوليان ريبيرا[٤] بهذا الأمر وقوله: إن ذلك بعيد عن الواقع.إلا أن هذه المعلومة توضح بجلاء مدى اهتمام أمراء الدولة الأموية الأوائل بمهنة التعليم والتدريس في الأندلس.

كما برز الشاعر عبدالله بن الشمر[٥] بمهنة التأديب، وحظي بعلاقة وثيقة مع الأمير عبدالرحمن بن الحكم فكان له صديقاً ونديماً ومقرباً[٦]، كما تولى أحمد بن نعيم[٧]مهمة

---

(١) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص٢٥٧.

(٢) المقصود بهم هنا: الأمير عبدالرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم بن هشام.

(٣) انظر المبحث الأول من الفصل الأول، ص٢٥.

(٤) خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد المكي، ط٢، ص ١١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤ م.

(٥) عند الزبيدي اسمه الشمر بن عبدالله وابنه عبدالرحمن وهم ندماء الأمير عبدالرحمن بن الحكم ، أما عند ابن حيان فاسمه عبدالله بن الشمر وقد تقدمت الترجمة له في ص١٧١ (الزبيدي. طبقات النحويين، ص ٢٥٧، ابن حيان ، المقتبس ، السفر الثاني ص٢٨٩).

(٦) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص٢٥٧,٢٥٨، ابن حيان ، المقتبس السفر الثاني ، ٢٨٩، ٢٩٠.

(٧) هو أحمد بن نعيم ذا علم بالعربية وكان مقدماً في صناعة الشعر وله حظ من البلاغة (الزبيدي، طبقات النحويين ، ص٢٦٥).

التأديب في مدينة جيان ومدينة طليطلة[١].

واستقدم هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبدالرحمن المؤدبين جابر وأخاه عبدالرحمن أبناء غيث[٢] من كورة لبلة[٣] لتأديب بعض أبنائه، فاستجاب له جابر بن غيث وقدم إلى قرطبة واشتغل بالتأديب وكان شديداً في تأديبه، وأغلب من تأدبوا عنده أصبحوا من أهل العلم بعد ذلك[٤].

وكان مؤدب الناصر محمد بن محمد بن أرقم[٥] قد امتهن مهنة التأديب خلفاً لوالده الذي اشتهر بتأديب أبناء الخلفاء[٦].

كما اشتهر هشام بن وليد الغافقي[٧] بتأديب أبناء الخاصة، وكان أشهر طلابه الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر[٨].

وكان حسين بن وليد بن نصر[٩] عالماً بالعربية ومن تلاميذ ابن القوطية، رحل إلى

---

(١) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص ٢٦٥.

(٢) هو جابر بن غيث من أهله لبلة ، يكنى أبا مالك، عالم بالعربية والشعر وضروب الأدب ، مشهور بالفضل والدين، قدم قرطبة مؤدباً وسكن قرطبة وكان من أحد الناس في التأديب توفي سنة ٢٩٩هـ (الزبيدي، طبقات النحويين ، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٣) كورة لبلة تتاخم أحوازها أحواز كورة إشبيلية من الغرب ، وتتصل حدودها الجنوبية بالبحر وتبعد قاعدتها عن مدينة إشبيلية مسافة ٤٢ميلاً، وتعرف هذه القاعدة بكتب الجغرافية العربية بالحمراء ، أما حالياً فهذه الكورة تمثل مديرة ولبة المحدودة من الغرب بالبرتغال ومن الشرق بمديرية إشبيلية وقادس (ابن الآبار ، الحلة السيراء، ٢/١٨٠،١٨١ ، محمد أبا الخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، ص٢٣١).

(٤) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ٢٦٦،٢٦٧.

(٥) هو محمد بن أرقم من أهل العلم بالعربية والكلام في معاني الشعر، استعان به الأمير عبدالرحمن الناصر لدين الله بتأليف ونسخ عدد من كتب الأدب (الزبيدي، طبقات الفقهاء ص ٢٨٢،٢٨٣).

(٦) الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص ٢٨٢.

(٧) هو هشام بن الوليد بن محمد الغافقي يكن أبا الوليد من أهل قرطبة سمع من بقي بن مخلد وغيره، كان عروضاً نحوياً وغلب عليه العروض توفي سنة ٣١٧هـ (ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ٤٢٧،٤٢٨).

(٨)الزبيدي ، طبقات النحويين ، ص ٢٨٤، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ص ٤٢٧.

(٩) هو حسين بن وليد بن نصر يعرف بابن العريف. يكنى أبا القاسم من أهل قرطبة كان نحوياً عالماً بالعربية متقدماً بها، رحل إلى مصر وسمع من كثير من علمائها ثم رجع إلى الأندلس وعمل مؤدباً توفي سنة ٣٩٠هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٠٠).

المشرق وسمع بمصر وأقام فيها أعواماً، ولما عاد إلى الأندلس استأدبه المنصور بن أبي عامر لبنيه وقربه من صحبته[١].

وبرز محمد بن خطاب[٢] بالأدب فاحتل مكانه كبيرة بين المؤدبين، وهذا ما جعل أولاد الأكابر وذوي الجلالة يقصدونه لطلب العلم والعربية عنده[٣]، وحظي المؤدب وليد بن عيسى الطينجي[٤] بمكانه بارزة بين المؤدبين، ولمع اسمه عالياً وتنافس عليه الملوك والأكابر[٥].

ومما لاشك فيه أنه مهنة التأديب اجتذبت العديد من العلماء وطلاب العلم نتيجة لاقبال الأمراء وأبنائهم عليها، وكانت إجادة المؤدب في عمله ترفعه وأسرته لأعلى المناصب في الدولة، وخير مثال على ذلك المؤدب محمد بن عبدالله[٦] الذي استأدبه الأمير الحكم بن هشام لبنيه، ثم ولّى ابنه محمد الخزانة، كما تصرف بنوه في الخطط إلى أيام الناصر لدين الله[٧].

ونال الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي[٨] منزلة سامية لدى الخليفة الحكم المستنصر؛

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس ، ص١٠٠.

(٢) هو محمد بن خطاب النحوي الأزدي ، يكنى أبا عبدالله ، من الأدباء المشهورين والنحاة المذكورين توفي قبل الأربعمائة (الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٤٨).

(٣) الحميدي، جذوة المقتبس ، ص ٤٨.

(٤) هو وليد بن عيسى بن الحارث من ولد رشيد مولى الوليد بن عبد الملك ، يعرف بالطينجي ، ويكنى أبا العباس، كان بصيراً بالشعر وشرح شعر أبي تمام الطائي، توفي سنة ٣٥٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٤١٨).

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ، ص ٤١٨.

(٦) هو محمد بن عبدالله يكنى أبا عبدالله، كانت له رحلة وقرأ القرآن على عثمان بن سعيد المعروف بورش صاحب نافع ، برز في علم القرآن والعربية والزهد، و لم يغير حالته التي كان عليها قبل اتصاله بالسلطان (الزبيدي، طبقات النحويين ، ٢٧٠).

(٧) الزبيدي ، طبقات النحويين ،ص٢٧٠.

(٨) هو جعفر بن عثمان بن نصر القيسي المصحفي ، كان خاصاً بالأمير الحكم المستنصر، وتولى عدداً من الأعمال في عهد الناصر الدين والحكم المستنصر، وكان مشهوراً بالشعر ولما توفي الأمير الحكم تولى عثمان الحجابة لابنه هشام المؤيد وغدر به المنصور بن أبي عامر وقتله (ابن عذاري، البيان المغرب ، ص٢٥٤، ٢٥٨).

بسبب أن والده عثمان بن نصر[١] كان مؤدباً له، فقربه الحكم واستخدمه في أيام والده الناصر لدين الله، ثم رقاه إلى الوزارة والكتابة والحجابة بعد توليه الخلافة، كما ولّى ابنيه الأعمال الكبار[٢].

وكان هؤلاء المؤديون الذين سبق ذكرهم هم نواه التعليم في الأندلس، وكان لدعم أمراء وخلفاء بني أمية لهم ورفعهم لأعلى المناصب دور كبير في تشجيع العلم والمعلمين وزيادة إقبال الناس عليه، ويشير المقري[٣]إلى شيء من ذلك فيقول:"وأما حال أهل الأندلس في فنون أهل العلم فتحقيق الإنصاف في شأنه في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز... والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وأشبه ذلك".

ومما لاشك فيه أن هؤلاء المؤدبون قد أدوا دوراً كبيراً في توجيه الأندلس نحو الوحدة الفكرية، لأن غالبيتهم كانوا من أهل العلم والأدب، وكان لمتابعة أمراء بني أمية لهم، والاستعانة بكثير منهم، دور كبير في ترسيخ وحدة الأندلس الفكرية والسياسية.

وقد قامت الجوامع بدور مهم في عملية التعليم عند الأندلسيين، فكان اعتمادهم عليها في حياتهم العلمية، يقرءون جميع العلوم فيها[٤].

وساهم أمراء وخلفاء بني أمية في حث العلماء على الجلوس والتدريس في الجوامع[٥]، فكانوا يستقدمون العلماء ويجعلون سكنهم بجانب الجامع حتى يتمكنوا من تدريس الطلاب فيه[٦].

وحظي جامع قرطبة باعتباره المركز الإسلامي الأساس في الأندلس بمكانة علمية

---

(١) هو عثمان بن نصر بن عبدالله القيسي المصحفي ، من أهل قرطبة، كان ذا سمت وعدالة ، أدب الحكم المستنصر وهو والد الحاجب جعفر بن عثمان توفي سنة ٣٢٥ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ، ص٢٤٤).

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٤٤، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٤/٢.

(٣) نفح الطيب، ٢٢٠/١.

(٤) المقري، نفح الطيب، ٢٢٠/١.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص٢٥٣,٢٥٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٦) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٤٠.

مرموقة، فكان دوره عظيماً في تشكل واستمرار الحركة والنشاط العلمي، فقد ضم بين جنباته حلقات العلم والدرس، وكان الطلاب يدرسون فيه مختلف العلوم من دين ولغة وأدب وتاريخ وجغرافيا وطب وفلك ورياضيات، إلا الفلسفة والتنجيم فكانت محل ريبة وشك لكل من يتعلمها ويتكلم بها، لذا تم منع تدريسها تحقيقاً لسلامة الفكر والمحافظة على وحدة الأندلس الفكرية من هذه الشوائب(١).

وأصبح جامع قرطبة وجامع الزهراء(٢) برعاية أمراء وخلفاء بني أمية بمثابة جامعتين كبيرتين يؤمهما أعدادٌ كبيرةٌ من الطلاب، وكانا يمثلان المركز العلمي الذي يجتمع فيه العلماء ويفد إليه طلاب العلم لاكتساب العلم والمعرفة(٣).

كما قامت المكاتب أو الكتاتيب بدور هام أيضاً في الناحية التعليمية، فقد كان الطلاب يتلقون فيها مبادئ العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم، وقد زادت أعداد هذه المكاتب في عهد الخليفة الحكم المستنصر، ويمكن القول إنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبين يتخذونها في بيوتهم(٤)، يقول ابن عذاري(٥): "ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء المساكين القرآن حوالى المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً، منها حول المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرض المدينة، وفي ذلك

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١/٢٢٠،٢٢١.

(٢) جامع قرطبة أنشأه المسلمون بعد أن شاطروا أهل البلاد المفتوحة كنيستهم في قرطبة، ولمّا ضاق المسجد وسّعه الأمير عبدالرحمن الداخل وضم شطر الكنيسة الآخر بعد أن أرضى النصارى، ثم أخذ أمراء وخلفاء بني أمية من بعده في توسيعه. أما جامع الزهراء فقد تم بناؤه في المدينة التي أنشأها الخليفة الناصر لدين الله واشتهرت بجامعها البديع الذي اكتمل بناؤه عام ٣٢٩هـ (المقري، نفح الطيب، ١/٥٦٠ – ٥٦٥).

(٣) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص٢٥٢، المقري ، نفح الطيب ، ١/٥٦٠-٥٦٥ ، سعد بن عبدالله البشري، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ط١، ص١٣٩، ١٤٠، جامعة أم القرى ومعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ، ١٩٩٧م.

(٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ١/٣٣.

(٥) البيان المغرب، ٢/٢٤٠، ٢٤١.

يقول ابن شخيص:

ساحة المسجد الأعلى مكللةٌ   مكاتبُ لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كَلِمٍ   نادتك ياخير تاليها وواعيها"

كما حبس الحكم في سنة ٣٦٤هـ حوانيت السراجين[١] بقرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة، وأشهد القاضي محمد بن إسحاق على هذا التحبيس، فعظمت به المنفعة[٢].

وعلى هذا يكون الخليفة الحكم المستنصر قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع للاستفادة من التعليم، فلم يعد قاصراً على ذوي القدرة من الناس، بل أصبحت فرص التعليم متاحة لكل شخص يريد ذلك، كما أن تحبيس حوانيت السراجين للصرف على المعلمين دليل على شدة اهتمام أمراء بني أمية ورغبتهم في استمرار هذه المحاضن التربوية لتؤدي دورها في تعليم أبناء المسلمين مبادئ دينهم وعقيدتهم، مما يساعد على بروز جيل متعلم مثقف يساهم في وحدة بلادهم الفكرية، بالإضافة إلى أنه يدل على مدى عناية الأندلسيين بالعلم، وصبرهم على المشقات في سبيل تحصيله.

وبناءً على ما سبق فإن هذه الظواهر العلمية تعطينا دلالة واضحة على مدى عناية أمراء وخلفاء بني أمية في كل ما يتعلق بالتعليم والتدريس، فقد سهلوا لطلاب العلم والدارسين مهمة تلقي العلم، سواء أكان ذلك في المساجد المنتشرة في أنحاء الأندلس، أو في مواضع أخرى يرتادها طلاب العلم والدرس كالبيوت والمكاتب، وقد أسهمت هذه السياسة في تكوين وتوجيه الفكر الأندلسي والمحافظة على وحدته، لأنها كانت تحت نظر وسمع أمراء بني أمية، كما شاركت هذه المراكز العلمية في دعم وحدة الفكر، وأصبحت من الوسائل المساعدة في تحقيقها لأن من يقوم عليها كان من العلماء والفقهاء الذين منحت لهم الثقة من قبل السلطة الحاكمة.

---

(١) حوانيت السراجين: الحوانيت جمع حانوت وهو محل التجارة، والسراج بائع السروج وصانعها، والسَّرْجُ: رحل الدابة وجمعه سروج (ابن منظور، لسان العرب، ٢/٢٩٧، مجموعة من العلماء، المعجم الوسيط، ط٤، ص ٢٠١، القاهرة، ٢٠٠٤ م).

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص ٢٠٧ ، ابن عذاري، البيان المغرب ، ٢٤٩.

المبحث الثالث

استحداث مناصب جديدة

عُنيت الدولة الأموية منذ بداية عهدها بوحدة الأندلس الفكرية، وقام أمراء بني أمية بما يمكن القيام به لتحقيق هذه الوحدة، ولتحقيق هذا الأمر أحاط أمراء بني أمية أنفسهم بمجموعة من الفقهاء والعلماء سموهم الفقهاء المشاورين كمنصب جديد يستحدث في الدولة، وكان الهدف الأساس منه مساعدتهم في تحقيق وحدة بلادهم الفكرية، لأن هؤلاء العلماء هم أفضل من يتم الاستعانة بهم لتحقيق ذلك، وبالتالي فمنصب الفقهاء المشاورين يعتبر من أشهر المناصب التي استحدثها أمراء بني أمية في الأندلس، ويُنسب للأمير عبدالرحمن بن الحكم تأسيس هذه الجماعة[1]، فقد تكونت بدعمه وتحت نظره جماعة رسمية من الفقهاء الكبار في عصره، سميت بجماعة الفقهاء المشاورين، وكان الأمير عبدالرحمن بن الحكم هو"أول من رتب اختلاف الفقهاء إلى قصره وأمرهم بالكلام بين يديه"[2] وكان أهم هؤلاء الفقهاء وكبيرهم الفقيه يحيى بن يحيى الليثي كبير المشاوَرين في الدولة الأموية بالأندلس، فقد أصبح رجل الدولة الأول وتعددت مسمياته، فعرف باسم رئيس الفتيا أو المفتين، كما سمي شيخ المسلمين، وبدأ وكأنه الممثل الشرعي لجميع المسلمين، وصار تأييده للأمير بمثابة تأييد جميع المسلمين له، وتفويضهم لجميع ما يقوم به[3]، وغلب هذا الأخير على رأي الأمير عبدالرحمن، فصار يلتزم من تعظيمه وتكريمه وتنفيذ أموره، ما يلتزمه الولد لأبيه، فلا يعين قاضياً، ولا يعقد عقداً، ولا يمضي في الديانة أمراً إلا عن رأيه ومشورته[4].

---

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص ٢٥٣. الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس، ص ١٩٨.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٣٨٦.

(٣) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ٢٩.

(٤)ابن حيان، المقتبس، ص ١٨٠، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

ويعلق ابن حيان[1] على المكانة التي وصل إليها هذا الفقيه فيقول :"اتخذ الأمير عبدالرحمن بن الحكم من الفقيه يحيى بن يحيى الليثي مستشاراً خاصاً في أموره ونوازله، فلم يكن يولي أحداً في القضاء إلا عن رأيه ومشورته، ولا يعزل أحداً إلا بمشورته"، ويقول ابن الفرضي[2]:"لم يُعْطَ أحدٌ من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر، وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى، وسمع منه مشايخ الأندلس في وقته"، ومن أشهر الفقهاء المشاورين في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم غير يحيى، الفقيه عبد الملك بن حبيب الذي تفرد بأثرته بعد وفاة الفقيه يحيى بن يحيى، فلم يكن يقدم أحداً من أصحابه عليه، ولا يعدل بمشورته عنه أحد، حتى أنه شاوره في أكبر أموره[3]، وكثيراً ما قام الأمير عبدالرحمن بن الحكم بإفشاء أموره وهمومه إلى الفقيه عبد الملك بن حبيب، وكان يجد عنده الحل دائماً [4]، ومنهم أيضاً الفقيه سعيد بن حسان[5]، وقاسم بن هلال[6]. وبنظرة سريعة على هؤلاء الفقهاء نجد أنهم من كبار الفقهاء في وقتهم[7]، هذا التوجه الجديد من الأمير عبدالرحمن يلخص بوضوح ثقته بالفقهاء، وأنهم وحدهم المؤهلون لجمع الكلمة وتوحيد الصف، كما أنه يعطي رسالة واضحة لعامة الناس أن ما يصدر عن الأمير عبدالرحمن إنما هو بتوجيه واستشارة من فقهائهم.

وقد أدرج ابن حيّان[8] في كتابه فصلاً تحت عنوان (تسمية مشيخة الفقهاء بقرطبة

---

(١) المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص ٤١٨، ابن حيان، المقتبس، ص ١٨٣، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٤) ابن حيان، المقتبس، ص ١٩٥، ١٩٦، تحقيق محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٥) هو سعيد بن حسان مولى الأمير الحكم بن هشام، من أهل قرطبة، يكنى أبا عثمان، رحل إلى المشرق سنة ١٧٧هـ، ودرس على يد عدد من العلماء، كان مشاوراً في عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم، وتوفي سنة ٢٣٦هـ(ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٣٧).

(٦) هو قاسم بن هلال بن فرقد القيسي، يكنى أبا محمد، من أهل قرطبة، سمع من زياد بن عبدالرحمن، وغيره من أصحاب مالك بن أنس، توفي سنة ٢٣١هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٧٩).

(٧) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٣٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٧٩.

(٨) المقتبس، السفر الثالث، ص ٤٤، ٤٥.

الذين لحقوا أيام الأمير عبدالله ممن كان قد رأس على عهد الأمير محمد وابنه عبدالله بن محمد، والمنذر أخيه، وأودى جميعهم في دولته). وعَدَّدَ أكثر من خمسة عشر عالماً، ثم أتبعه بفصل آخر قال فيه: (والتالون لهم من الفقهاء المرأسين في عصره – يقصد الأمير عبدالله بن محمد – وعددهم قريب العشرة)، وختمه بقوله:"فألحق بهؤلاء المشيخة الجلة، وأرجح بكثير منهم، وصيرهم في جملة الفقهاء المشاورين في الأحكام".

ومن أبرز هؤلاء الفقهاء المشاورين الفقيه عبدالله بن يحيى بن يحيى، ومحمد بن عمر بن لبابة، ومحمد بن غالب[1]، وخالد بن وهب الصغير[2]، ومحمد بن سعيد الملون، وقاسم بن محمد، ومنهم أيضاً الفقيه بقي بن مخلد وابنه أحمد[3]، والفقيه الشافعي يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز وغيرهم[4]، فقد كان الأمير يعتمد عليهم كثيراً فيما يشكل عليه من أمور دينه ودنياه[5].

إن تعيين الأمير عبدالله لهذا العدد الكبير من الفقهاء والعلماء والمشاورين في مناصب دينية مختلفة، لا يستبعد أن يكون محاولة منه لتدارك الوضع المتردي في الأندلس في أيامه نتيجة لكثرة الثورات، وتقلص مساحة الدولة بسببها[6]، فقرر أن يعتمد على العلماء والفقهاء ويرفعهم إلى رتبة المستشارين لعل ذلك يساعد على استدرار عواطف عامة الناس فلا يركنوا لهؤلاء الثوار الذين يسعون للانفصال، ومن ثم تفتيت وحدة البلاد الدينية والسياسية.

وفي أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله كان للفقهاء المستشارين دور آخر، فقد

---

(١) هو محمد بن غالب، المعروف بابن الصفار، من أهل قرطبة، تولى الفتيا مع بعض الفقهاء في عهد الأمير عبدالله بن محمد، وتوفي سنة ٢٩٥هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٠٩).

(٢) هو خالد بن وهب الصغير التيمي مولى لهم، يكنى أبا الحسن، من أهل قرطبة، توفي في أول ولاية الأمير عبدالرحمن الناصر سنة ٣٠٢هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١١٣).

(٣) ابن حيان، المقتبس، السفر الثالث، ص ٤٣ – ٤٥.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٤٣٦.

(٥) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٦٤ ، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٥، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٥٣.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٢١/٢.

ظهرت كثير من الاتجاهات الفكرية المخالفة، وبالأخص الفكر والنفوذ الشيعي في المغرب وبات يهدد وحدة الأندلس الفكرية والسياسية أيضاً، ولذا نجد الخليفة الناصر لدين الله ينتخب جملة من كبار الفقهاء لمساعدته في مواجهة هذا الفكر الذي يهدد وحدة وكيان الدولة، فاختار الفقيه محمد بن عمر بن لبابة ليكون مستشاراً أول له، وكان هذا الفقيه قد تولى الشورى في عهد الأمير عبدالله بن محمد، ثم انفرد بالفتيا من أول أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله، فلم يشرك معه أحد في رياسة البلد والقيام بالشورى، كما أسند إليه الصلاة، وقد كان هذا الفقيه إماماً في الفقه وبصيراً بالفتيا(١).

ثم ورث الفقيه محمد بن عبدالله بن يحيى بن يحيى الليثي، والمعروف بابن أبي عيسى نفوذ ابن لبابة، فكان مقدماً ومشاوراً، وتولى قضاء العديد من مدن الأندلس، والنظر في عمالها، فكانوا لا يقدمون ولا يؤخرون إلاعن أمره(٢).

واختار الخليفة الناصر لدين الله الفقيه عبدالله بن الحسين(٣) ليكون أحد المشاورين في أمور الثغر، أهله لذلك علاقاته الواسعة،وماحظي به من مكانة كبيرة بين أمراء الثغر(٤)، كما حاز الفقيه أحمد بن مطرف المعروف بابن المشاط مكانة كبيرة عند أمراء البيت الأموي، فقد كان معظماً عندهم خصوصاً في أيام الخليفة الناصر، فقد كانوا يشاورونه فيمن يرشح ويرجعون إليه في ذلك(٥).

ومن الفقهاء المشاورين في عهد الخليفة الناصر الفقيه أحمد بن بشر المعروف بابن الأغبس، وكان هذا الفقيه يفتي على مذهب الإمام الشافعي، و لم يمنعه ذلك من ضمه إلى

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٨٣، ٣٢٠.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٧٣، ١٧٤. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢.

(٣) هو عبدالله بن الحسين، المعروف بابن السندي، يكنى أبا محمد، من أهل وشقة، عظيم الوجاهة في بلده، استقضاه الخليفة الناصر على وشقة وما والاها، وتوفي سنة ٣٣٥هـ (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص١٨٨. عياض، ترتيب المدارك، ١١٦/٢، ١١٧).

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ١١٦/٢، ١١٧.

(٥) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٢٩.

مجلس الشورى[١]، وبسبب المستوى العلمي المتميز الذي اكتسبه الفقيه قاسم بن أصبغ مال إليه الناس، وسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، كما أن الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ممن سمع منه، وكان أساتذة قاسم بن أصبغ من فقهاء الشافعية كبقي بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشني، ومحمد بن وضاح، وعينه الخليفة الناصر على منصب المشاور، فكان مشاوراً في الأحكام[٢]، ولاشك أن تولية الناصر لدين الله فقهاء مشاورين من غير المالكية دليل أكيد على حرصه على وحدة الفكر السني لمواجهة ما استجد من أفكار شاذة في عهده تهدد وحدة وكيان الدولة الفكري والسياسي.

وبنظرة سريعة على الفقهاء المشاورين في عهد الناصر لدين الله نجد أنهم قد زاد عددهم إلى أكثر من ستة عشر فقيهاً مشاوراً[٣]، وكان غالبية هؤلاء المشاورين ينتسبون للمذهب المالكي، وإذا وجد منهم من ينتسب لمذهب أخر كان لزاماً عليه أن يفتي في مجلس الشورى برأي مالك بن أنس،وما عليه بقية الفقهاء الموحودين[٤]، ومن لا يفتي بمذهب مالك فإنه يمنع من حضور المجلس ويضطر لترك المجلس ولزوم بيته، وحدث هذا أثناء حضور الفقيه الشافعي حسن بن سعد بن إدريس جلسات مجلس الشورى، فقد رأى أن الفتيا دائرة على مذهب المالكيين، فترك شهود الشورى ولزم بيته، اعتراضاً منه على ذلك[٥]، وهنا يبرز دور حكام بني أمية في تكوين الوحدة الفكرية وترسيخها بين عامة الفقهاء من مختلف المذاهب وذلك باقتصارها على مذهب واحد هو المذهب المالكي، مما يؤدي إلى انعكاس ذلك بشكل كبير على المجتمع الأندلسي وتوحيد صفه، كما أن هذا التوجه من الخليفة يخفي في طياته الرغبة في جمع المذاهب السنية تحت راية المذهب المالكي تعميقاً للوحدة الفكرية المنشودة.

وقد أسند الخليفة عبدالرحمن الناصر مهمة اختيار الفقهاء المشاورين لابنه وولي عهده

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٣٧.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٩٧، ٩٨.

(٤) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٢٨٢.

(٥) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص٩٧.

الحكم المستنصر، فأشار على والده بعدد من الفقهاء ليتولوا منصب المشاور، منهم الفقيه المشهور إسحاق بن إبراهيم بن مسرة، ولا بد أن يكون هؤلاء الفقهاء من مختلف المذاهب السنية، وإن كانت الكفة ترجح دائماً لصالح المذهب المالكي لأنه مذهب الدولة وهو الذي عليه العمل(١).

وفي أيام الخليفة الحكم المستنصر الذي سار على نهج والده في دعم وحدة البلاد الفكرية، فبرز في أيامه العديد من الفقهاء المشاورين في مقدمتهم الفقيه أحمد الاشبيلي المعروف بابن المكوي، والذي انتهت إليه رئاسة العلم بالأندلس، وأصبح بمثابة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي في زمانه، وكان في بداية أمره تاجراً في سوق البزازين لا يفارق أثناء بيعه المطالعة، ولما اشتهر بين الناس علمه واحتاجوا إلى فتواه قلده الحكم المستنصر الشورى(٢)، واعتلى على جميع الفقهاء، ونفذت الأحكام برأيه، وبعُد صيته بالأندلس، وكان لا يداهن السلطان، ويصدع بالحق، وقد عظم قدره حتى صار مرجعاً لجميع قضاة وحكام الأندلس فيما اختلفوا فيه، ودارت عليه الفتيا بالأندلس حتى وفاته(٣).

وفي أيام الحاجب المنصور ابن أبي عامر انتهج نهج أمراء بني أمية في محاولة توحيد البلد فكرياً والقضاء على كل ما من شأنه تفتيت الوحدة الفكرية التي سعى لها أمراء وخلفاء البيت الأموي، فقرّب القاضي أحمد بن ذكوان(٤)، ونال مكانة كبيرة عنده، فقد كان يفاوضه في تدبير الملك وسائر شأنه، ولم يتخلف عنه في أي غزوة من غزواته، ولم يقطع أمراً دونه إلى أن مات، وكان هو المستشار الأول له(٥)،كما أن الفقيه محمد بن عبدالله العطار(٦) من الفقهاء الذين شاورهم الحاجب المنصور، وكان معدوداً من أصحاب

---

(١) عياض، ترتيب المدارك، ص ٩٧/٢، ٩٨.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٢٣٧/٢.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ٢٣٧/٢، ٢٣٨.

(٤) هو أحمد بن عبدالله بن هرثمة بن ذكوان الأموي، يكنى أبا العباس، تولى قضاء الجماعة في عهد هشام المؤيد بأمر من أبي عامر سنة ٣٩٢هـ، وكان على خطة الرد قبل ذلك، توفي سنة ٤١٣هـ(ابن بشكوال، الصلة، ٣٠/١، ٣١).

(٥) ابن بشكوال، الصلة، ٣٠/١، ٣١. النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٢، ١١٣.

(٦) هو محمد بن عبدالله بن هاني العطار، يكنى أبا عبدالله، من أهل قرطبة، ويعرف بابن اللباد، من جلة الفقهاء =

الشورى في عهده[١].

وبرز الفقيه أبو محمد الأصيلي في أيام الحاجب بن أبي عامر، وانتهت إليه الرئاسة خصوصاً بعد وفاة ابن زرب، واستشاره ابن أبي عامر في عدة أمور وكان يأخذ بفتواه، وأصبح هذا الفقيه أحد المقربين من الحاجب بن أبي عامر، وكان على غاية التعظيم له، وعهد إليه بأعمال كثيرة [٢].

وفي الفترة التي سبقت سقوط حكم بني أمية لم ينقطع الأمويون عن استشارة الفقهاء وأهل العلم، فقد كان الفقيه عبدالله بن محمد بن إسحاق بن السليم[٣] وهو ابن القاضي المعروف أبو بكر بن السليم، أحد المشاورين في عهد الأمير سليمان بن الحكم[٤]، كما كان الفقيه محمد بن حفص بن أشعث [٥] في عداد الفقهاء المشاورين، والمشرفين باسم الوزارة في مدة الفتنة[٦].

يقول إحسان عباس[٧]:"لقد وجد في الأندلس نظام شوري، وروح شورية، وإن لم يبلغ ذلك النظام وتلك الروح ما تطمح إليه أخيلتنا اليوم حين تتمثل الشورى لنا بأبعادها جميعاً، ومع ذلك فقد غرس الأمويون في الأندلس مالم يتحقق لدى غيرهم منذ البداية".

وهكذا كان لمنصب المشاور دور كبير في وحدة الصف الأندلس أيام بني أمية وجمع

=

بقرطبة، سمع من المالكي قاسم بن أصبغ وكان من المقدمين في العلم والأدب، له كتاب كبير في الشروط(ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٦٣، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٧١).

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٧١.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ٢/٢٤١ – ٢٤٤.

(٣) هو عبدالله بن القاضي محمد بن إسحاق بن السليم المالكي المعروف، يكنى أبا الوليد، من أهل قرطبة، توفي سنة ٤٠٢هـ (ابن بشكوال، الصلة، ١/٢٢٢).

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ١/٢٢٢.

(٥) هو محمد بن حفص بن أشعث، يعرف بابن الأريخة، ويكنى أبا عامر، من أهل قرطبة، توفي سنة ٤٢٩هـ(عياض، ترتيب المدارك، ٢/٣٠٢، ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ١/٢٦٢).

(٦) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ١/٢٦٢.

(٧) الشورى في الأندلس والمغرب، من كتاب الشورى في الإسلام، ١/٣٥٣.

الكلمة، والتقريب بين الراعي والرعية، ولا شك في أن الهدف الأساسي من هذا المنصب هو إحاطة البيت الأموي بسياج من أهل الدين والعلم والورع، والمكانة عند الناس، فيكون ذلك ضماناً لشرعية الحكم، ووسيلة مساعدة للوحدة الفكرية للأندلس للوقوف في وجه الأفكار التي غزت العالم الإسلامي على اختلاف توجهاتها وانتماءاتها.

* * * * *

لقد قامت الدولة الأموية بالعديد من الوسائل المساعدة في تحقيق وحدة الأندلس الفكرية، فاهتم أمراء بني أمية باللغة العربية كوسيلة مهمة لتوحيد البلاد لغويا ومن ثم توحيدها فكرياً، وإزاء هذا الاهتمام انتشرت اللغة العربية بين أهل الذمة من غير العرب، وأصبحت جزءاً من حياتهم، ولم يمض وقت طويل من عمر الدولة حتى تعربت الأندلس بالكامل، وأصبحت العربية هي السمة البارزة، وكاد العنصر غير العربي يتلاشى داخل العنصر العربي، كما أُلزمت المعاهد النصرانية واليهودية بجعل العربية هي لغة التدريس لديهم، فاضطر رجال الكنيسة لترجمة صلواتهم إلى اللغة العربية حتى يفهمها النصارى المستعربين، وبدأ النصارى بالإقبال على العربية وترك لغتهم اللاتينية، وتسموا أيضاً بالأسماء العربية تأكيداً على تفضيلهم اللغة العربية، وبرز مجموعة منهم في بلاط أمراء بني أمية ككتاب وأدباء، كما برز بعض اليهود في اللغة العربية وتأثروا تأثراً كبيراً بالثقافة العربية، وفي ظل هذه الرعاية من قبل أمراء وخلفاء بني أمية، أقبل غير العرب على تعلم اللغة العربية، ووفد كثير من الأدباء والعلماء غير المسلمين إلى الأندلس للنهل من معين العربية، وقد أثمر كل هذا في دخول كثير منهم للإسلام، ومن بقي على دينه فإنه لا يعدم من انتمائه لمن يتحدث لغتهم، ويدرس ثقافتهم .

وفي ظل الرعاية العلمية من بني أمية اهتموا بالمعلمين والمؤدبين، وكتب العلم والتواليف، والورق والوراقين، وسمح حكام بني أمية لطلاب العلم بالرحلة لمختلف البلدان للاستزادة من العلم، وحينما رجعوا تم الترحيب بهم ورفعهم إلى أعلى المناصب، ونالوا المكانة والرفعة في الدولة، كما تم إرسال عدد منهم إلى المشرق لجلب كتب العلم من هناك، وأنفقوا الأموال الطائلة على ذلك، ويمثل المؤدبون شريحة كبيرة من أهل العلم، وبدعم من أمراء بني أمية قاموا بدور كبير في مسيرة العملية التعليمية في الأندلس، وبرز

كثير منهم في هذه المهنة ولمعت أسماؤهم، وكان منهم من عرف بجودة التأديب والتدريس، فأقبل الأكابر والخاصة عليهم لتعليم أولادهم، كما أن إجادة المؤدب في عمله ترفعه وأسرته لأعلى المناصب في الدولة، وقد شكل المؤدبون الأوائل نواة التعليم في الأندلس، وكان لاهتمام الحكام بهم دور كبير في إقبال الناس على العلم والدرس حتى اشتهرت الأندلس بذلك، وكان المسجد هو المدرسة الأولى التي قام عليها التعليم في الأندلس، ويمثل جامع قرطبة والزهراء أهم جامعتين خرجتا الكثير من أهل العلم وطلابه في الأندلس، وكان دور حكام بني أمية كبير في زيادة نشاط حلقات الدرس والتعليم في هذه الجوامع، بدليل جلبهم العلماء ومنحهم مساكن بجانب هذه الجوامع حتى يسهل عليهم إلقاء دروسهم فيها، وكانت هذه الجوامع مكاناً لدراسة مختلف العلوم، إلا الفلسفة والتنجيم لأنها كانت محل شك وريبة لذا تم منعها تحقيقاً للوحدة الفكرية، وفي عهد الخليفة المستنصر زادت المكاتب أو الكتاتيب وبلغت سبعاً وعشرين مكتباً، أوقفها الحكم المستنصر لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين حتى يشمل التعليم جميع طبقات المجتمع ولا يقتصر على أهل المال والغنى، وأصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها في بيوتهم.

وفي سبيل دعم وحدة الفكر الإسلامي في الأندلس استحدث أمراء بني أمية منصب الفقهاء المشاورين، وكان للأمير عبد الرحمن بن الحكم دور كبير في استحداث هذا المنصب، ويتم اختيارهم في الغالب من بين فقهاء المالكية نظراً لكثرتهم واعتماد الدولة عليهم وعلى مذهبهم في كثير من أمورها، إلا أنه وجد من بين هؤلاء من ينتمي لغير المالكية، لكن كان عليهم أن لا يفتوا بغير المذهب المالكي تأكيداً لوحدة الفتوى، مما يندرج تبعاً لها وحدة الفكر بشكل عام في الأندلس، وقد كان لمنصب المشاور دور كبير في وحدة الصف الأندلسي أيام بني أمية، وجمع الكلمة والتقريب بين الراعي والرعية، ولا شك أن الهدف الأساسي من هذا المنصب هو إحاطة البيت الأموي بسياج من أهل الدين والعلم والورع والمكانة عند الناس، فيكون ذلك ضماناً لشرعية الحكم، ووسيلة مساعدة للوحدة الفكرية للأندلس، للوقوف في وجه الأفكار التي غزت العالم الإسلامي في تلك الفترة على اختلاف توجهاتها وانتماءاتها.

الخـــاتـــمـة

الخاتمة

في نهاية هذا البحث تم التوصل إلى عديد النتائج أهمها:

- تعتبر الأسرة الأموية أشهر أسرة حكمت بلاد الأندلس، واستطاعت أن تجمع شتات هذا الصقع البعيد، وتمكنت من رسم منهج سار عليه جميع أمراء وخلفاء بني أمية بإحياء مفهوم الدولة فوق كل العصبيات والتحزبات، وكان لهم الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في القيام بجهود كبيرةٍ ومتعددةٍ في جميع المجالات ومن أهمها تحقيق الوحدة الفكرية في عموم الأندلس.
- رحب الأمويون بمذهب مالك واعتمدوه كمذهب رسمي للدولة وتجاهلوا ما سواه من المذاهب الأخرى، كمحاولة منهم لتوحيد الجبهة المذهبية ولإفراز وحدة مذهبية تعتمد على الفتوى الواحدة المستقاة من فقهاء معروفي العلم والتوجه.
- استقبل أمراء بني أمية العلماء القادمين من المشرق ممن رحل لطلب العلم على يد إمام أهل المدينة مالك بن أنس، ثم تم التمكين لهؤلاء العلماء من نشر علمهم بين الناس.
- حاز فقهاء المالكية ثقة أمراء بني أمية فشاوروهم واستعانوا بهم في مهمات كثيرة، وتقبلوا منهم النصائح والتوجيهات الدينية.
- قام فقهاء المالكية بدورهم المرجو منهم في حث الناس على السمع والطاعة للأمراء وكانت مجالس العلم من الأماكن التي يرفع فيها الدعاء للحاكم بالتسديد وحسن التدبير والتوفيق.
- انتقل المذهب المالكي في أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم إلى دور كبير ورائد، عندما سلم هذا الأمير جميع الشؤون الدينية لفقهاء المالكية، وأصبح الفقيه يحيى بن يحيى هو المستشار الأول للأمير، فلم يخرج الأمير عن رأيه وتوجيهه.
- نظراً لاهتمام أمراء بني أمية بالمذهب المالكي زادت أعداد من ينتمون لهذا المذهب من طلاب العلم، ووصلت إلى أرقام كبيرة في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر.

- بلغ الخليفة الحكم المستنصر مبلغاً كبيراً في تأييد مذهب الإمام مالك ودعمه والالتزام به، من خلال استقبال فقهاء المالكية من جميع الأقطار ثم تقريبهم منه ووصلهم، ومن خلال أحاديثه التي ركز فيها على وجوب التمسك بمذهب مالك والتهديد بمعاقبة كل من يخالفه بالفتوى.
- نظراً لإدراك الدولة الأموية أهمية السند الشرعي في استمرار وجودهم وقوتهم اعتمدت على الفقهاء والعلماء خصوصاً المالكية منهم في المناصب الرسمية، بقسميها الدينية والإدارية، كالقضاة والمظالم وولاية السوق وأئمة المساجد والإفتاء، والشرطة والوزارة والولايات المختلفة، ولاشك أن تولية فقهاء وعلماء المالكية هذا الكم الهائل من الخطط سواءً الدينية أو الإدارية يؤدي إلى تعميق حضورهم في المجتمع، كما يؤدي إلى تأصيل الاتجاه الواحد في الفكر مما يعزز من وحدة الأندلس الفكرية.
- نجح فقهاء المالكية في مهامهم التي أسندت إليهم وحازوا ثقة أمراء البيت الأموي وعامة الناس بدليل استمرار الاعتماد عليهم وحب الناس لهم، وكان من ثمار ذلك تعزيز التفاعل السياسي والاجتماعي بين أمراء البيت الأموي وعامة الناس تحت رعاية هؤلاء الفقهاء.
- نتيجة للعلاقة المتينة التي ربطت علماء الأندلس وفقهاءهم بعامة الناس، زاد احترام السلطة الحاكمة لهم واستعانوا بهم لتوجيه الرأي العام نحو المحافظة على وحدة الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم.
- لعب أمراء بني أمية دوراً كبيراً في المحافظة على التعدد المذهبي السني في الأندلس رغم تفضيلهم للمذهب المالكي، وأظهر الأمويون انفتاحاً كبيراً نحو فقهاء المذاهب الأخرى، واستعانوا بهم في مناصب كثيرة دينيةٍ وإداريةٍ.
- بلغ الخليفة الحكم المستنصر مبلغاً كبيراً في استقدام العلماء من مختلف الأقطار، ولم يقتصر استقطابه لفقهاء المالكية فقط رغم تمسكه الشديد بالمذهب المالكي، فقد استقطب عدداً من فقهاء الشافعية وقربهم ووصلهم وأدنى منزلتهم، واستفادت الدولة الأموية منهم في مجال محاربة الأفكار الدخيلة على المجتمع.

- شاركت المذاهب السنية الموجودة في الأندلس بدعم وتوجيه من أمراء بني أمية في الوقوف في وجه الأفكار المخالفة والانفصالية، وكثيراً ما خرج الفقهاء لتسكين الثورات ورد المخالفين، كما وقفوا في وجه كل من يحاول أن ينشر فكراً مخالفاً، ورافق الفقهاء والعلماء أمراء بني أمية في غزواتهم الداخلية والخارجية.

- أدى التعايش المذهبي السني داخل الأندلس إلى توحيد الجهود لتوجيه المجتمع الأندلسي للعقيد الصحيحة، ونبذ الأفكار المخالفة وكان ذلك عاملاً أساسياً في عزوف المجتمع الأندلسي عن ارتكاب أي فعل مخالف ينطوي على مخالفة للعقيدة الإسلامية ومبادئها، وقلة أتباع من يدعو للمذاهب الباطلة والهدامة.

- أسهمت الوحدة المذهبية في الأندلس المتمثلة بدعم السلطة الحاكمة للمذهب السني على تبوئ الفقهاء مكانة متميزة في المجتمع، ولم تنزلق الأندلس في الصراع المذهبي كبقية بلدان العالم الإسلامي حولها، ساعد في ذلك ما حظي به الفقهاء من مكانة مرموقة ورئاسية من قبل المجتمع والسلطة الحاكمة.

- أظهر أمراء بني أمية مزيداً من الاحترام للفقهاء والعلماء وقربوهم وأخذوا برأيهم ودعموهم على اختلاف توجهاتهم المذهبية، فحظي هؤلاء بالقبول من عامة الناس لكل ما يصدر عنهم من توجيهات وملاحظات، جعلت الفقهاء والعلماء المحور الأساسي لتوجيه الرأي العام نحو وحدة الصف، والوقوف مع السلطة الحاكمة صفاً واحداً في مواجهة سيل الفتن التي كانت تعصف في كثير من بلدان العالم الإسلامي في تلك الفترة.

- حافظ الأمويون طوال فترة حكمهم للأندلس على الاتجاه السني لدولتهم، ووقفوا موقفاً صارماً تجاه أي فكر مخالف وفي مقدمتها الاتجاه والفكر الشيعي، فقد واجه الأمويون هذا الفكر بقوة وشدة وقاوموا محاولة تغلغله بشتى الطرق، فصدرت الفتاوى بتحريم هذا المذهب وتجريمه من قبل كبار فقهاء الأندلس، وأمر أمراء بني أمية بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة، وقراءة الكتب التي كانت ترسل بالانتصارات عليهم في المغرب من فوق منابر الجمعة.

- بدأ الاتجاه الشيعي في الأندلس ضعيفاً جداً، ولم يستطع أن يكون لنفسه موطئ

قدم فيها، ويعود السبب في ذلك إلى الصرامة والقوة التي تعامل بها بنو أمية مع هذا التوجه، فقد تم القضاء على جميع الثورات ذات التوجه الشيعي والعلوي داخل الأندلس، وكان من ثمار ذلك ضعف التوجه الشيعي في الأندلس وانعدام أفكاره، وقلة فرص نشر مذهبهم بين عوام الناس، فقد كان الطرد أو الاعتقال نصيب كل من يشك في ولائه أو انتمائه لهذا المذهب.

- أقدم الأمير عبدالرحمن الناصر على إعلان نفسه خليفة للمسلمين وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، رداً على إعلان الخلافة الشيعية العبيدية بالمغرب بقيادة عبيد الله المهدي العبيدي، وكان من ثمار ذلك وفود أهل المغرب التي قدمت إلى الأندلس مبايعة له بالخلافة، وتمكن الناصر لدين الله ومن بعده ابنه الحكم المستنصر من احتذاب أمراء الأدارسة لصفهم ضد الشيعة العبيديين بالترغيب أو الترهيب.

- نشط الخليفة الناصر لدين الله في الدعوة للمذهب السني في بلاد المغرب لقطع الطريق على الدعاية الشيعية العبيدية، وتواصل هو وابنه الحكم المستنصر مع العلماء والقادة المناهضين للدولة العبيدية في أنحاء العالم الإسلامي، واستقدموا كثيراً من العلماء الذين وقفوا بقوة ضد الدعوة الشيعية العبيدية، حتى أصبحت الأندلس في أيامهم مأوى ومقصد علماء السنة للهروب من بطش وتسلط الشيعة، كما نجحوا في احتذاب كثير من قادة بلاد المغرب لصفهم ضد الشيعة، والترحيب بهم ومدهم بالأموال والسلاح والرجال للوقوف في وجه المخططات الشيعية في بلاد المغرب.

- أقدم الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر على التحالف مع قبائل المغرب ضد الدعوة الشيعية، وكانت قبائل البربر كزناته بزعامة محمد بن خزر ومكناسة بزعامة موسى بن أبي العافية خير معين لبني أمية ضد أطماع الشيعة العبيديين، وانتهج الخليفة الحكم المستنصر سياسة العطايا الجزيلة لجذب أمراء البربر لصفه، فأقبلت وفود البربر من مختلف جهات المغرب معلنةً الطاعة ونابذةً الدعوة العبيدية.

- أبرم الخليفة الناصر لدين الله عدة تحالفات مع بعض ملوك الدول المجاورة المعادية للعبيديين، أشهرهم ملك إيطاليا هوج دي بروفانس، وقسطنطين السابع إمبراطور البيزنطيين.

- نتيجة للأعمال التي قام بها أمراء بني أمية على جميع الأصعدة تمكنوا من إبعاد الخطر الشيعي عن الأندلس وبلاد المغرب، واحتفظ هذان الإقليمان بالمذهب السني وهو ما دفع العبيديين الشيعة للتعجيل بالرحيل إلى مصر وترك المغرب للأمويين.

- نشط أمراء بني أمية في مواجهه الفكر المعتزلي واسندوا المهمة لفقهاء المالكية للمساعدة بإصدار الفتاوى ضده، وساهمت هذه الفتاوى في ضعف الإقبال على هذا الاتجاه والضغط على من يتبناه.

- انتهج حكام وعلماء الأندلس أسلوباً ومساراً ثابتاً في مقاومة المعتزلة، يبدأ بتوجيه التهمة أولاً لهم، ثم هجرهم وعدم مجالستهم والاستماع إليهم، ثم التحذير منهم ورفع أمرهم إلى السلطان، وينتهي ذلك بحرق كتبهم وقتلهم إذا لزم الأمر وتهيأت الظروف لذلك.

- ظل الاشتغال بكتب الفلسفة ضعيفاً أو يكاد يكون معدوماً، نظراً لقوة التيار المالكي المؤيد من الأمير عبدالرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد بن عبدالرحمن، وأول ظهور للفكر الفلسفي بشكل واضح كان على يد محمد بن مسرة الذي اشتهر بآرائه الفلسفية وألف بعض الكتب التي وضح من خلالها فكره الفلسفي، وكان ينتهج التخفي في الترويج لفكره واقتصر على المقربين منه، ولم يصل فكره لعامة الناس إلا بعد وفاته بعشرين سنة.

- أصدر الخليفة الناصر لدين الله أمراً بتتبع من ينتحل مذهب ابن مسرة بعد فشوه، وإخافتهم والقبض عليهم واستتابتهم، وكتب كتاباً إلى جميع عماله بالأندلس بذلك.

- واستمرت الحالة بالتعبئة ضد فكر ابن مسرة الفلسفي بعد الناصر لدين الله، واشتهر القاضي ابن زرب بتتبع أتباع ابن مسرة واستتابتهم وإحراق كتبهم

أمامهم وأمام عامة الناس.

- تنشطت حركة التأليف للرد على فكر ابن مسرة خصوصاً من قبل كبار فقهاء المالكية والشافعية، وإكمالاً لهذه الجهود قام الحاجب المنصور بن أبي عامر بإحراق الكتب التي كانت في خزائن الخليفة الحكم المستنصر والتي كان فيها شيء من الفلسفة والجدل بحضور كبار العلماء في وقته.

- تسلل الفكر الخارجي إلى الأندلس عن طريق المغرب التي كانت تموج بعدد من الحركات ودول الخوارج، وأظهر فقهاء المالكية موقفاً متشدداً من هذا الفكر وصدرت الفتاوى بالحكم بالردة على كل من ينتحل نحلة الخوارج، واستتابتهم فإن تابوا منها وإلا قتلوا، بل إن بعض الفقهاء كان يفتي بقتلهم دون استتابة، هذه الفتاوى ساعدت حكام بني أمية في التصدي لجميع ثورات الخوارج والقضاء عليها في مهدها داخل الأندلس، وامتدت همتهم للقضاء على حركات الخوارج خارج حدود الأندلس أيضاً.

- نتيجة لإدراك أمراء بني أمية خطورة انتشار الفساد وظهور الإلحاد والزندقة في المجتمع وما يسببه من تهديد لوحدة الدولة الدينية والفكرية، حرصوا على وقاية النظام السياسي والاجتماعي في الدولة ومحاسبة كل من ينتهج هذا النهج، وتخليص الدولة من شروره وأفكاره، فتم في أيامهم هدم دور الفساد وأتيح لعامة الناس المشاركة في ذلك تأكيداً على موقف الدولة المتشدد من هذه الأعمال، كما تم قتل وصلب بعض المفسدين، وأجريت عدة محاكمات لمن يظهر لديه توجهات وأفكار إلحادية (زندقة).

- وكانت مشاركة العلماء في إصدار الأحكام ضد أهل الإلحاد والزندقة بإيعاز من أمراء بني أمية تأكيداً على موقف الدولة الرافض لهذه التوجهات.

- نجحت جهود حكام بني أمية في الأندلس في درء الخطر النصراني عن بلادهم، والمحافظة على وحدتها السياسية والفكرية، ونظراً لاعتناق المتمرد ابن حفصون الديانة النصرانية علانية استغلت الدولة الأموية ذلك بإعلان الجهاد ضده، وجعلت جهاده فرضاً على مسلمي الأندلس، وحشد أمراء بني أمية ضده جميع

إمكاناتهم، وشارك الفقهاء والعلماء في الجهاد ضده.

- كان للتسامح الذي أبداه المسلمين لنصارى الأندلس أثرٌ كبير في إقبال النصارى على الإسلام وعلى اللغة والآداب العربية، فثارت ثائرة المتعصبين منهم، ولم يجدوا حلاً لوقف هذا التوجه من قبل المعتدلين منهم إلا انتهاج حركة جديدة أطلقوا عليها مسمى الاستشهاد، وتقوم هذه الحركة على الموت في سبيل سب الدين الإسلامي والمعتقدات الإسلامية ورسول المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم، والتي يعاقب عليها الإسلام بالقتل.
- حاول أمراء بني أمية إيقاف ما يسمى بحركة الاستشهاد، فتم عقد مؤتمر حضره كبار النصارى وأدان هذا المؤتمر هذه الحركة من المتعصبين ودعى لوقفها، إلا أن هذه الحركة استمرت، مما دفع القضاة لإصدار أحكامهم بإعدام كل من ينتهج هذا النهج، وتم تتبع المحرضين من كبار قساوسة النصارى والحكم عليهم بالقتل، مما خفف من حدة هذه الحركة ثم تلاشيها شيئاً فشيئاً حتى انتهت.
- وإن كان ما يسمى بحركة الاستشهاد قد اتخذت شكلاً دينياً تمثل في محاولة وقف اعتناق النصارى للإسلام، وصرفهم عن اللغة والآداب العربية، إلا أنها كانت ذات أبعاد سياسية تتعلق بمسألة الوجود الإسلامي في الأندلس على أنقاض النصرانية، ومحاولة خلق الفوضى لزعزعة الاستقرار الداخلي، ومحاولة لفت انتباه الممالك النصرانية المتربصة في شمال الأندلس، وهذا ما تنبه له أمراء بني أمية فعملوا على وقفها والقضاء عليها .
- نجح الأمويون عن طريق السياسات التي طبقوها تجاه أمراء الثغور وأسرهم من المولدين والعرب في دفع هؤلاء إلى تقديم خدمات جليلة للدولة الأموية، تتمثل في حفظ تلك المناطق النائية من الوقوع في قبضة إسبانيا النصرانية، وفي بناء الكثير من الحصون لحمايتها، ورد هجمات نصارى الشمال على الثغور الإسلامية .
- اعتمدت الدولة الأموية اللغة العربية لغة للتدريس في معاهد النصارى واليهود، فاضطر رجال الكنيسة لترجمة صلواتهم إلى اللغة العربية حتى يفهمها النصارى، وبدأ النصارى بالإقبال على العربية وترك لغتهم اللاتينية، وتسموا أيضاً بالأسماء

العربية تأكيداً على تفضيلهم اللغة العربية.

- في ظل الرعاية من قبل أمراء وخلفاء بني أمية لمتعلمي اللغة العربية، أقبل غير العرب على تعلم اللغة العربية، ووفد كثير من الأدباء والعلماء غير المسلمين إلى الأندلس للنهل من معين العربية، وقد أثمر كل هذا في دخول كثير منهم للإسلام، ومن بقي على دينه فإنه لا يعدم من انتمائه لمن يتحدث لغتهم ويدرس ثقافتهم.
- اهتمام أمراء بني أمية بالمعلمين والمؤدبين، وكتب العلم والتواليف، والورق والوراقين، وسمح حكام بني أمية لطلاب العلم بالرحلة لمختلف البلدان للاستزادة من العلم، وحينما رجعوا رحبوا بهم ورفعوهم إلى أعلى المناصب ونالوا المكانة والرفعة في الدولة، كما تم إرسال عدد منهم إلى المشرق لجلب كتب العلم من هناك، وأنفقوا الأموال الطائلة على ذلك.
- شكل المؤدبون الأوائل نواة التعليم في الأندلس، وكان لاهتمام الحكام بهم دور كبير في إقبال الناس على العلم والدرس حتى اشتهرت الأندلس بذلك، وكان المسجد هو المدرسة الأولى التي قام عليها التعليم في الأندلس، ويمثل جامع قرطبة والزهراء أهم جامعتين خرجتا كثيراً من أهل العلم وطلابه في الأندلس، وكان دور حكام بني أمية كبير في زيادة نشاط حلقات الدرس والتعليم في هذه الجوامع بدليل جلبهم العلماء ومنحهم مساكن بجانب هذه الجوامع حتى يسهل عليهم إلقاء دروسهم فيها، وكانت هذه الجوامع مكاناً لدراسة مختلف العلوم إلا الفلسفة والتنجيم لأنها كانت محل شك وريبة لذا تم منعها تحقيقاً للوحدة الفكرية.
- في عهد الخليفة المستنصر زادت المكاتب أو الكتاتيب وبلغت سبعاً وعشرين مكتباً أوقفها الحكم المستنصر لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين حتى يشمل التعليم جميع طبقات المجتمع ولا يقتصر على أهل المال والغنى وأصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها في بيوتهم.
- في سبيل دعم وحد الفكر الإسلامي في الأندلس استحدث أمراء بني أمية منصب الفقهاء المشاورين، وكان للأمير عبدالرحمن بن الحكم دور كبير في استحداث هذا المنصب، ويتم اختيارهم في الغالب من بين فقهاء المالكية نظراً لكثرتهم

واعتماد الدولة عليهم وعلى مذهبهم في كثير من أمورها.

- وجد من بين الفقاء المشاورين من ينتمي لغير المالكية، لكن كان عليهم أن لا يفتوا بغير المذهب المالكي تأكيداً لوحدة الفتوى، مما يندرج تبعاً لها وحدة الفكر بشكل عام في الأندلس.

- من أشهر الفقهاء المشاورين والذي ذاع صيته في الأندلس الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، والذي كان المستشار الأوحد في أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم، فلا يرى رأياً إلا تم إنفاذه وتحقيقه رغم وجود فقهاء مشاورين غيره،

- كان لمنصب المشاور دور كبير في وحدة الصف الأندلسي أيام بني أمية وجمع الكلمة والتقريب بين الراعي والرعية، ولا شك أن الهدف الأساسي من هذا المنصب هو إحاطة البيت الأموي بسياج من أهل الدين والعلم والورع والمكانة عند الناس، فيكون ذلك ضماناً لشرعية الحكم ووسيلة مساعدة للوحدة الفكرية للأندلس، للوقوف في وجه الأفكار التي غزت العالم الإسلامي على اختلاف توجهاتها وانتماءاتها.

الملاحق

ملحق رقم (١) قائمة بأمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس

العدد	أمراء بني أمية	فترة حكمه بالهجري	فترة حكمه بالميلادي
١	عبدالرحمن بن معاوية (الداخل)	١٣٨ — ١٧٢ هـ	٧٥٦ — ٧٨٨ م
٢	هشام بن عبدالرحمن (الرضي)	١٧٢ — ١٨٠ هـ	٧٨٨ — ٧٩٦ م
٣	الحكم بن هشام (الربضي)	١٨٠ — ٢٠٦ هـ	٧٩٦ — ٨٢٢ م
٤	عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط)	٢٠٦ — ٢٣٨ هـ	٨٢٢ — ٨٥٢ م
٥	محمد بن عبدالرحمن بن الحكم	٢٣٨ — ٢٧٣ هـ	٨٥٢ — ٨٨٦ م
٦	المنذر بن محمد بن عبدالرحمن	٢٧٣ — ٢٧٥ هـ	٨٨٦ — ٨٨٨ م
٧	عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن	٣٧٥ — ٣٠٠ هـ	٨٨٨ — ٩١٢ م
٨	عبدالرحمن بن محمد (الناصر)	٣٠٠ — ٣٥٠ هـ	٩١٢ — ٩٦١ م
٩	الحكم بن عبدالرحمن (المستنصر)	٣٥٠ — ٣٦٦ هـ	٩٦١ — ٩٧٦ م
١٠	هشام بن الحكم (المؤيد بالله) (١)	٣٦٦ — ٣٩٩ هـ	٩٧٦ — ١٠٠٨م
١١	محمد بن هشام (المهدي)	٣٩٩ — ٤٠٠ هـ	١٠٠٨ — ١٠٠٩م
١٢	سليمان بن الحكم (المستعين)	٤٠٠ — ٤٠١ هـ	١٠٠٩ — ١٠١٠م

دخلت الدولة بعد ذلك في حالة من الفوضى والتنازع على الحكم وخرج الحكم من بني أمية حتى عاد في عام ٤١٤هـ على يد عبدالرحمن بن هشام المستظهر

١٣	عبدالرحمن بن هشام (المستظهر)	٤١٤ — ٤١٤ هـ	١٠٢٢ — ١٠٢٣م
١٤	محمد بن عبدالرحمن (المستكفي)	٤١٤ — ٤١٦ هـ	١٠٢٣ — ١٠٢٤م
١٥	هشام بن محمد (المعتد)	٤١٨ — ٤٢٢ هـ	١٠٢٧ — ١٠٣١م

ملحق رقم (٢)

عزل القاضي محمد بن زياد اللخمي لموقفه الرافض لقتل الملحد ابن أخت عجب

"وَكَانَ السَّبَب فِي عَزله عَن الْقَضَاء مَا كَانَ من أمر ابْن أخي عجب حظية الْأَمِير الحكم ، وَذَلِكَ أَنه شهد عَلَيْهِ بِلَفْظ نطق بِهِ عابثاً فِي يَوْم غيث ، فَأمر الْأَمِير عبد الرَّحْمَن بحبسه، وَطلب الشَّهَادَات عَلَيْهِ، وأبرمته عجب عمته فِي إِطْلَاقه؛ وَكَانَت مدلة عَلَيْهِ لمكانها من أَبِيه، فَقَالَ لَهَا: مهلا يَا أُمَّاهُ، فَلَا بُد وَالله من أَن نكشف أهل الْعلم عَمَّا يجب عَلَيْهِ فِي لَفظه ذَلِك الَّذِي شهد بِهِ عَلَيْهِ؛ ثمَّ يكون الْفَصْل بعد فِي أمره فَإنَّا معشر بني مَرْوَان لَا تأخذنا فِي الله لومة لائم ومانرى أن الله رفع ملكنا وَجمع بِهَذِهِ الجزيرة فلنا، وأَعْلَى فِيهَا ذكرنَا، حَتَّى صرنا شجى فِي حلق عدونا، إِلَّا بِإِقَامَة حُدُوده، وإعزاز دينه، وَجِهَاد عدوه، مَعَ مجانبة الْأَهْوَاء المضلة، والبدع المردية، ثمَّ تقدم الْأَمِير عبد الرَّحْمَن إِلَى مُحَمَّد بن السَّلِيم الْحَاجِب أَن يحضر القَاضِي مُحَمَّد بن زِيَاد، وَالْفُقَهَاء بِالْبَلَدِ. فَجَمعهُمْ، وَفِيهِمْ عبد الْملك ابْن حبيب، وَأصبغ بن خَلِيل، وَعبد الْأَعْلَى بن وهب، وَأَبُو زيد بن إِبْرَاهِيم، وَأَبَان ابْن عِيسَى بن دِينَار، فشاورهم فِي أمر ابْن أخي عجبوأخبرهمْ بِمَا كَانَ من لَفظه، فتوقف القاضي مُحَمَّد بن زِيَاد على القَوْل بسفك دَمه، وَتَبعهُ فِي ذَلِك من الْفُقَهَاء أَبُو زيد وَعبد الْأَعْلَى وَأَبَان، وَأفْتى بقتْله عبد الْملك بن حبيب وَأصبغ بن خَلِيل مَعًا، فَأمرهمْ مُحَمَّد ابْن سليم أَن ينصوا فتواهم على وجوهها فِي صك ليرفعها إِلَى الْأَمِير، ليرى فِيهَا رَأْيه وفعلوا ، فَلَمَّا تصفح الْأَمِير أَقْوَالهم، اسْتَحْسَنَ قَول ابْن حبيب وَأصبغ، وَرَأى مَا رَأيا من قَتله وَأمر الْفَتى حسانا؛ فَخرج إِلَيْهِم فَقَالَ لِابْنِ السَّلِيم: قد فهم الْأَمِير مَا أفتى بِهِ الْقَوْم من أمر هَذَا الفاسق وهو يَقُول لَك: أَيهَا القَاضِي إذهب فقد عزلناك وأما أَنْت يَا عبد الْأَعْلَى فقد كَانَ يحيى يشْهد عَلَيْك بالزندقة؛ وَمن كَانَت هَذِه حَاله فحرى أَلا تسمع فتواه وَأما أَنْت يَا أبان بن عِيسَى فَإنَّا أردنَا أن نوليك قَضَاء جيان فَزَعَمت أَنَّك لَا تحسن الْقَضَاء فَإِن كنت صَادِقا فَعَلَيْك أن تتعلم؛ وَإِن كنت كَاذِبًا فالكاذب لَا يكون أمينا مفتياً، ثمَّ قَالَ حسان لصاحب

الْمَدِينَة: يَأْمُرك الْأَمِير أن تخرج الْآن مَعَ هذَيْن الشخصين عبد الْملك وَأصبغ؛ فتأمر لَهما بِأَرْبَعِينَ من الغلمان ينفذون لَهما فِي هَذَا الْفَاسِق مَا رأياه، ثمَّ أخرج الْمَحْبُوس ووقفا مَعًا حَتَّى رفع فَوق خَشَبَة، وَهُوَ يَقُول لعبد الْملك: يَا أَبَا مَرْوَان اتَّقوا الله عز وجل دمي فَإِنِّي أشهد أن لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأن مُحَمَّدًا رَسُول الله وَعبد الْملك يَقُول: الْآن وَقد عصيت حَتَّى طعن وانصرفا"[١].

(١) النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

ملحق رقم (٣)

إعلان الخلافة

وكانت أول دعوة أقيمت للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على منبره المسجد الجامع بقرطبة، فقد عهد إلى صاحب الصلاة بقرطبة الفقيه القاضي أحمد بن بقي بن مخلد، بالدعاء له في خطبة الجمعة، وتلاوة بيان الخليفة في أول ذي الحجة من سنة ٣١٦هـ، فاستمرت التسمية حتى انقرضت دولتهم(١)، وجاء في خطاب إعلان الخلافة ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على نبيه الكريم أما بعد فإن أحق من أستوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه وليس من كرامة الله تعالى ما أليسه، فنحن للذي فضلنا الله به وأظهر أثرتنا فيه ورفع سلطانه إليه ويسر على أيدينا دركه وسهل بدولتنا مرامه وللذي أساد في الآفاق من ذكرنا وأعلى في البلاد من أمرنا... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك، إذا كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لايستحقه منه، وعملنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه، واسم ثابت أسقطناه فمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر في مخاطباتك لنا عليه إن شاء الله"(٢)

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤١، ٢٤٢، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٩٨.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤١، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٩٨، ١٩٩.

ملحق رقم (٤)

كتاب الناصر لدين الله إلى الآفاق بفتح ببشترمعقل عمر بن حفصون

"بسم الله الرحمن الرحيم،

الحمد لله الذي علا فقهر، وملك فقدر، وأحكم ما دبر، وأعز الإسلام، ونصر وأذل الكفر ودمر، باعث الرسل ومنزل الكتب، الذي اختص محمداً صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وشرفه بالرسالة، وجعله البشير النذير والسراج المنير، وأوضح به اليقين، ونهج به الدين، وختم به النبيين، فصلى الله عليه وسلم، وقدس وعظم وشرف وكرم، ثم اصطفى لخلافة المرتضين، أهل الإمام والأمانة، أقاموا السنن وأطفأوا الفتن، واتسق بهم نظام الدين متصلاً، ومثل عمود الإسلام معتدلاً، وقام رواقه ممتداً، واستوى ركنه مشتداً.

والحمد لله الذي جعلا لإسلام نجاة من تمسك به، ومؤدياً له إلى رحمته، وجعل الشرك به خزية لمن تقلده، وسائقاً له إلى عذابه، ومستوجباً عليه عقابه، وجعل جهاد أهله من فرائضه العظمى، وجعل للمجاهدين لهم اليد العليا، ووعدهم الزلفى في الآخرة والأولى.

ثم إنّا لم نزل مذ شرفنا الله بخلافته،واختصنا بإمامه عباده، نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، وندأب في نصر أوليائه، ولا تلفتنا عن ذلك لفتة سأمه، ولا يلهينا عن تملي دعة، حيث امتلأت الأرض كفراً، وفاضت شركاً، وتوطد النفاق، واستعجل الشقاق، وهدر كل ناعق في طود منعة، ونب كل وَغْل في رأس شاهقة، قد تأثلوا بكثرة العدد والعدة، واعتزوا بطول المهلة، وتراخي المدة، فرفلوا بين الخليفة، واتسعت بهم البسيطة، وابتعثنا الله بقدرته لنثنيهم عن الضلال، وحملهم عن الطريقة، فلم نزل نبخعهم ونتحراهم واحداً بعد واحد، ونستنزلهم عن معقل بعد معقل، ونقصد منهم جانباً بعد جانب، نؤم الأدنى بعد الأدنى، ونستقري الأقصى فالأقصى، حتى أذل الله عزتهم، وسكن ثورتهم، وأوهن كيدهم، وشتت جمعهم، وزلزل بهم وأخلى معاقلهم، وقيدوا إلى الطاعة صغرة بجرائمهم، واصطفى السيف بجرميهم وفساقهم، وأفنى القتل أنصارهم وأشياعهم، فعادت البلاد بعدهم مطمئنة ساكنة، قد أمن بها المخوف، وقوي فيها الضعيف ، وانقمع أهل

الشر والعناد، وقبضت أيدي أهل الباطل والفساد، وعلت عن كل مسترهف ومستضعف ومظلوم غير منتصف، لا نكل استصلاح جميع ذلك إلى غيرنا، ولا نرضى فيها إلا بمناظرتنا عاماً بعد عام، وصائفة أثر صائفة، حتى يسر الله بقدرته من الصلاح ما أملناه، وأدركنا منه ما رجوناه، وبلغنا منه إلى أقصى حدود ما أحببناه، بفضل عون الله لنا وتأييده لأمرنا، وحسن أقضيته في جميع أسبابنا، وإفراغه الصبر علينا، وتسهيله كل عسير عندنا، فالحمد لله المنان الكريم ذي الآلاء والفضل العظيم"(١).

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٢٦- ٢٢٨.

ملحق رقم (٥)

كتاب الناصر لدين الله بهدم ببشتر

وأنفذ الكتب بما كان منه في هدم ببشتر إلى عماله بنواحي الأندلس، فكانت نسختها:

"بسم الله الرحمن الرحيم،

أما بعد، فالحمد لله الذي قضى بالعز لمن أطاعه، وختم بالذل على من عصاه، وتولى أمر من تولاه ونصره وكفاه، وتبرأ ممن عاداه وخزله وأخزاه، الذي لا يزال يؤيد الإسلام ويسدد من قام به، ويوفق من دعا إليه ويعين من أعانه ويغلبه على من غالبه، اختياراً له وإظهاراً لفضله، وصلى الله على محمد الحافي به، والداعي إليه، والمعز بإعلائه، والمؤلف لنظامه وسلم تسليماً.

وإنا لما أعظم صنع الله تعالى عندنا، وحسن بلاؤه لدينا، وعرفنا النصر والظفر في كل ما تولينا، وأعز ولينا، وأذل عدونا، ومكن سلطاننا، وشرف أيامنا، وأوطأنا ديار المشركين، وملكنا معاقلهم، وأحلنا منازلهم، فتبوؤوا منها حيث نشاء، حتى استتم لنا بذلك بالقاعدة العظمة، والمنزلة العليا، والغاية القصوى ببشتر مدينة المجرمين التي أعزت الماضين، وأتعبت الباقين، وجعلت عبرة للعالمين، وأعجوبة للناظرين، قصدنا إليها لنسر بها وننتظر فيها، ونعظم قدر نعمة الله تعالى فيها، ولنحكم تدبير أمرها وتعريف حالها بضبط ما يجب ضبطه منها، واستقصاء ما كان أمرنا به من تخريبها وتدميرها، فصرنا إليها واحتللنا به وعاينا من شرف خلقتها، وحصانة قعدتها، وبديع نصبتها، وامتناع وعلو مرتقاها، وانقطاع مهواها، وما لم نظن أن يكون في الأرض شبهها، ولا أن عامراً عمر مثلها، ولا عاقلاً عقل نظيرها، فأكثرنا حمد الله تعالى على ما يسر منها وسهل من خطبها، وعلمنا أن لا حول بنا ولا قوة إلا به اللطيف بما يشاء وهو على كل شيء قدير، إذ أراد أمراً قضى به، وسهل مرامه وذلل صعبه، وقرب بعيده، وألان شديده، فذلك الله الذي لا إله إلا هو العلي العظيم، فتم ما أردنا، وانتهى إلى ما حددنا، وأحكمنا من ضبط قصبتها

وبنيانها على أحسن وأكمل التفكير ما حبينا.

ثم فرقنا رجالنا عُصباً، ووزعناهم نوباً على هدم حصونها وقصابها والديارات الخارجة عنها المحيطة بها، مثل شنت أولالية، وشنت مرية، وقصبة صهيب، التي كان جميعها محوقاً بجبل ببشتر، وكلها نظير لها في الحصانة والمنعة، وأمرنا بهدم المسجد الذي كان أقامه الكافر عمر فيها أول أمره لمن كان فيه من فسقة المسلمين، وطمس أعلامه، إذ كان مسجداً أسس على غير التقوى، وبوعد عن البر والهدى، وابتنى من غنائم المسلمين وأنهابهم، فألحقت قواعده ببواسقه، وصير قاعاً صفصفاً، وعهدنا بإحراق منبره الذي دعا فيه للخنزير الضال ومن خلفه من نسله الخبيث، وأعلن عليه بدعوة الشيعي الفاسق الدعي صاحب إفريقية، الذي كان الكافر قد تعلق بدعوته، وموّه على الناس الاتصال بالإسلام في كبار بدعته.

ثم قلدنا أمر ببشتر والكون فيها والتولي لما يليها الوزير/سعيد بن المنذر القرشي، لماعرفنا من كفايته فيما يتولاه، وضلاعته فيما يحمله، وكان قد بقي من شعب الكفر، وعصص الشرك، وأعضاء الشيطان، وعباد الأوثان أهل الحصون الثلاثة الممحضة الطغيان بمارش وشنت بيطر ونطرون، وهم يعتدون في ألوف، ويقدرون الأنف لهم بالزحوف، قد طاولتهم المدة وتكاثرت منهم، وأنظرتهم النعمة، واستقرت بهم الدار، وأمنوا صروف الأيام، ولا تروعهم رائعة الدهر، ولا دارت عليهم دائرة الزمان، عندما نلناهم في صائفتنا الماضية من حطم زروعهم، ونسف كرومهم، وقطع شجرهم، وكنا أمرناهم بتخريب أسوارهم وقصباتهم، والبقاء في أجبلهم وشعابهم، تدريجاً لهم وتسهيلاً لصعوبتهم، فأنطاعوا لذلك عندما ملكنا لببشتر عاصمتهم وما فارقهم من عزها، وما فارقهم من عزها، وأسلمهم من حرزها، وأذلهم من فقد نصرها، وانكشف من سترها.

ثم لم نقنع بذلك منهم عند انكشاف ظل ببشتر عنهم، حتى أمرناهم بالهبوط من تلك الأجبل الشامخة التي علقوا بذراها، والهضاب الباذخة التي ركبوا إلى حماها، إذ كانت منيعة دون أسوار صعبة المرام من جميع الأقطار، مع غلظ الشوكة، وشهامة الحيلة، واتساع الطاقة، وكثرة العدد والعدد، وأخذناهم بالوعد والوعيد واللين والشدة، فبلوا عن عزائمنا التي باشروها في أمثالهم، وامتحنوها في أشكالهم ما لم يكن لهم معه بد من التنفيذ لما أمروا

به، والإنقياد فيه، والطوع له، وبعد لأي ما أذعنوا، وبشق الأنفس منهم ما انقادوا، فخرجوا عن تلك المعاقل راحلين، وهبطوا إلى قراها السهلة ذاهبين، ووكلنا الوزير محمد بن عبدالله بن حدير مولانا لمشاهدة خروجهم، واستيعاب نزولهم، حتى خرجوا عن آخرهم إلى بسيطهم الذي كانوا وأسلافهم فيه نازلين على قديم الدهر، وخلت تلك الأجبل المانعة منهم، وأقفرت من جميعهم، وآضت خراباً على أيدهم، وحل الله عقدهم وبدد شملهم.

وأمرنا الوزير ابن حدير بإخراج العرفاء عنهم، الذين كانوا أووا إليهم، وأكثروا عددهم، وحددنا لهم تمييزهم وإبعادهم عنهم، وألا يسكنوا في قراهم ولا ينبسطوا ببسيطهم، وأن يذهبوا على وجوههم، ويتشتتوا في الأرض العريضة متفرقين إلى أصولهم منها، التي منها أتوا إليهم، ومن قبلها اجتمعوا لديهم، وعنها تألفوا بهم تفليلاً لعددهم، وتقليلاً لكثرتهم، وتقليصاً لجماعتهم، فتفرقوا منقطعين إلى جهاتهم، ولم يبق للنصرانية حصن مذكور، ولا معقل معمور، والله بذلك محمود مشكور.

ثم أنفذنا من ثقات موالينا وكفاة خدمتنا رجالاً عدداً، فرقناهم على حصون كورة ريه، التي كانت متخذة معاقل بسبب أولئك الكفرة نصارى الذمة المنتقضين المجتمعين على كياد الملة، وتقدمنا إليهم بتخريب جميعها، وحط أسوارها، وهدم قصابها، وثغر أجنابها، وإبعاد أحجارها، وقطع آثارها، فأنفذوا ذلك وأتوا على المراد منهم، ولم يدعوا معتقد ذمة من منتقضي النصارى الكفرة يميل إلى معقل ،(...) على أربعين حصناً جميعها بكورة ريه لم يبق منها بحمد الله حصن مضبوط، ولا بها عدو محذور بقوة الله وحسن تأييده.

واحتملنا على مثل ذلك في حصون كورة تاكرنا وحصون مغيلة من كورة شذوذنة، إلا ما وجب التمسك به منها، ولم ندع مع ذلك إزعاج من وجب إزعاجهم إلى قرطبة من أكابر أهلها، الذين عرفوا أيام الفتنة، ولابسوا أهلها، وكانت لهم على الرعية بعض الاستطالة، وإلى عمالها بعض المعارضة، ليكون الناس أمة واحدة، ورعية ساكنة مرؤوسة غير رائسة متحكماً فيها بما يجب لله عز وجل عليها غير حاكمة، ورجونا من الله تعالى على جميع ما باشرناه من ذلك وكابدنا وقاسيناه وتجشمناه الجزاء الجميل والثواب الجزيل، فما تولينا منه شيئاً إلا ونحن نريد به وجهه، ونتحرى به رضاه، وأمرنا الوزير عبدالحميد

بن بسيل مولانا بالتقدم إلى كورة شذونة لإنزال الرعية إلى البسائط، وهدم حصون الكورة وجمع أهلها إلى مدينة قلسانة، واستنزلنا ابني داود عن الحصون التي كانا بها إلى ما قبلها ووليناها عمالنا.

فكانت سفرتنا هذه أيمن سفرة وأجمعها لكل خير، وأحسمها لكل ضر، وأجلبها لكل سرور، وأرفعها لكل محذور، وأشدها تمكيناً من الصلاح، وإبعاداً للجناح، وتقريبا للنجاح، ثم قفلنا بعد إكمالنا لجميع ذلك، حامدين لله تعالى على ما أعان عليه، ووفق له، وأنعم إليه حمداً يتقبله ويرضاه، ويؤدي حق نعمته وجزاء صنعه، ويستدام معه ما من به وأحسن فيه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فأمر بقراءة كتابنا هذا في المسجد الجامع في موضعك على أوليائنا ورعيتنا قبلك، يبشروا به وليحمدوا الله تعالى على عظيم نعمته عندهم، وإحسانه إليهم من قمع عدوهم، ونصر حقهم، وشعب عصاهم، وتأمين سبلهم وصلاح أحوالهم، وانفتاح طرقهم، وليشكروه تبارك وتعالى على ما أسبغه من فضله بذلك، فإنه شاكر يحب الشاكرين، ويكافئ بفضله الحامدين ولا يضيع أجر المحسنين إن شاء الله وهو المستعان"[١].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٣٢ – ٢٣٧.

ملحق رقم (٦)

كتاب محمد بن خزر ببيعة الخليفة الناصر لدين الله

قال: وافى كتاب لمحمد بن خزر، أمير زناته، ببيعه الناصر لدين الله آخر هذه السنة[1]، قد ضمنه فضلاً بالاعتراف بحق الناصر لدين الله:

"ووالله يا أمير المؤمنين ما أعلم على وجه الأرض أحداً أعرف بما أوجب الله لك مني، لأني ما قمت بدعوتك إلا تقرباً إلى الله، وتوصلاً إلى قتال كفار المشارقة بحقها وصدقها، فقد يعلم الله تعالى أني لم أتعرض للمشارقة أهلكهم الله على يدك ما تعرضوني، كما أني كففت زماناً عنهم قبل استحكام البصيرة فيك، فكفوا عني ورضوا بذلك مني حتى رأيت أمرهم قد عمّ الناس شرّه، وقد حاولوا أن يطلوا نور الإسلام بما كادوا به أهله، فاستخرت الله في جهادهم، وقمت أدعو ربي في جوف الليل في التوفيق والتسديد، وأن يخير لي وللمسلمين في مناهضتهم، ويكشف عنا ما أغمنا من غيّهم وشرهم، وفكرت في إمام أعتلق حبله، وأكون على بينة من أمري في الدعاء إليه، وقد تشبثت في حبال المسودة من بني العباس، واستدعاني أخي المقيم عندهم بمصر، وأتتني كتب تكين التركي صاحبهم بمصر في أول الأمر، يروم ثنيي إليهم واستجلابي نحوهم، فعصمني الله من ذلك باتباع الحق، وأخذي برأي الناصح المرشد، وإصغائي إلى ما أوضح من الأمر، حتى علمت يا أمير المؤمنين أنك أحق الناس بالخلافة، أنها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق وعصى الله ورسوله.

فأطرحت الهوادة وآثرت الحق، وهربت بنفسي إلى أمير المؤمنين بنية صادقة، وبصيرة نافذة، وبرئت من الناس إلا منه، ودفعت الإمامة إلا هو، ورجوت أن ينصرني الله تعالى به وعلى يديه، وأن ينظر في أمري وأمر المسلمين من أهل إفريقية المضطهدين، النظر المأمول منه حتى يكشف الله تعالى عنهم ما هم فيه من البلاء والردّة، وأن يعزنا الله معشر

---

(١) سنة ٣١٧هـ.

زناته بهذه الدعوة الحق المنصورة، حتى ترفعنا على جميع الناس بها، فنكون أولياء دعوتك وأنصار دولتك، فإنك يا أمير المؤمنين مولى كل المسلمين على الأرض، وأن بني أمية هداهم الله للإسلام وعساكرهم، هي التي أدخلتهم فيه وأخرجتهم من المجوسية بإذن ربهم، فمن كفر منهم هذه النعمة فهو كافر بالله ورسوله مُوليها، ثم لا يقبل الله له صدقاً ولا عدلاً، ووالله ما حابيناك يا أمير المؤمنين بالإقرار لك إذ وجدنا الحق في يدك، والإجماع من الناس على أنك أولى بالخلافة من كل من ينتحل اسمها معك، كذلك يشهد لي كل من تقدم إلينا من المشرق من نواحي إفريقية، فكلهم يشكر فعلي، ويقر لي بأن الحق معي، وبه أحمد رأي من نصحني وبالحق عرفني ، وعليه حضني، حتى تكين صاحب مصر، فقد رضيه وسره، وما ساءه فالحمد لله هذه النعمة الذي جعلني من أهلها، ووفقني لقبولها"(١).

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٦٥– ٢٦٧.

ملحق رقم (٧)

كتاب محمد بن خرز بشأن رغبته بفتح تاهرت وطلب العون من الخليفة الناصر لدين الله

قال : في هذه السنة[١] ورد كتاب محمد بن خزر أمير زناته، على الناصر لدين الله، مطالعاً بأموره، منهياً أخبار جهته على عادته، فوقف الناصر لدين الله على ما سره من ذلك، فأجمل جوابه عنه، وازداد من ثقته به و إسمائه لمحله، وكان نسخة الفصل بذلك في كتابه:

"فإن كتابي، أبقى الله أمير المؤمنين، من بلد الساحل من مدينة تسفا المشهورة بمدينة العلويين، وهي مدينة حصينة أولية متوسطة للمراسي التي تقابل مراسي الأندلس، وهي منتظمة بها، وقريبة منها، وهي بغربي تاهرت دار الفاسقين وقريبة منها، بينها وبينها ثلاثة أيام، وإنما بيننا وبين المراسي أقل من يوم، وإنما ذلك بعد انتقالي من بلد الغوط بالأهل والولد والأصحاب والحشم والعبيد والموالي، وأهل ولايتنا، وصنوف رعيتنا، وضروب أهل طاعتنا، والخاصة والعامة لدينا، انتقلنا إليها بقبيلتنا، وجماعة من قبلنا، و لم نخلف بعدنا أحداً من مذكور رجالنا، وحماة أنصارنا، وجماعة فرساننا، ووجوه عشيرتنا، فهم معنا وبين أيدينا، لم ينحل لنا نظام، ولا دخلتنا فرقة، بل جميعنا مستعدون بدعوتك، ومعتصمون بطاعتك، ناصحون لك، محبوبون لأيامك ودولتك المباركة التي من تمسك بها كان له الأمن والسلامة في دنياه وآخرته، ومن صد عنها وابتغى سبيلاً غيرها نزل به الذل والصغار، وقارنه الخزي والهوان.

والذي أردت عمله أبقاك الله من خبر خروجنا عن البلد الذي كنا نحله، وسبب انتقالنا عنه، فإنه لم تخرجنا عنه خصاصة، ولا أزعجنا مذلة، ولا تخوف ولا حزنة، ولا تغير حال ولا شدة، وإنما أخرجنا عنه بقضاء الله حبنا الدنو منك، والتسنم لك لما نحن

---

(١) سنة ٣١٩هـ.

عليه من حسن الطوية لك، وصدق النية فيك، ومحض المودة لك، وبجميع من تعلق بك، وانتسب إليك، وذلك أنا كنا عن أفقك قبل اليوم نازحين، وعن مواصلتك شاحطين لابتعاد الدار بنا، وانتزاح التنائف بطاعته في أمرنا،على أن شحط الدار، وبعد الشقة مما لا يقصي بذي الهمة عن الرمي بهمته، ولا يرد ذا العزيمة عن إنفاذ عزيمته، ولا بد لقدر الله تعالى من نفاذ، ولعزائم أقضيته من تمام، وذلك أنا نظرنا أعزك الله بطاعته في أمرنا إذ لم تمكنا مواصلتك، والتعلق بأسبابك إلا بالدنو منك، والمجاورة لك، والبعاد عن بعدك، فأجمعنا الانتقال بالكلية إلى أطراف أعمالنا، وحواشي كورنا من نحو المراسي المنتظمة بجزيرة الأندلس التي وصفنا لك خبرها، فلما وردنا البلد بالأهل والولد، أخذنا في جمع العدد، لإقامة الأود بتثقيف العوج من أهل المعصية الذين كانوا لليهودي مشايعين، وفي أمره مداهنين، فحشدنا جميع القبائل التي بإزائنا وكل من اعتصم بطاعتنا وتمسك بأسبابنا، فأخذنا رهائنهم بالمبايعة لك، والافتتاح باسمك، والخطبة في جميع أهل الساحل إليك .

وأقبل الناس إلينا من كل جهة فزعين مرعوبين خائفين على أنفسهم، طالبين تسكين دهمائهم وحقن دمائهم، مستجيبين لدعوتك، والجرين على طاعتك، معترفين بتقدمنا قديماً عليهم، وإمرتنا فيهم، وولايتنا قديماً على جميع لسان البربرية حيث كانوا من نسل زناتة خاصة، وغيرهم عامة، ولأبنائنا من قديم الدهر وحديثه، ولأعقابنا من بعد حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك ببركة أمير المؤمنين ودولة آبائه الأبرار والخلائف الطيبين رضي الله عنهم أجمعين، ونضر في القيامة وجوهم فهم الذين لم تزل القلوب عليهم متآلفة، والأهواء فيهم مائلة، والجماعة بهم راضية، فها أنا الآن يا سيدي جاد مجد مشمر مواظب في تقويم أود أهل المعصية وتثقيف العوج من جميع أهل العداوة، وضرب المقبل منهم بالمدبر، وحمل المطيع على العاصي حتى يفتح الله لأمير المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها،وسهالها و أوعارها، وبراريها وبحارها، بناوعلى أيدينا، وتتصل طاعته إن شاء الله إلى أقصى العراق، ويرد تراث خلافة آبائه الطيبين الأبرار الأكرمين إن شاء الله وبه نستعين على ما يتولى، وإياه نستحفظ ونستكفي الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

وها نحن ياسيدنا أعزك الله عازمون والعزيمة لله على النهوض إلى المدرة السوء تاهرت وما هنالك لاغتيالها ومحاصرة الفاسقين بها، والتغيير عليهم وقطع المرافق عنهم،وحل عري

اليهودي منها وإبعاد رجسه عنها، وهي كما بلغك من وعورتها وصعوبتها وشموخ أجبلها وأشب شعاريها، والبرابر من قلة البصر ومحاصرة المدائن ومساورة المعاقل ومكايدة الحصون والحيل عليها بحيث تعلمه من العجز عن ذلك، والقصور عن رومه، ولا يقوم بهذا الشأن إلا العرب وذوو الحنكة المحتضرون أصحاب الأسلحة الشاكة، والنشاب والعدة، وأهل الاقتدار على تشيد البناء وما يصلح لنكاية الأعداء.

فإن رأي سيدي أمير المؤمنين أن يقوي عبده الساعي في دولته بأسه من ذلك كله بالذي يرى لنا فيه صلاحاً، ولسعينا نجاحاً، مما يكون له أوفق، وبنا أرفق من القوة والعدة وأصناف الأسلحة والنشاب والآلة والرماة، وبعض من يحكم سياسة محاصرة الحصون، وتكمل حال العساكر الكبارالثقال، فإن عندنا ما شئت من خيل ورجال، ومساعير الأبطال الكماة، ذوي عدة وعدد وبأس وجلد من صنوف العشائر، وضروب العساكر، والحماة الكفاة، والأبطال الكماة، قد نهدناهم لتقليص أطراف اليهودي من تاهرت، وقصم عراه منها، وإبعاد رجسة عنها، ثم يكون الصمد بعد ذلك إلى ما وراءها من مدائن اليهودي ومنابرةوأمصاره ومعاقله، وصياصية وقصوره وقراه وكوره وقصي بلاده، حتى يقطع الله أثره، ويصرم مدته بحوله وقوته .

والذي أردت علمه أعزك الله من خبر أخي فلفل هداه الله في حسده لنا، وبغية علينا، وسوء سيرته، ونقل ضميره وسريرته، الذي ألبسه الله رداءها بما اكتسبت من معصيته، وذلك أنه رحل عنا من غير إذن منا، ولا مطالعة ولا مشاورة لنا، وزعم عند عزمه على الرحيل أنه يلتمس خصب المرعي لمنافع الماشية، فأبعد النجعة، ولم يزل يطوي السباسب والقفاز والأدوية والمهامة، متنكباً للحواضر والسبل المسلوكة، حتى ورد أطراف أعمال اليهودي المبدل للدين، الخارج عن ملة المسلمين، فنزع إليه هو وولده وشرذمه معه، ممن تبعه وشايعة في أمره، وصحبة في غوايته، فلما وردوا على اليهودي تلقاهم بالسرور والحبور، ومناهم بالكثير، وزخرف لهم قوله بالغرور، فصار منهم كالسراب يخلف من رجاه ويغر من رآه﴿**يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه**

حسابه ﴾[١].

فارتهنوا عنده أهاليهم وأولادهم بعد أن أخلف الله ظنهم، وخيب رجاءهم، وصدروا عنه على سروجهم إلى نحو بلد الزاب إلى القبائل بتلك الأطراف من بني مغراوة خاصة، ليسعوا لهم ويطيعوا أمرهم، فمنهم من رحل إلينا هاربين بأنفسهم وأموالهم، ومنهم من لم يشتغل بهم و لم يحفل بأمرهم، وذلك لإدبار ولد اليهودي عنا، ونزول نقم الله به على أيدنا، و لم ينشب أن ورد كتاب اليهودي إلينا يذكر فيه نزوع الغاوي فلفل أخي إليه، ورغبته فيما لديه، واعترافه بالحق ورجوعه عن الباطل وحسن قبوله إياه، وكرم منزلته عنده وإعطاءه إياه كل ما سأله منه، وأمله لديه،ويحضني على امتثال فعله، ويندبني إلى الرجوع إليه، ويرغبني في الولوج في طاعته والتمسك بسنته ، ويمنيني على ذلك الكثير، ويعدني بالجزيل، ويقول لإنه لا يحاول مني ذهباً ولا فضة، ولا يكلفني نائبة غير الافتتاح بأسمه والخطبة في المنابر عليه، وصرف السكة بذكره، وإرسال أحد ولدي إليه أو بعض إخوتي ليشيع في الناس أني قد رجعت إليه، وصرت في طاعته، وكل ذلك لم أحفل بكتابه، وأمرت بجوابه بما نحن عليه من البيئة من أمرنا، والاستئثار بيعتنا، لما قد بلوناه من إفكة وبغيه، وعلمنا من كفره وكيده، وقله وفائه ونقضه لعهده، فنحن أيدك الله لا نقصر في نكايته، ولاني في قطيعته وحربه، وإدخال الضرر عليه وانتقاض أطرافه واقتناص أهل طاعته، حتى يمكن الله منه، ويقطع دابره بحوله وقوته، إن شاء الله تعالى"[٢] .

(١) سورة النور، آية رقم (٣٩).

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٠٠– ٣٠٥.

ملحق رقم (٨)

خطبة المنذر بن سعيد البلوطي بحضور وفد الروم

"أما بعد حمد الله، والثناء عليهِ، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقالا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قُمْت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم؛ فأصغوا إليّ معشر الملأ بأسماعكم وأيقنوا عني بأفئدتكم؛ إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل: كذبت، وإن الجليل تعالى في أسمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى صلى الله عليهِ وسلم وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله عندهم؛ وفيه وفي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم؛ ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير بضيق الحال، ونكد العيش والتقتير، فاستبدلتم بخلافته من الشدّة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء. أنشدكُم الله معاشر الملأ: ألم تكن الدماء مسفوكة؟ فحقنها! والسبل مخوفة؟ فأمنها! والأموال منتهبة؟ فأحرزها وحصنها! ألم تكن البلاد خراباً؟ فعمرها! وثغور المسلمين مهتضمة؟ فحماها وزهرها! فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته وتأليفه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم، ناشدتكم الله: ألم تكن خلافته قيد الخلافة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد؟ حتى باشره بالمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيفٍ منصور، تحت عدل منشور،

متحملاً للنصب، مستقبلاً لما نابه في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غارب إلا جبَّة، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده! فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائكم أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب البركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل منه ومنكم جملة وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر مابعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وغيبها عاتم؛ **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾**(١) الآية؛ وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوا المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعظمة والسداد، وألهمه محاضر التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن النّاس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعاً، وأجلهم صنعاً، لاتهاجون ولا تواذون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم، بالنصيحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من نزع يداً من الطاعة وسعى في فرقة الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها، والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، وصحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار؛ فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به؛ فإنه تبارك وتعالى يقول: **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**(٢)، وقد علمتم معشر المسلمين ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم، وتفريق ملتكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم،

(١) سورة النور، آية رقم (٥٥).

(٢) سورة النساء، آية رقم (٥٩).

وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين، أقول هذا وأختمه بالحمد لله رب العالمين، وأستغفر الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين"[1].

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٩٠- ٩٣.

ملحق رقم (٩)

كتاب الخليفة في التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه

وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق ملكه، بشأن هؤلاء المبتدعة كتاباً طويلا قرأ عليهم بأمصارهم، من إنشاء الوزير الكاتب عبدالرحمن بن عبد الله الزجّالي، نسخته:

"بسم الله الرحمن الرحيم،

أما بعد، فإن الله تعالى جده، وعز ذكره، جعل دين الإسلام أفضل الأديان، فأظهره وأعلاه، ولم يقبل من عباده غيره، ولارضي منهم سواه، فقال في محكم تنزيله: ﴿**ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾الآية[١]، وقضى في محتوم أمره، ونفاذ حكمه، أن ينسخ بها الديانات، ويختم برسالته الرسالات، فبعث محمداً خاتم النبيين، وأكرم الأكرمين، وأعز الخلائق على رب العالمين، بأن كتب الصلاة والسلام عليه في عرشه قبل أن يخلقه، واصطفاه لأمانته قبل أن يكوّنه، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها وسطاً، كما قال عز من قائل، إذ عرّفنا فضل ما هدانا إليه من الدين، وكرمنا به على سائر الأمم: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر**﴾[٢]الآية. فله جل جلاله وتقدست أسماؤه الشكر على خصائص هذه الفضيلة، والحمد بالمنة الجليلة، فقد استنقذ من الغواية وهدى، فأحسن الهداية، وأنار فأبان الحجة، وكفانا بواضح المنهج مؤنة الفكرة، ونظم زمام الأمة، وجمع وجوه السعادة العاجلة، والنجاة الآجلة في تأليف الجماعة، واجتناب نزعات الفرقة، حيث يقول عز وجهه لنبيه المخصوص بهداه ﷺ تحفياً به وبعباده، ورأفة يبسطها على خير خلقه، وإعلاماً لهم بتواصل الدين من قبله لأنبيائه وكراهة لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذى أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى**

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٨٥).

(٢) سورة آل عمران، آية رقم (١١٠).

وعيسى، **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[١] الآية.فخوف وحذر، ونهى عن افتراق الكلمة، ونبه على البعد...، ونفى الله الخبائث عنها، وفضلها على سائر البلدان، واستقر فيها الدين كهيئة يوم أكمله الله لعباده، ولما استوسعت الطاعة، وشملت النعمة، وعم الأقطار، بعدل أمير المؤمنين، السكون والدعة، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً، ولا تأمر رشداً، من طغام السواد، ومن ضعف آرائهم، ومن خشونة الأوغاد،....كتباً لم يعرفوها ضلت فيها حلومهم، وقصرت عنها علومهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا، وتفقهوا فيما لم يدركوا، واستولى عليهم الخذلان، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم، فقالوا بخلق القرآن، واستيئسوا وأيسوا من روح الله، ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾[٢]، وأكثروا الجدل في آيات الله، وحرموا التأويل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبرئت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه:"ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون، الذين كذبوا بالكتاب، وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون" إلى قوله: ﴿**إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يُسجرون**﴾[٣]، فهذا أبلغ الوعيد، وأفضع النكال، لمن جادل"في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير* ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله" إلى قوله "عذاب الحريق"[٤]، ثم تجاوزوا في البهتان، وسدوا على أنفسهم ألوان الغفران، فأكذبوا التوبة، وأبطلوا الشفاعة، ونالوامحكم التنزيل، وغامض متشابه التأويل، بتقدير عقولهم: "فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" إلى قوله:﴿**وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾[٥]، فصاروا بجهل الآثار، وسوء حمل الأخبار إلى القدح في الحديث، وترك نجح السبيل، فأساءوا الفهم عن العلوم، وأقدموا بمكروه القول في السلف الصالح، واستبدلوا على نقلة الحديث، ووضعوا من الكتب

(١) سورة الشورى، آية رقم (١٣).

(٢) سورة يوسف، آية رقم (٨٧).

(٣) سورة غافر، آية رقم (٦٩-٧٢).

(٤) سورة الحج، آية رقم (٨-٩).

(٥) سورة آل عمران، آية رقم (٧) .

أوضعها، وتابعوا شهواتهم فيها، وتتابعوا فيما أوبقهم وورطهم، ورأوا لتخضع وحشية يحثها لازم الضلالة، وداعية الهلكة، والشذوذ عن مذهب الجماعة، من غير نظر نافذ في دين، ولارسوخ في علم، حتى لتركوا رد السلام على المسلمين، وهي التحية التي نسخت تحية الجاهلين، خلافاً على أدب الله تعالى، وقوله جل جلاله: ﴿**وإذا حييتم بتحية، فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾(١)، وقالوا بالاعتزال عن العامة، وشدوا أزره فآثروه، وانكشفوا فنكرهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فلجوا في جهالتهم، وتاهوا في غيهم، ونكسوا على رؤوسهم، حقداً على الأمة الحنيفة، واعتقاداً لبغضتها، واستحلالا لدمائها، وتذرعاً إلى انتهاك حرمها، وسبي ذراريها ﴿**قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر**﴾(٢)، لولا أن سيف أمير المؤمنينمن ورائهم، ونظره محيط، ولما صار غيهم فاشياً، وجهلهم شائعاً، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم في الديانة، وصدوفهم عن الجادة ماشغل نفسه، وأقض مضجعه، وأسهر ليله، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم، وأوعز إيعازاً شديداً، وأنذر إنذاراً فظيعاً، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً، نظر به لوجهه تبارك اسمه، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته، ليفزع قلب الجاهل، ويفت كيد المستهتر الحائر، وينقض عزم المعاند المعاجل، ويضطر الغواة إلى الإنابة الصحيحة التي تقبلها الله منهم، أو يكشف عن الأذهان سرائرهم فيكون عليهم الشهيد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره، ويرسله في بدوه وحضره، وأن ينفذ عهوده إليك، وإلى سائر قواده، وجميع عماله بها، يقرأ على منابر المسلمين، ولا يحرم القاصي بأعم الداني من تطهير هذا الرجز وتمحيصه، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته، فلم يحل الديار، ولا تعقب الآثار، ولا استحق البلاء على قوم، ولا أهلك الله أمة من الأمم، إلا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل للسنة، والاعتداء في القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الأمين، صلوات الله عليه وسلم، هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك وأنشره في سماع رعيتك، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك، وابثث فيهم عيونك، وطالب فيهم غورهم جهدك، فمن

(١) سورة النساء، آية رقم (٨٦).

(٢) سورة آل عمران، آية رقم (١١٨).

تحلى بطبقتهم أن انتسب إليهم، وقامت عليه البينات بذلك عندك، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم، وأسماء الشهود عليهم، ونصوص شهاداتهم، ليعهد باستجلابهم إلى باب سُدته لينكلوا بحضرته، فيذهب غيظ نفسه، ويشفى حر صدره، وإياك أن تداهن في أهل الريبة وتتخطاهم إلى ذوي السلامة والأحوال الصالحة، فإن فرطت في أحد الأمرين أو كليهما فقد برئ الله منك، وأحل دمك ومالك، فاعلمه واعتلمه إن شاء الله تعالى"[(١)].

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥- ٢٩.

ملحق رقم (١٠)

قضية الملحد أبي الخير وتوجيه الخليفة الحكم المستنصر للنظر بأمره وفق مذهب مالك بن أنس

" قبل قاسم بن محمد صاحب الشرطة شهادة ثمانية عشر شاهدًا من الشهود في شأن أبي الخير، وأجازها لمعرفته بهم، وثبت بهم عنده ما شهدوا به من ذلك، واستظهر بسائرهم، وشاور من حضره من أهل العلم في بيت الوزارة بعهد أمير المؤمنين الحكم - أعزه الله تعالى - ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن - رحمهما الله - بذلك إليهم وإليه فيما ذكر ثبوته عنده على أبي الخير في هذا الكتاب، بعد أن أعلمهم بقبوله لمن قبل من الشهداء، واستظهراه بمن استظهر به منهم، فقال الفقهاء قاضي الجماعة منذر بن سعيد، وإسحاق بن إبراهيم، وصاحب صلاة الجماعة أحمد بن مطرف وغيرهم: نرى - والله الموفق للصواب - أنه ملحد كافر، قد وجب قتله بدون ما ثبت عليه من غير أن يعذر إليه فيمن قبلت، بعد أن ينهي ذلك إلى أمير المؤمنين أعزه الله، وأشار عليه بعض من حضر من أهل العلم بأن يعذر إليه في ذلك، فأخذ الناظر في أمره قاسم بن محمد بقول من رأى أن يقتل بغير إعذار إليه؛ إذا كان ذلك رأيه وأيضًا ومذهبه فيه، وأنهى قاسم بن محمد إلى أمير المؤمنين جميع ما نظر به من ذلك، فرأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن الحق والصواب في قول من أشار بقتله بلا إعذار، لما استفاض من إلحاد هذا الملحد وانتشار ذلك عنه، فأمضى ذلك فيه، وأمر بصلبه غضباً لله ولكتابه ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وليكون تشريداً لمن ذهب إلى مذهب من مذاهبه أو ثبت عليه سبب من أسبابه التي تثبت على أبي الشر هذا لعنه الله، وكتب أمير المؤمنين - أعزه الله - إلى الوزير عيسى بن فطيس كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، يؤخذ برأي القاضي، وإسحاق، وصاحب الصلاة، فجزاهم عن الدين والذب عن السنة خيرًا، وقد صرفت الوثيقة لتكون في البيت، ورأيت هذا الأمر قد كثر، وكان ممنوعاً مطروداً، فتقدم إلى القاضي والحكام بالأخذ على أيد الناس في هذا، فمن خالف مذهب مالك بن أنس رحمه الله بالفتوى أو غيره، وبلغني

خبره؛ أنزلت به من النكال ما يستحقه وجعلته شراداً، وقد اختبرت فيما رأيت في الكتب أن مذهب مالك وأصحابه أفضل المذاهب، ولم أر في الصحابة ولا فيمن تقلد مذهبه غير السنة والجماعة؛ فليتمسك بهذا ففيه النجاة إن شاء الله"(١).

(١) ابن سهل، الإعلام، ٢/٨٩٥، ٨٩٦.

ملحق رقم (١١)

كتاب الفقيه إسحاق بن إبراهيم إلى الخليفة الحكم المستنصر بعد صلب الملحد أبي الخير وسرور العامة بذلك

ولما نفذ عهد أمير المؤمنين أعزه الله بصلب أبي الشر هذا، وظهر من سرور العامة والخاصة بذلك ما لم يظهر فيهم إلا يوم أصبحوا إلى خلافته أعلاها الله.

كتب إليه إسحاق بن إبراهيم: "بسم الله الرحمن الرحيم، سلام على أمير المؤمنين وإمام المسلمين، ورحمة الله وبركاته، والحمد لله الذي لا يزال أمير المؤمنين سيدي وسيد المسلمين يمده الله بتوفيقه، ويشد بصائره في الخير بتأييده، والذي من عليه بأن كان أول دم أمر بسفكه في خلافته امتعاضًا لله عز وجل ولكتابه العزيز ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وغضبًا على من استخف بعظمته واتخذ آياته ورسوله هزءاً، وذلك من فضل الله عز وجل على أمير المؤمنين، وعلى آبائه المهديين رضي الله عنهم، الذين قفا آثارهم وسار بسبيلهم في غضبهم لله عز ذكره، وشدة انتقامهم له من الملحدين والمارقين والمبتدعين، فلو كان أمير المؤمنين سيدي بمرأى ومسمع من اجتماع رعيته بالأمس، عند ورود البشير عليهم بما أمر به في الملحد أبي الشر من استئصاله وقطع شأفته، وسروهم بذلك واستهلاك جميعهم بالدعاء، والرغبة إلى الله في إعزازه ونصره وطول بقائه، مع شكرهم له عز وجل على ما اختصم به وفضلهم على جميع أهل الأرض من خلافته، وأطلعهم عليه مما كانت آمالهم قائمة فيه، وراجية منه – لتضاعف سروره – أعزه الله بالحسنة التي تقرب إلى الله بها في هذا الملحد، وليتبين أن ليس في المسلمين رعية أرغب في إحياء السنة وإتباعها، والحب لإمامها، والشفقة عليه والكلف به من رعيته، فلقد رأيت الناس – أبقى الله أمير المؤمنين سيدي – يتلاقون بالتهاني بما أطلعهم الله عليه من باطن أمير المؤمنين إمامهم في الغضب لله ولكتابه العزيز ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللسلف الصالح من صحابته– رضي الله عنهم – ولشدة بطشه وعزمته في الانتقام ممن طعن في الدين؛ ما عظم به سروري لأمير المؤمنين سيدي، ولجماعة المسلمين، لعلمي بأنها سيتزودها الركبان إلى جميع أمصار

المسلمين وبلدانهم، على أفضل ما قد أطلع الله عليه رعية أمير المؤمنين من نيته واجتهاده، مما لو أنه رام أن يجمع قلوبهم بقوة سلطانه على ما اجتمعت عليه من ذاتها، لما بلغته طاقة إلا إلى أقل من ذلك، ولكن الله عز وجل أوحى إليها ما أوحى فتحقق عندها ما لا يتحقق إلا ما عنده، إلا فيما يظهرهم عليه من غيبة، فتبارك الله رب العالمين، ثم شفع أمير المؤمنين سيدي – أبقاه الله – ما كان تقدم من عهده في هذا الملحد ما جاوب به الوزير عيسى بن فطيس، فيما أنهاه إليه مما اعترض به من اعتراض في الإعذار فيما ثبت عليه، فبدرت إلى انتساخ ذلك الجواب وأذعته بمن حضرتي، فكان سرورهم به كسرورنا وسرورهم بما غدونا عليه من الفرح به غداة خلافته، بل أكثر من ذلك ثم خرجت بالنسخة إلى من حضرتي بالمسجد وقد احتفل من الداعين والمبتهلين والراغبين، فقرأته عليهم، فكلهم دعا بما لا شك أن الله لا يضيعه لهم في أمير المؤمنين إمامهم وكافلهم وحائطهم، ثم تبادر الناس إلى نسخه، فانتشر فيهم كأسرع شيء، فلم تزل طائفة بعد طائفة تنسخه إلى المساء، حتى كأن الله عز وجل إنما استخلفه عليهم تلك الساعة، فهنيئًا لأمير المؤمنين في سيدي ما منَّ الله به عليه وجمعه له من طاعته لربه، ورسوخ محبته في قلوب رعيته، واستنامتها إلى إمامته، وبعد – أبقى الله أمير المؤمنين سيدي – بأني لم أشك في هذا الملحد وأصحابه أن الله ينتقم منهم بك وعلى يدك، مذ ألهمك إلى التذلل له مما اتسمت به من استنصارك به، فكفى بهذا تسليمًا وخضوعًا لعزته، ثم هو وأصحابه في فضض لعنة الله وخزيته التي أوعدهم بها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فمما أودعهم به قوله تبارك اسمه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(١) وهو منجز لهم ذلك عاجلاً أو آجلاً، ومما أوعدهم به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلمقوله:"دعوا أصحابي لا تتخذونهم غرضًا، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه الله "(٢)فمن كان (...) أبقى الله أمير المؤمنين سيدي (...) الله وكتابه

---

(١) سورة الأحزاب ، آية رقم ٥٧ – ٥٨ .

(٢) ورد هذا الحديث بمسند الإمام أحمد بهذا السند : حَدَّثَنَا يُونُسُ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ، عن عبيدة =

ورسوله يطالبه؛ فهو في فضض لعنة الله، والكتاب والرسول خصماؤه، فأين يفر من سمائه وأرضه؟ لم يمنعني – أبقى الله أمير المؤمنين – أن أكون مكان كتابي هذا مهنئاً له ومشافهاً بدعائي وابتهالي، إلا بمعرفتي برأفته ورغبته في الرفق بي والصون لي من ريح هذا اليوم وبرده، وما نزل من الماء فيه فشكر الله تعالى له، ما أعجزه عنه من قضاء حقوقه، وكافأه عني بأفضل ما يحفظه مني آمين آمين، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله"[1].

=

بْنِ أَبِي رَائِطَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ أَوْشَكَ أَنْ يَأْخُذَهُ " (أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق شعيب الأرنؤوط و عادل مرشد وآخرون، ط١، ٣٥٧/٢٧ ، ٣٥٨ ، حديث رقم ١٦٨٠٣، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠١م).

(١) ابن سهل ، الإعلام ، ٨٩٦/٢ ، ٨٩٩ .

ملحق رقم (١٢)

جواب الخليفة الحكم المستنصر للفقيه إسحاق بن إبراهيم بشأن الزنديق أبي الخير وتأكيده على التمسك بمذهب مالك

"فأجابه أمير المؤمنين – أبقاه الله – في ظهر كتابه جواباً نسخته: إلى إسحاق بن إبراهيم الفقيه، قرأنا كتابك وفهمناه، والحمد لله الموفق لنا، الذي أجرى على أيدينا وفي أيامنا هذه المكرمة، وجزاك الله عن الذب عن الدين خيراً فقد وقع مني أفضل موقع، وإنما كان ما ألقى من الكلام نزغة من نزغات الشيطان، وألقية ألقاها على أسنتهم، ولولا البدار للدار لدارت أمور وأمور، والحمد لله الذي ألهمنا إلى البدار، وقطع على أيدينا طرفاً من الكفار، وقد بلغني أن جماعة على مذهبه، وأمرت الحكام بالتشديد عليهم وإخافتهم، وبلغني أن قومًا يفتون بغير مذهب مالك بن أنس، وأنهم يرخصون في الطلاق وغيره بمناكير من الفتوى، وكل من زاغ عن مذهب مالك فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله، فقد نظرت في أقاويل الفقهاء ورأيت ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا؛ فلم أر مذهباً أنقى ولا أبعد من الزيغ من مذهبه، وجل من يعتقد مذهباً من مذاهب الفقهاء؛ فإن فيهم الجهمي والرافضي والخارجي، إلا مذهب مالك، فإني ما سمعت أن أحدًا تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله، وقد أحسنت في توفيقك، وما أحب إلي ما أحاطك الله به وأصلح من حالك، فقد قلت لمن حضرني يوم السبت بعد خروجك: لن يزال هذا البلد بخير ما كان فيه هذا الشيخ؛ فكثر الله مثله فهذه بصيرتي فيك. فاعلمه، والسلام عليك.

ولما ورد جواب أمير المؤمنين الحكم بن عبد الرحمن – أعزه الله – هذا على إسحاق ابن إبراهيم، اجتمع إليه طلبة العلم فرغبوا إليه في انتساخه، فأباح لهم ذلك، وسألوه أن يشرح لهم أصل هذه الفتوى المذكورة عنه وعمن قال مثل قوله، في قطع الإعذار عن أبي الشر استعداداً بها وتخليدًا لها على من ظهر منه أو ثبت عليه شيء مما ثبت على هذا الملحد"[1] فشرح لهم ذلك.

(١) ابن سهل ، الإعلام ، ٢/٨٩٩ ، ٩٠٠ .

ملحق رقم (١٣)

إلزام أمراء العدوة بالمغرب بالعمل بالسنة ومذهب مالك والبراءة من الشيعة وكِتابُ تعهدهم بذلك

"وفي العشر الأخر من شوال من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ورد كتاب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبدالرحمن، يذكر انصراف محمد بن وليد ومحمد بن موسى من بني الطويل، رسوليه من مدينة فأس المتوجهين إلى أميرهما عبدالكريم بن يحيى صاحب عدوة الأندلسيين من فأس ، ومحمد بن حسن صاحب عدوة القرويين منها المقترن بهما في رسالته إليهما باستجابة جميعهم لما دعوا إليه من إمحاض الطاعة والقيام ببيعتهم التي أعطوها وعقدوها عن كتب أمير المؤمنين الواردة عليهم المقروءة على عوامهم في جوامعهم، بما يحتملون عليه من أداء طاعتهم من الدخول في الجماعة واتباع السنة والعمل بمذهب مالك بن أنس إمام أهل المدينة – رضي الله عنه – وإقامة النافلة في شهر رمضان المعظم، وتوقفهم عن العمل بما كانت ضلال الشيعة زرعته عندهم من البدع والتبديل والتحريف، وأنهم تقبلوا جميع ما أمروا بالتزامه من جميع ذلك، ودخلوا فيه أفواجاً ونبذوا ما عداه شاكرين لله تعالى على هداه، حامدين لمن تحداهم به وحملهم على سننه، وذكر الوزير غالب بن عبدالرحمن أن عبدالكريم بن يحيى ومحمد بن حسن صاحبه وجها إليه رهائنهما مع كتابي بيعتهما، وأن علي بن خلوف وجه إليه بابنه رهينة مع كتاب بيعته، فاستوسق أهل المغرب على الطاعة؛ فكانت نسخة بيعة عبدالكريم بن يحيى صاحب عدوة الأندلسيين ما نصه هذا: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب بيعة عبدالكريم بن يحيى وجماعة الأندلسيين بني عمه من أهل حاضرة فأس، كتبوه وثيقة وحجة على أنفسهم وأشهدوا الله وملائكته وأنبياءه ورسله وأولي العلم من خلقه ومن حضر من جماعة المسلمين، أنهم بايعوا الله عز وجل والإمام العدل الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين، وألزموا أنفسهم طاعته ليوالوا من والاه ويعادوا من عاداه وينصروا من نصره، ولا يلبسوا ولا يدلسوا ولا يوالوا أحداً سواه، ألزموا ذلك أنفسهم بالأيمان المؤكدة اللازمة لهم، وفي أعناقهم عهد الله

المؤكد اللازم لهم والمشي إلى مكة وعليهم صدقة أموالهم للمساكين، وبالله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب المهلك المدرك الرحمن الرحيم أنهم لبُراءاء من الشيعة وأهلها وأن يواقوهم ولا يراسلونهم سراً ولا إعلاناً تقاربوا منهم أو تباعدوا عنهم، وأنهم مستمسكون بالطاعة العاصمة من الزيغ والخلافة المكرمة القائمة بالحق التي وطد الله مبناها وشرفها وعظمها على من سواها، وأشهدوا الله وملائكته ورسله وأهل العلم من خلقه على ما ألزموه أنفسهم من القيام بالطاعة والعمل بفروضها ومسنونها، وأوجبوا ذلك على أنفسهم كوجوب ما لزمهم من فروض دينهم؛ إذ لا تتم دياناتهم إلا بالتصحيح لإمامهم واتباع أمره والوقوف عند نهيه، فعند أدائهم الطاعة يسلم لهم دينهم ودنياهم وآخرتهم وأولاهم قال تعالى ﴿**ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه الله أجراً عظيماً**﴾[1] وتاريخه عقب رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وذلك بمحضر من العلماء البلد وفقهائه وأهل الفضل منهم الذين ألزموا أنفسهم الطاعة والتزموا الأيمان المؤكدة وذلك في صحة من عقولهم وأبدانهم وكفى بالله شهيداً . وخط في أسفله خمسة وثلاثون رجلاً أسماءهم"[2] .

(١) سورة الفتح أية رقم (١٠)

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

ملحق رقم (١٤) الدولة العبيدية في المغرب[١]

(١) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط١، ص١٦٢، خريطة رقم(٨٣)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

ملحق رقم (١٥) الأندلس في عهد الدولة الأموية[1]



---

(١) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص١٧٢، خريطة رقم(٩٥).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- القرآن الكريم.

ابن الأبار: محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨ هـ):

- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق جلال الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

- الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

ابن الأثير: علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني (٦٣٠ هـ)

الكامل في التاريخ، تحقيق محمد بن يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ. ١٩٨٧ م.

الإدريسي: محمد بن محمد بن عبدالله الحسني (٥٤٨هـ)

نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢ م.

الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (٣٤٦ هـ)

المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤ م.

ابن بشكوال: خلف بن عبدالملك الخزرجي الأنصاري (٥٧٨هـ)

الصلة، تحقيق جلال الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

البغدادي: أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب (٤٦٤هـ)

تاريخ بغداد، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١ م.

البغدادي: عبد القاهر بن طاهر الإسفراييني (٤٢٩ هـ)

الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ط٢، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م.

البكري: أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (٤٨٧هـ)

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ب. ت.

البلاذري: أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩ هـ)

فتوح البلدان، تحقيق عبدالله بن أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للنشر، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي (٤٥٦ هـ)

- جمهرة أنساب العرب، تحقيق لجنة من العلماء، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.
- طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧ م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانقي، القاهرة، ب. ت.

ابن حماد: أبو عبدالله محمد بن علي الصنهاجي (٦٢٨ هـ)

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبدالحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠١هـ.

الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله (٤٨٨هـ)

جذوة المقتبس، تحقيق روحية عبدالرحمن السويفي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالله عبد المنعم (٩٠٠هـ)

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤ م.

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل (٣٦٧ هـ)

صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٢ م.

ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف القرطبي (٤٦٩ هـ)

- المقتبس، السفر الثاني، تحقيق محمود علي مكي، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣ م.
- المقتبس، السفر الثالث، تحقيق محمود علي مكي، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.
- المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤ م.
- المقتبس، تحقيق ب. شالميتا وآخرون، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٩م.
- المقتبس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

الخشني: محمد بن الحارث بن أسد (٣٦١ هـ)

قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق السيد عزت العطار الحسني، ط٢، مكتبة الخانقي، القاهرة، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.

ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبدالله السلماني (٧٧٦هـ)

- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، ط٢، مكتبة الخانقي، القاهرة، ١٩٧٣م.
- أعمال الأعلام، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.

ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ)

- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبدالسلام الشدادي، ط١، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن

عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١ هـ)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤ م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨ هـ)

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧ م.

ابن الزبير: أبوجعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)

صلة الصلة، تحقيق جلال الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨م.

الزبيدي: محمد بن الحسن بن مذحج الأندلسي (٣٧٩ هـ)

طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٣م.

الزبيدي: محمد بن مرتضى الحسيني (١٢٠٥هـ)

تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧ م.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (٢٣٠هـ)

الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ب. ت.

ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى المغربي (٦٨٥هـ)

المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٩م.

السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (١٣١٥هـ)

الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصر و محمد الناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧ م.

ابن سهل: أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي (٤٨٦هـ)

الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد التويجري، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥ م.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨ هـ)

الملل والنحل، تحقيق أحمد فهمي محمد، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢ م.

الشيرازي: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (٤٧٦ هـ)

طبقات الفقهاء، تهذيب محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠ م.

صاعد:أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي(٤٦٢هـ)

طبقات الأمم، تحقيق الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٣٣٠هـ، ١٩١٢ م.

الطبري: محمد بن جرير (٣١٠هـ)

تاريخ الأمم والملوك المسمى تاريخ الطبري، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ

ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبدالبر الأندلسي (٤٦٣هـ)

الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك بن أنس و محمد بن إدريس الشافعي و أبي حنيفة النعمان وعيون أخبارهم الشاهدة بإمامتهم وفضلهم في أدبهم وعلمهم، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط١، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (٧١٢هـ)

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال و عبدالله محمد علي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.

العذري: أحمد بن عمر بن أنس الأندلسي (٤٧٨هـ)

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥م.

ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي (٥٧١هـ)

تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥ م.

عياض: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (٥٤٤هـ)

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق عبده علي كوشك، ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

ابن فرحون: إبراهيم بن نور الدين المالكي (٧٩٩ هـ)

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق مأمون محيي الدين الجنّان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف (٤٠٣هـ)

تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية عبدالرحمن السويفي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١ م.

القرافي: شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي (٦٨٤ هـ)

الذخيرة، فقه مالكي، تحقيق محمد بوخبزة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤ م.

القزويني: أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود (٦٨٢هـ)

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ب. ت.

القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي (٨٢١هـ)

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

ابن القوطية: أبو بكر محمد بن عمر الإشبيلي (٣٦٧ هـ)

تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (٧٧٤ هـ)

البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

المالكي: أبو بكر عبدالله بن محمد (ت ٠ ب ٤٦٠ هـ)

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم، تحقيق بشير البكوش، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (٤٥٠هـ)

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق خالد عبداللطيف العليمي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

مجهول:

أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

مجهول:

تاريخ الأندلس، تحقيق عبدالقادر بوباية، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.

مجهول:

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

مجهول:

مفاخر البربر، تحقيق عبدالقادر بوباية، ط١، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٥م.

المراكشي: محيي الدين عبدالواحد بن علي التميمي (٦٤٧ هـ)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣م.

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق كمال حسن مرعي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

المقدسي: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر (٣٨٠ هـ)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

المقري: أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١ هـ)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي (٧١١ هـ)

لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

النباهي: أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد (٧١٣ هـ)

تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق مريم قاسم طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

القاضي النعمان: النعمان بن محمد بن منصور (٣٦٣ هـ)

المجالس والمسايرات، تحقيق إبراهيم الفقي وآخرون، ط١، دار المنتظر، بيروت، ١٩٩٦م.

النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (٦٧٦ هـ)

تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣ هـ)

نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

النيسابوري: مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١ هـ)

صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

الونشريسي: أحمد بن يحيى (٩١٤ هـ)

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، ط٥، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.

ياقوت: أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (٦٢٢ هـ)

معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ب. ت.

ثانياً: المراجع العربية:

أحمد أمين:

ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م.

أحمد بدر:

- تاريخ الأندلس في القرن الرابع، دمشق، ١٩٧٤م.
- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ط٢، دمشق، ١٩٧٢م.

أحمد مختار العبادي:

في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت. ب. ت.

أحمد هيكل:

الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

حسين مؤنس:

- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- شيوخ العصر، ط٢، دار الرشاد، القاهرة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
- فجر الأندلس، ط٢، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٩٨٥م.

خليل إبراهيم صالح السامرائي:

الثغر الأعلى الأندلسي دراسة في أحواله السياسية للفترة ٩٢هـ - ٣١٦هـ، مطبعة أسعد بالتعاون مع جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٦م.

خليل إبراهيم الكبيسي:

دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (ت ١٣٩٦هـ):

الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

رجب محمد عبدالحليم:

العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصري بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني،القاهرةوبيروت.ب.ت.

سعد بن عبدالله بن صالح البشري:

الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (٣١٦هـ – ٤٢٢هـ، ٩٢٨م – ١٠٣٠م) جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

سعيد بن علي بن وهف القحطاني:

شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية في ضوء الكتاب والسنة، مطبعة سفير، الرياض، ١٤٠٧هـ.

سعيد بن ناصر القحطاني:

حقيقة البدعة وأحكامها، مكتبة الرشد، الرياض. ب. ت.

سليمان الباروني:

مختصر تاريخ الإباضية، مكتبة الاستقامة، تونس، ب. ت.

شكيب أرسلان:

الحلل الموشية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، فاس، ١٣٥٥هـ، ١٩٣٦م.

عبدالعزيزالمجدوب:

الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم علي الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٥م.

عبدالمجيد نعنعي:

تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت. ب.ت.

علي بن محمد الصلابي:

صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحريربيت المقدس، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

مجموعة من المؤلفين:

المعجم الوسيط، إشراف شوقي ضيف، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م.

مجموعة من المؤلفين:

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مراجعة مانع حماد الجهني، ط٤، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ.

محمد إبراهيم أباالخيل:

- الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (٢٧٥هـ- ٣٠٠هـ، ٨٨٨م — ٩١٢م) دراسة في التاريخ السياسي، ط١، مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٦هـ.
- جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين (٤٨٣هـ/١٠٩٠م — ١٢٤٢/٦٤٠م)، ط١، دار أصداء المجتمع للنشر، بريدة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

محمد أحمد عبدالمولى:

القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

محمد عبدالحميد عيسى:

تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف لويس سواريث فرانديث ، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٢م.

محمد عبدالله عنان:

دولة الإسلام في الأندلس، ط٤، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٧م.

محمد عبدالوهاب خلاف:

- تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، ط١، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م .
- وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس، ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الإصبع عيسى بن سهل الأندلسي، مراجعة محمود مكي، ط١، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، ١٩٨١م.

محمد محمود السلاموني:

اللغة اللاتينية، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م.

محمود علي مكي:

التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

منيرة عبدالرحمن الشرقي:

علماء الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين دراسة في أوضاعهم الاقتصادية وأثرها على مواقفهم السياسية، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

ثالثاً: المراجع المعربة:

أنخل بالنثيا جنثالث :

تـاريخ الفكـر الأندلسـي، ترجمـة حسـين مـؤنس، مكتبـة الثقافـة الدينيـة، القـاهرة، ١٩٥٥م.

خوليان ريبيرا:

التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتهـا الغربيـة، ترجمـة الطـاهر أحمـد مكي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م.

رينهارت دوزي :

المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصـرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، ١٩٩٤م.

مونتغمري وات:

في تـاريخ إسـبانيا النصـرانية، ترجمـة محمـد رضـا المصـري، ط٢، شـركة المطبوعـات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٨م.

ليفي بروفنسال:

الحضـارة العربيـة في إسـبانيا، ترجمـة الطـاهر أحمـد مكـي، دار المعـارف، القـاهرة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

رابعاً: الرسائل العلمية:

أحمد بن عبدالرحمن الوزان:

الأثر السياسي والحضاري للحياة الفكرية في الأندلس خلال العصر الأموي، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عبدالفتاح عويس، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ.

خزعل ياسين مصطفى:

بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة (١٣٨هـ/ ٤٢٢هـ - ٧٥٥م/ ١٠٣٠م)، رسالة دكتوراه بإشراف الدكتور ناطق صالح مطلوب، كلية الآداب، جامعة الموصل، الموصل، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٤م.

سعد حسين عبدالله عثمان:

المجتمع الإسلامي في الأندلس في القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراة بإشراف الدكتور مصطفى محمد مسعد، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

عبير زكريا سليمان بيومي:

دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور محمد أحمد عبد أبو الفضل، كلية الآداب، جامعة طنطا، طنطا، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

ليلى أحمد نجار:

العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور أحمد السيد دراج، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٣م.

خامساً: الأبحاث والندوات والمقالات:

إحسان عباس:

الشورى في المغرب والأندلس منذ بداية الدولة الأموية حتى نهاية دولة الموحدين، من كتاب الشورى في الإسلام، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩م

شوقي ضيف:

استقلال القضاء في الأندلس، نشر في فصول أدبية وتاريخية لمجموعة من العلماء والأدباء مهداه إلى ناصر الدين الأسد، تحرير حسين عطوان، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

محمد عبدالحميد عيسى:

الحضارة الأندلسية مرحلة التكوين، نشر في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير قاسم عبده و رأفت عبدالحميد، المجلد الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

سادساً: الأطالس التاريخية:

حسين مؤنس :

أطلس تاريخ الإسلام، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

سابعاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

Altamira Y Crevea, Rafael:

Historia de Espana Y de la civilizacion Espanola, Tomo: l, Barcelona,1913.

Cuevas ,Cristobal:

El Pensamiento Del Islam, Madrid,1972.

Fernandez, Luis Suarez:

Historia de Espana, Edad Media, Editorial Greedos, s.a.,Madrid.

velvos, Joaquin:

"DenuevosobreBobarto", Al Andalus, Vol, XXX, Fasc,1.1965.

Villa- Realy Valdivia Francisco de Paula:

LeccionesElementales de HistoriaCritica de Espana, Granada, 1899.

الفهرس